



نهضة الآثار من تحت الرمال

الأزمة المالية والمواطن العربي

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

من معاني الحب والثورة، إلى معاني التضحية... خيط واحد اسمه اللون الأحمر. الملف يفتح ملف هذا اللون، ويقلّب معانيه على مختلف وجوهها، الرمزية واللغوية والفنية والأدبية.

القافلة



أرامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد عبدالله البريك

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
عبود عطية

سكرتير تحرير مساعد
د. فكتور سحاب

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
فاطمة الجفري

مكتب بيروت
رولان قطان

مكتب القاهرة
ليلى أمل

أمريكا الشمالية
أشرف إحسان فقيه

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

الصور الفوتوغرافية
أنور الخليفة

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها

- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

نوفمبر - ديسمبر 2008
ذو القعدة - ذو الحجة 1429

توزع مجاناً للمشتركين

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

الهواتف: رئيس التحرير 5346 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

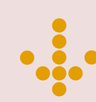
رسالة المحرر

قضايا

1

تواكب القافلة في صفحاتها الأولى من هذا العدد التحوُّل الكبير الذي طرأ على صعيد علم الآثار في المملكة، خلال تنامي الاهتمام العام به في السنوات الأخيرة، بل أيضاً من خلال ضم وكالة الآثار والمتاحف إلى الهيئة العليا للسياحة التي تبدل اسمها إلى الهيئة العامة للسياحة والآثار إيذاناً ببدء مرحلة جديدة، يضاف فيها الاستثمار السياحي للمعالم الأثرية الكثيرة في المملكة، إلى الجهود العلمية التي كانت الوكالة قد بدأتها منذ سنوات في كنف وزارة التربية والتعليم، والتي أثمرت سلسلة طويلة جداً من الاكتشافات والإنجازات.





ويتناول باب «قول في مقال» حقيقة العلاقة ما بين الصور الفوتوغرافية والكلمة، من خلال مناقشة القول الشائع «الصورة تساوي ألف كلمة» ونقد استعمالاته خارج دلالته الأصلية.

طاقة واقتصاد

2

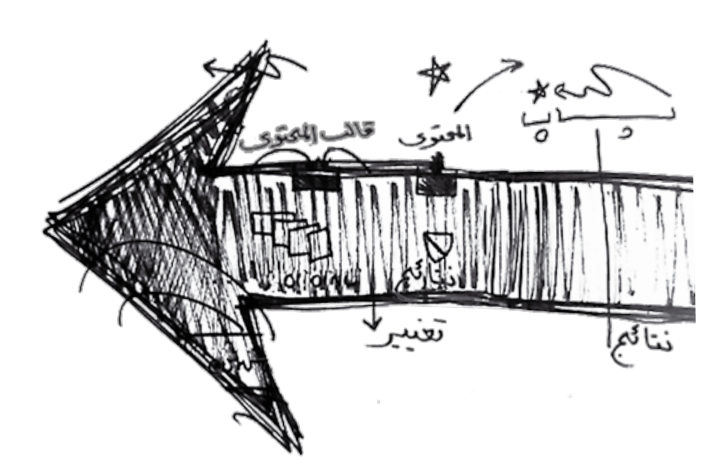
ويبحث مناخ الطاقة والاقتصاد في موضوعين: الأول هو حقيقة ما وصلت إليه الأبحاث حول السيارة صديقة البيئة بعيداً عن المزاعم التي تروِّج لغايات سياسية وإعلامية. أما الموضوع الثاني فهو على مستوى عالٍ من الأهمية إذ يتناول الأزمة المالية العالمية من زاوية آثارها المحتملة على الحياة اليومية لمتوسطي الحال الذين يعيشون بالاعتماد على رواتبهم الشهرية، ويؤكد على هؤلاء وجوب توخي الحذر من خلال إيلاء الادخار الاهتمام الذي يستحقه.

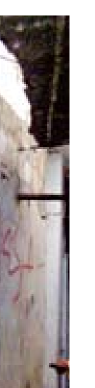


علوم وتقنية

3

ومن الشأن الاقتصادي إلى الشأن الذهني في مجال العلوم مع موضوع يبحث في الدور الكبير الذي تلعبه الأفكار الأولية والحسابات المبسطة التي يطالعنا بها البعض عفوياً على ظهر ورقة في سعيهم لإقناعنا بصواب فكرة معينة، وفي إطار تبسيط قضية شائكة.







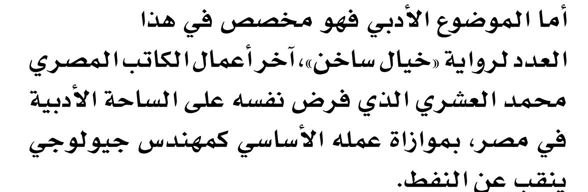
ويختلف الفاصل المصور في هذا العدد عما ألِفه قرَّاء القافلة من خلال الأعداد السابقة، إذ إنه مخصص هذه المرة لعيِّنة من أعمال أطفال المخيمات الفلسطينية في لبنان، الذين صوروا حياتهم اليومية على مدار عام كامل في إطار «مشروع لحظة» الذي نظمته «جمعية مهرجان الصورة ذاكرة».



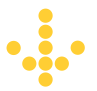
5 الثقافة والأدب

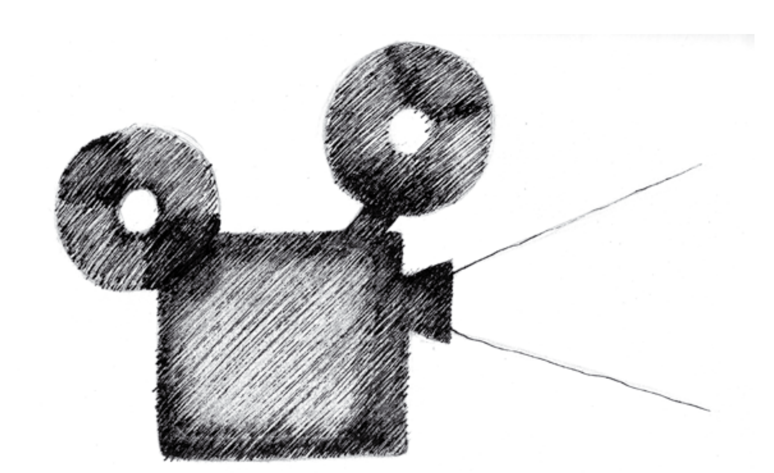
ويعرض مناخ الثقافة والأدب لقضية ذات أبعاد كبيرة على صعيد الثقافة العربية بماضيها وحاضرها ككل، ألا وهي الكتب المفقودة التي عرفنا من بعض المصادر أنها كُتبَتْ فعلاً، وكانت مراجع لمؤلفاتٍ أخرى، غير أنها ضاعت في غياهب الزمن، ولم يصلنا منها أية نسخة.





أما الموضوع الأدبي فهو مخصص في هذا العدد لرواية «خيال ساخن»، آخر أعمال الكاتب المصري محمد العشري الذي فرض نفسه على الساحة الأدبية في مصر، بموازاة عمله الأساسي كمهندس جيولوجي ينقب عن النفط.





4 الحياة اليومية

ويجمع مناخ الحياة اليومية ثلاثة إسهامات تتكامل في السعي إلى تفسير تسلسل مفردات وعبارات من التلفزيون والسينما والإنترنت إلى اللغة المحكية يومياً، وهو الأمر الذي لم ينل ما يستحقه من انتباه وتفسير مع غض النظر عن دلالاته سلبية كانت أم طبيعية.

6 ملف العدد

وفي ختام الرحلة لهذا العدد، تفرد القافلة صفحات ملفها للعالم الشاسع الذي يحتله اللون الأحمر ويرمز إليه.. الأحمر الذي نحبه تارة ونخشاه تارة، وذو الدلالات التي تجعله أقرب إلى أن يكون سلطة منه إلى مجرد لون من الألوان.



الرحلة معاً

البقّار

لدي كتاب مخطوط، أو بالأحرى مشروع كتاب، عنوانه: «الخليفة المثقَّف»، وأقصد به الخليفة العباسي، عبدالله المأمون ابن هارون الرشيد. وقد أسعفني هذا العنوان لأضع عنوان هذه الرحلة مع (الرئيس المثقف)، وأقصد به عبدالله بن صالح ابن جمعة، رئيس أرامكو السعودية وكبير إدارييها التنفيذيين، الذي سيرخي أكتافه مطلع شهر يناير القادم، بعد أن حمل عليها أعباء الشركة، التي تقع أعمالها موقع القلب من كل دانية في المملكة وقاصية في العالم، حيث لا تتحرَّك دابة صناعية إلا بما توفِّره صناعة الطاقة، التي تتسيَّدها أرامكو، من أسباب هذا التحرك.

وخلف هذه الطاقة كان حامل راية التبشير النفطي كثير الأسفار والحل والترحال، الذي كلما اشتد عليه وطء الطائرات والمطارات والاجتماعات، كأني به يتمثل قول ابن زريق البغدادي (420 هـ):

ما آب من سفر إلا وأزعجه
رأي إلى سفر بالعزم يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل
موكل بفضاء الله يذرعه

كان عبدالله جمعة موكلاً بفضاءات اقتصادية وصناعية لا يمكن قياس حدودها، لأنه لا يمكن قياس حدود طموح شركته، كما لا يمكن قياس طموحات الرجل نفسه، الذي وقع في حياته، كما أتصور، وكما عرفته من قريب وبعيد، في أربع رغبات: أن يستبطن بعض قواعد النحو والصرف كلما قبض على من يفهم اللغة، وأن يقرأ كتاباً جديداً كل أسبوع، وأن يحفظ قصيدة كل شهر، وأن يجعل أرامكو السعودية شركة تضمن مستقبلها كما ضمنت حاضرها.

وإذا كانت أرامكو السعودية هي بيت القصيد العملي في حياته، فإن ما عداها، من نثر وشعر ومفاصل لغوية وثقافية، هو العشق الذي يضع رأسه على صدره ليستريح من المفاوضات والقرارات والمنابر الممتدة على طول قارات العالم: من خور سنغافورة إلى قاعات هارفارد ونيودلهي وأقسام الدراسات العربية في الجامعات الكورية.

ولطالما وقعنا، أو لنقل وقعت، في صيغه النقدية العذبة. تصور أن النقد يكتسب عذوبة، بعد أن تعوّدنا أن الناقدين، أو أغلبهم، يفككون اللغة ويوظفونها لتكون أشرس وأشد وطأة وأثراً على المنقود، الذي وضع نفسه في لجة الحرف وأهله. وهي لجة، كما نعلم، تتلاطم سواداتها بقدر ما تتلاطم بياضاتها وإغراءاتها. كنت شخصياً لا أصدق أن أقبض على معتد عليَّ من أهل الحرف لكي أنقض عليه بكل ما أوتيتُ من عدم حصافة، وهكذا فعل كثيرون حين ظنوا أن النقد صناعة قوامها غلاظة الألفاظ وجسارة المعاني على الإيذاء. وقد تعلَّمت من الرئيس المثقف عبدالله جمعة أن أستحضر كامل قواي الذهنية لأفهم أبعد مما أسمع، وإذا سمعت لابد أن أتدبَّر قبل أن أستل قلمي محبراً البياض الذي يبدو مغرياً أمامي.





الإغراء في تعشق صناعة الحرف، قراءة وكتابة، لا يكفي، فبعد حين، وهذا ما أظن أنه حدث معي حين اقتربت من الأستاذ عبدالله جمعة ثقافياً، لابد أن تعيد النظر في طريقتك في التثقف وممارسة مكتسباتك الثقافية مع الآخرين.

التواضع، وهذه صفة أخرى له يعرفها كل من تطارحوا معه شؤون الثقافة وهمومها، يعلِّمك كيف تنحني لكل صاحب بادرة إبداعية، مهما غاب أو غيب في ظلال الكبار والنجوم. وإذا لم تخطئ ذاكرتي فقد كان من أوائل من قرأوا (بنات الرياض) لرجاء الصانع و(سقف الكفاية) لمحمد علوان. لا أحد، وهذا درس آخر تعلمته منه، تحت احتمالات الإبداع، حتى لو كنت، على سبيل المثال، تقرأ لعتاة الروائيين العالميين والعرب. لديه قابلية شديدة ليضع في نفس الحقيبة رواية عمارة يعقوبيان وقصة قصيرة كتبها صغير في الثانوية ويريد رأيه فيها. ولا تخلو حقيبته الثقافية دائماً من الشعر، أعجبه أم لم يعجبه، فالمهم القراءة ثم تتولى الذائقة والذاكرة فرز الجيد من الرديء. ولكي تُنصفه شعرياً فإنك لا تلقي بيت شعر أمامه إلا وانقض عليك بأبيات لها نفس المعنى من قديم الشعراء وجديدهم.

كان يقرأ كل شيء، وهذه ميزة لا تتحقق فيما أظن إلا لمن لا يُسبِّق قراءته بحكم على النص محل القراءة. ولذلك اعتدنا منه في القافلة أن يهاتفنا من حين إلى آخر ليظهر إعجابه بهذه الموضوع أو ذاك، وهو حين يرسل إعجابه كريم مغداق في ألفاظه وتشجيعاته. أما حين يكون متحفظاً فإنه يكتفي بكلمتين بينهما (لو) ثم ينتقل إلى طبعه السائد: «شدوا حيلكم..». ولا يخلو الأمر كل مرة من مخرج لذيذ عن بيت من الشعر أو حكمة دارجة، أو سؤال عن اسم جديد فيه من علامات الإبداع ما يثير السؤال عنه وإذا كان لديه جديد في سوق الكتاب.

كان عبدالله جمعة، بضمير مرتاح وبدون أي حد من المجاملة، قصة سعودية جميلة: كان سيداً، رئيساً، مثقفاً، إنساناً متواضعاً.. وكان إذا قرأ أسرف وإذا تحدَّث أطرب وإذا عاتب رقّق، وإذا التفت ناحيتك أهداك ابتسامة شديدة البياض وشديدة العلاقة بالبحَّارة، الذين كانوا يبتسمون بصفاء وعذوبة كلما تعبوا من البحر، وكانوا، أكثر من ذلك، يغنون لأفئدتهم، من أجل أن تبقى أفئدة الآخرين عامرة.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

الأزمة الاقتصادية العالمية

منذ سنوات والقافلة تدهشنا في كل عدد من أعدادها من حيث اختيار الموضوعات وإخراجها الفني الذي يجعل منها تحفة المجلات الثقافية العربية.
ومع إدراكي للأسباب التي تدفع أسرة التحرير الكريمة إلى اختيار الموضوعات، وإعجابي بكل ما تنتقيه من قضايا لتطرحها على بساط البحث، إلاّ أنني لا أخفي عليكم أنني كنت أتوقع وأنا أستلم عدد القافلة لشهري سبتمبر/أكتوبر أن تكون الأزمة الاقتصادية العالمية التي تتخبط بها الكرة الأرضية بأسرها، هي موضوع باب الطاقة والاقتصاد، وهو الباب المفضَّل لدي شخصياً. غير أني لم أجد أية كلمة حول هذه الأزمة الخطرة التي تشغل بال العالم، وتملأ أخبارها الصحف والمجلات. فلماذا غياب هذا الشأن الخطر عن صفحات القافلة؟

ماجدة حسن عقيل
المنامة

القافلة: تجدين في هذا العدد بحثاً مسهباً في هذا الموضوع.

المجلد السادس والخمسون

تلقيت خطابكم والمرفق به نسخة من المجلد (56) من مجلة القافلة لعام 2008م.
أشكركم على إهدائكم، وأقدِّر لكم حرصكم على تزويدي بنسخة من هذا المجلد الذي يسرني وصوله بانتظام، متمنياً لكم ولجميع من شارك في إعداده وإخراجه المزيد من التوفيق والنجاح، وسائلاً المولى لكم العون والسداد. مع أطيب تحيّاتي.

غازي بن عبد الرحمن القصيبي
وزير العمل

غير متوافرة في الخبر؟

حدث عن طريق الصدفة، أن وقع بين يدي أحد أعداد مجلتكم القيِّمة التي أرى بحق أنها من أحسن، إذا لم تكن أجود وأفضل مجلة ثقافية علمية جادة في العالم العربي. وإني أستغرب كيف لمجلة من هذا النوع ألاَّ تكون متوافرة وبسهولة بين أيدي المواطن العربي وحتى لو كانت بثمن.
وحيث إنني لست أحد موظفي أرامكو، أسأل إن كان هناك إمكانية، ولو بدفع اشتراك، أن أحصل على مجلة القافلة شهرياً. ولكم جزيل الشكر والامتنان.

عبد المحسن علي السبعان
الخبر

القافلة: اشتراكات القافلة مجانية كما هو معروف، وستصلك أعدادها تباعاً إن شاء الله.

هذا الكنز الثقافي

في البداية لقد سرَّني هذا الكنز الثقافي الذي تقدمونه للناس. فقد وقع نظري على أعداد من مجلتكم الغرَّاء القافلة، وقد شدني وجذبني ما تحويه من معلومات قيِّمة في مختلف المجالات العلمية والاقتصادية والأدبية وغيرها من مجالات الحياة التي أسرت قلوب قارئها.
فبوركت سواعدكم وأدامكم الله ونفع بكم الإسلام والمسلمين وكل القائمين على هذا العمل الرائع لما تقدمونه من جهد وكنز حقيقي للقراء.

حسام محمد الشرع
عجلون، الأردن

في جميع المجالات

اطّلعتُ على مجلة القافلة الغالية، وقرأت عن صنّاع الحياة والحلي في ديوان العرب، وعن الشجرة في المدينة وعن يوم الشجرة وعن الزراعة النسيجية وعن الفروسية في نجران، وعن البرامج الثقافية في الإذاعة السعودية. وأعجبتني هذه المجلة الغالية والمفيدة في كل المجالات. ولهذا أرجو أن تزودونني

بها أسوة بباقي الأصدقاء الذين يعملون في الدوائر الحكومية.

أحمد بن راشد الجوير
الزلفي

القافلة: ليس شرطاً أن يكون المشترك موظفاً في الدوائر الحكومية، بل أن يكون قارئاً راغباً في الحصول عليها. وستصلك أعداد المجلة في المستقبل إن شاء الله.

موضوعات الاقتصاد

وجدت العدد «الأخير» من مجلة القافلة عند أحد أصدقائي واطلعت عليه فراقتني موضوعاتها المشوقة. وبحكم الاختصاص، انبهرت بالموضوعين حول «فقراء المدن أمام أزمة الغذاء» و«تجار وتجارة مربحة من دون متاجر»، لما جاء فيهما من معلومات قيِّمة.

حسين بن عطية
أستاذ محاضر بجامعة الجزائر

أحدث فلم عن الحلاَّق

بعد التحية وإبداء الإعجاب الشديد بكل محتويات القافلة الغالية على قلوبنا، أود الإشارة إلى خطأ أو نقص ورد فيما كتبه الأستاذ إبراهيم العريس حول الحلاَّق في السينما، ضمن ملف العدد الحالي (سبتمبر – أكتوبر 2008م)، حيث جاء أن أحدث فلم عن الحلاَّقين هو «سويني تود» الذي أنتج عام 2007م. في حين أن أحدث فلم هو «محل الحلاقة 2 العودة إلى العمل» الذي أنتج خلال العام الجاري 2008م. وهو الجزء الثاني من «محل الحلاقة» الذي ظهر قبل نحو سنوات ثلاث، ويصوِّر حياة الزنوج الاجتماعية في ضواحي مدينة شيكاغو الأمريكية.

وهذان الفلمان من بطولة آيس كيوب، وسيدريك ذي انترتايز، وإليهما انضمت الممثلة المشهورة كوين لطيفة في الجزء الثاني.

صفوان إدريس
حلب

المشتركون الجدد

إيمان عبد العزيز البهلال، الرياض – عامر العامر، الهفوف – محمد فرج أحمد، ليبيا – سليمان بت صالح الحميد، حائل – محمد بن عبد الله الشهري، الدمام – محمد بن حسن فتح علي، مكة المكرمة – محمد سعيد فرحة الغامدي، الباحة – دخيل الله محمد حسن الزهراني، الباحة – محمد فرزولي، الجزائر – صفوان وجدني، المغرب – سي عمر بالقاسم، الجزائر – عباس أحمد علي، الدمام – بو شريط عبد اللطيف، الجزائر – عبد المحسن أحمد عبد المحسن الجمعة، الدمام – عثمان بن صالح القحطاني، الخرج – أحمد نور الناصر، رأس تنورة – زكي راضي الكرم، القطيف – هدى عبد العال باتلي، المملكة المتحدة – موسى الهنائي، سلطنة عمان – علي إبراهيم محمد السويلم، الأحساء- يوسف خلف حمدان الشمري، الجبيل الصناعية – عبيدة نهاد غالية، سوريا – خالد دعس، الرياض – محمد طه عبد الله الشيبي، الطائف – سليمان بن محمد الحجي، الهفوف – محمد عوني عبد الساتر، مصر – هاني جعفر بو مجداد، الأحساء – عبد الله سعد العابسي، أبها – عبد الحميد جباري، الجزائر - عمر أبو شميس، جدة – الدكتور محمد الصغير، الرياض – سمير سويد، سوريا – عبدالعزيز بن صالح، الرياض.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحّب بكم أصدقاءً لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قصائد كسيرة..

محمد عزَّت الطيري

جزاء

القطة الطيبة الصغيرة
تنام ملء حلمها الوردي
فوق فروة السجادة الوثيرة
وفي خيالها
فأران طازجان
تهديهما
لقطها الذي
ينام ملء حلمه
بقطة أخرى
في شُرفة الجيران
تغريه
بابتسامة
مثيرة

* * *

انتظار

وظل طول عمره المديد
ينتظر البريد
وعندما أتى
لم يكن الذي
يريد

* * *

لقاء

من سرَّه في الليل
أن يكونني
من ساءه
في الليل
أن يكونني
تقابلا، واقتتلا
وسقطا
مضرَّجين في دمي

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

الحلق من واجبات الحج

كان الملف في مجلة القافلة لشهري سبتمبر/أكتوبر 2008م عن الحلاقة. وقد أسفت لأنه لم يتعرَّض للحديث النبوي الشريف «رحم الله المحلقين». قالها (صلى الله عليه وسلم) ثلاثاً، وفي الرابعة بعد تكرار السؤال قال «والمقصِّرين». الحلق والتقصير واجب من واجبات الحج، وعدّها الشافعية من أركان الحج. وإذا كانت البشرية تصدّر وفودها من كافة أرجاء المعمورة ومن جزائر البحار والمحيطات مثل قبرص والمالديف وسريلانكا، فلك أن تتصوَّر مجمع حلاقة لكافة سلالات البشر في مكة المكرمة وفي منى.

مئات الآلاف يحلقون عند جمرة العقبة بمنى أو في مكة المكرمة، وبعض منهم، وهم قليل يحلقون في جدة أو الطائف. والبعض من هؤلاء يقصِّرون. كذلك النساء اللواتي أدَّين المناسك يجب عليهن التقصير، وهن يدخلن بذلك في حديث «رحم الله المحلقين» لأن ليس عليهن حلق.

لكن إذا لم يقصِّر أو يحلق الحاج فعليه فدية، وهي الصوم أو ذبح شاة في مكة المكرمة، لا في بلده ولا حتى في جدة أو الطائف أقرب مدينتين إلى البلد الحرام. وهناك قصص عمن نسي الحلق أو التقصير وذهب إلى بلاده.. وأهمل هذا الواجب، ثم عاشر زوجته.. أقدم على محظور، فإن كان ناسياً فلا شيء عليه ولكن كلما قص أظافره أو سقط شعر جسده، عدا رأسه، فعليه فدية. ولا يحق له أن يعقد لابنته حتى يحلق أو يقصِّر. فضلاً عن أن يتزوج حتى يقوم بتمام هذه الشعيرة. ويبقى حجه مخدوشاً، غير مبرور، رجلاً كان أم امرأة.

أما القصص الاجتماعية.. والطبية، والتجارية، وازدهار بيع المقصات والأمواس.. و(النظافة) الناتجة عن تكدس ملايين أو بلايين الشعور، فإن ذلك يحتاج إلى حلقة أخرى عنوانها «حلقة حلاقة ثانية للقافلة».

محمد علي الجفري

جدة

تعقيباً على ملف القافلة «الحلاَّق»، «القافلة» عدد سبتمبر-أكتوبر 2008

حول

الشافعي شاعراً

طالعت في العدد الرابع المجلد 57 يوليو - أغسطس 2008م باب ديوان الأمس، وفيه يذكر الكاتب أبيات شعرية منسوبة إلى الإمام الشافعي.

والحقيقة التاريخية المعروفة أن الإمام الشافعي لم يُعرف عنه أنه شاعر مجيد أو مطبوع، وإنما ترك لنا أبياتاً شعرية كان يتمثلها جمعت بعضها على بعض ووضعت فيما يسمى بديوان الإمام الشافعي وبين ذلك أبيات عبيد ابن الأبرص بن حنتم من داليتة الشهيرة التي من أبياتها ما يقول:

«تمنَّى مُرَيْءُ القيس موتي وإن أمت ... فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحد

لعل الذي يرجو رداي ومَيْتَتي ... سَفَاهاً وجُبناً أن يكون هو الرَّدي

فما عيشُ من يرْجُو هلاكي بضائري ... ولا موتُ من قد مَات قبلي بمُخْلدي».

والحقيقة أن الإمام الشافعي قد تمثَّل ببعض أبيات هذه القصيدة، ونسبها البعض إليه، وجاءت في ديوانه -ديوان الشافعي- على أنها من شعره لا من شعر عبيد بن الأبرص ، فكيف حدث الخلط بين شعر عبيد وشعر الإمام الشافعي؟

إن الأشعار التي دخلت ديوان الإمام الشافعي يتحمل وزرها الرواة. لأن الإمام تمثل بها لما فيها من حكمة بالغة وسهولة وبساطة في اللفظ، وشاهد ذلك الأبيات الثلاثة التي تبدأ من قول عبيد في قصيدته «تمنى امرئ القيس موتي وإن أمت ....» وردت بالتمام في ديوان الشافعي، مع تعديل طفيف في بعض الألفاظ. وفي آخر طبعة لديوان الشافعي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1997م نطالع في الصفحتين 27 و28: قال الأصبهاني حدثنا ابن القاسم قال أملى علينا الزبير بن عبد الواحد يقول: سمعت الحسن بن سفيان يقول: سمعت حرملة يقول: سمعت الشافعي يقول:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

وما موت من قد مات قبلي بضائري ... ولا عيش من قد عاش بعدي بمخلدي

لعل الذي يرجو فنائي ويدعي ... به قبل موتي أن يكون هو الردي.

وأعتقد أن الرواة أخطأوا في نسبة الأبيات التي بجمالها وقربها من النفس تمثل بها الإمام الشافعي، كما أخطأوا في نسبة أبيات أخرى تحمل القدر نفسه من الجَمَال والحكمة إلى الشافعي.

سهير أبوبكر عبد الوهاب الشاذلي

قرية دمشيت – طنطا- مصر

نقلاً عن مقال بقلم بشير عياد: وقفة مع عبيد بن الأبرص

تعقيباً على ديوان الأمس واليوم «أبيات مغناة لا تُنسى»، «القافلة» عدد يوليو-أغسطس 2008

حول

احتفاءً بعكاظ الجديد..
دور عكاظ القديم في نشأة الشعر

طالعت في القافلة العدد الرابع المجلد 57 يوليو/أغسطس 2008م مقال رئيس التحرير في بابه القيِّم: الرحلة معاً، تحت عنوان: سوق عكاظ، ولما كان لي اهتمام بالموضوع كان هذا التعقيب.

إن لسوق عكاظ، مكانة علية في وجدان العرب منذ زمن بعيد ومازالت، فأشعارهم ما انفكت تتغنى بأمجاده، وكتبهم ظلت تسرد أخباره. كيف لا، ونبي الهدى (صلَّى الله عليه وسلم) وقف به عدة مرات، قبل البعثة محارباً وعارضاً تجارته، وبعد البعثة داعياً لرسالته. كما أن رموز الشعر العربي الرصين في العصر الجاهلي على وجه التحديد، هم نتاج هذا السوق الذي كان ينخل أشعارهم، ويقدح أفكارهم، ويُشهر أسماءهم.

وفي عصرنا الحاضر، فإن سوق عكاظ، هو معلم تاريخي لا ينبغي التقليل من أهميته، حتى لو تعطل دوره الأدبي عدة قرون، وفقدنا بسبب ذلك مشاهد «معاكظاته» ومبارزاته وفروسياته.

فإذا ذكرت الطائف، (يقع السوق شمالي الطائف، بميل نحو الشرق أو الغرب، على بعد بين 40 و45 كم، بين ركبة وقرن. لأن السوق كان متنقلاً في بيوت من الشعر، في هذه الاتجاهات شمالي الطائف، فكان يقام في كل عام في حماية قبيلة. فمرة في حماية عدوان، ومرة في حماية قريش، ومرة في حماية هذيل، ومرة في حماية هوازن، وهي القبائل المتجاورة شرقي مكة المكرمة وشمالي الطائف. أما بداية سوق عكاظ فقد حددها المؤرخون نحو سنة 60 قبل ميلاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو يوافق 511 ميلادية. وكان تاريخ انتهاء السوق حسب كتب التاريخ عام 129هـ حين خرجت الخوارج الحرورية مع المختار ابن عوف الأزدي الإباضي من مكة في تلك السنة، فنهبوا سوق عكاظ فخاف الناس الذهاب إليه خوفاً من الفتنة، فهُجرت حتى الآن. ولكنه عاد برونق جديد وبفعاليات متعددة تحت مسمى سوق عكاظ التاريخي، وكانت انطلاقته في هذا العصر خلال صيف العام الماضي 2007م.

ولادة الشعر العربي

من المعروف أن الأدب العربي أول ما ظهر كان شعراً. ولكن -مع الأسف- لم يصلنا هذا الشعر الأول الذي كان في محاولات أولية يصيب حيناً ويخطئ أحياناً في الوزن والموضوع. وذلك أن الناس في ذلك العصر لم يكونوا يدوِّنون شعرهم في كتاب أو نقش. فإذا تقدَّم الزمن، ضاع ما نطق به شعراؤهم، وخاصة إذا كان جديدهم خيراً من قديمهم وأنسب لذوقهم وأذنهم وأكثر ملاءمة لحياتهم.

ولا شك في أن صفاء وسليقة الذهن العربي إلى جانب قوة الملاحظة والذكاء الحاد والعاطفة القوية والصحراء الفسيحة ذات النغمة الواحدة تقريباً، جعلته يتطور سريعاً ويحذف في فنه الجديد.

ويقال إن أقدم شعر وصل إلينا، كان الشعر الذي قيل في حرب البسوس أو قبل ذلك قليلاً، وكان ذلك قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن. وقد وصلت إلينا من ذلك قصائد كاملة يستحيل أن تكون أولى المحاولات. وعلى الجملة، فالشعر الجاهلي الذي وصل إلينا يمثِّل مرحلة سبقتها مراحل.

وقد قالوا إن أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب. وكان اسم المهلهل عدياً وإنما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه. ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات التي يقولها الرجل في المحادثة. وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبدالمطلب وهاشم بن عبد مناف. وقيل إن المهلهل أول من قصد القصائد وامرئ القيس أول من أطالها وجودها وتفنن في موضوعاتها.



وعُرف الشعر وذاع أمره وانتشر بين العرب، وأول من نبغ فيه كان امرؤ القيس من كندة. وحاتم الطائي من طيء والمهلهل وطرفة والأعشى من ربيعة والنابغة وزهير ولبيد من مضر. وسريعاً وفي أقل من قرن ونصف القرن تراكم لنا هذا الكم الضخم من جيد الشعر الجاهلي. والغريب فيه وحدة اللغة واللهجة والأسلوب والوزن الشعري عند قبائل الجاهلية المختلفة اللهجة. ويرجع البعض ذلك إلى اجتماعهم بسوق عكاظ واتخاذ الشعراء عامة لهجة موحدة وأسلوباً خاصاً في الشعر غير أسلوبهم المألوف في مدينتهم. وانتشر الشعر العربي الجاهلي في أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية، وأصبح الشعر لسان حال المجتمعات العربية ووسائل إعلامها.

المعلَّقات

هي أهم قصائد الشعر الجاهلي وأطولها، وتسمَّى «السِّمط أو المذهبات أو المقلدات أو المسمطات»، وهي سبع قصائد طويلة جيدة اختيرت من الشعر الجاهلي وكتبت بماء الذهب. والسمط جمع سمطاء وهي القصيدة المسمطة ويقصد بها هنا المعلقة، وقد اختلفت الآراء حول عددها وحول شعرائها أيضاً بسبب اختلاف الرواة وتغليب مشاعرهم وانتماءاتهم القبلية. فعددها عندهم تراوح بين خمس قصائد وتسع، يقول بروكلمان «إن خمساً منها محل اتفاق الجميع وهي معلقات: امرئ القيس وطرفه وزهير ولبيد وعمرو بن كلثوم، ويمكن إدراج المعلقتين السادسة والسابعة لعنترة والحارث بن حلزة لموافقة أكثر الرواة عليهما، في حين وضع المفضل الضبي مكانهما قصيدتي النابغة والأعشى».

تعليق المعلَّقات وقراءتها في عكاظ

لعل أهم ما يجب أن نعلمه عن المعلَّقات هي أنها نقلت الشعر العربي من الشفاهية إلى التدوين والكتابة، فمن المعروف أن العرب كان أغلبهم بدواً لا يقيدون شعرهم في كتاب أو نقش فإذا تقدم الزمن ضاع ما نطق به شعراؤهم ولما وصل الشعر إلى ما وصل إليه في شعر امرئ القيس وأمثاله من أصحاب المعلَّقات من نظم منسجم ونفس طويل وتعبير محكم ووحدة في القافية خافوا ضياعه من الصدور والألسن وعملوا على نقله من مشافهة الإرسال والاستقبال إلى الحضور الكتابي للخط والقراءة فحفظوا هذه المعلَّقات في صحائف نفيسة من قباطي مصر -القباطي بضم القاف وفتح الباء- ثياب رقاق من كتان مصر ناصعة البياض لا تشف ناعمة ملساء - كتبوا على نسيجها المعلَّقات بالذهب فصارت مذهبات وصارت معها القصيدة المختارة (مذهبة) وكانت هذه القصائد تُقرأ من على برج شاهق الارتفاع في عكاظ، يبلغ علوه سبعة وعشرين ذراعاً، فيسمع كل من حضر من العرب -للحج- القصيدة ويعود العرب إلى خيامهم استعداداً للرحيل بعد أن زاروا بيت الله الحرام، وقرئت عليهم القصيدة التي اعترف بها كمذهبة أو معلَّقة، وأعلن الاعتراف بجدارتها شعراً وبجدارة قائلها شاعراً.

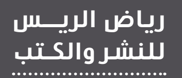
صلاح عبد الستار محمد الشهاوي
مصر

تعقيباً على موضوع الرحلة معاً «سوق عكاظ»، «القافلة» عدد يوليو-أغسطس 2008

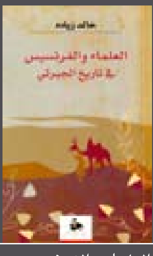
قافلة النشر

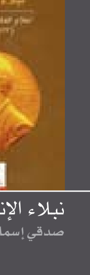
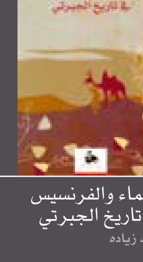


رياض الريس للنشر والكتب



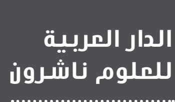


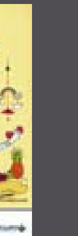



- أسرار الصندوق الأسود — غسان شربل
- العلماء والفرنسيس في تاريخ الجبرتي — خالد زيادة
- نبلاء الإنسانية — صدقي إسماعيل
- ديوك العولمة — ناجي بيضون
- رمّان (شعر) — سعاد جروس

الدار العربية للعلوم ناشرون









- عن الترجمة — بول ريكور
- من الذاكرة — ن. رمزي
- حكاية رجل اسمه دايف — دايف بيلزر
- بعد الولادة — كيت كوك
- كيف تؤثر في الآخرين — د. دافيد ج. ليبرمان

مركز دراسات الوحدة العربية
المنظمة العربية للترجمة







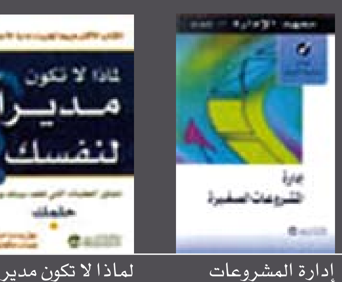
- أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا — إدموند هوسرل
- حديث الطريقة — رينيه ديكارت
- السياسات الاقتصادية والفقر — د. سالم النجفي، د. أحمد فتحي
- أعمال السجزي الرياضية — د. رشدي الراشد
- الخطاب القومي العربي المعاصر — د. الطاهر المنّاعي

مكتبة جرير







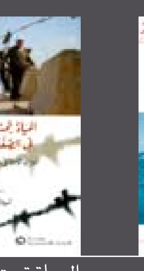


- المالية والمحاسبة لغير المحاسبين — سوزان كابلان
- إدارة الأولويات: الأهم أولاً — ستيفن كوفي، روجر ميريل وريبيكا ميريل
- إدارة المشروعات الصغيرة — معهد الإدارة، لندن
- لماذا لا تكون مديراً لنفسك؟ — بول وسارا إدواردز/بيتر إيكونومي

مؤسسة الدراسات الفلسطينية









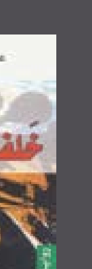
يافا..
حسن إبراهيم سعيد

الحياة تحت الاحتلال في الضفة والقطاع
ليزا تراكي

عام الجراد
سليم تماري

الخط الحديدي الحجازي
جوني منصور

دار المدى






برّ دبي (رواية)
زياد عبدالله

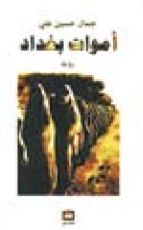
حكايات إيفا لونا
إيزابيل الليندي

الشعر السياسي الحديث في العراق
الدكتور يوسف عز الدين

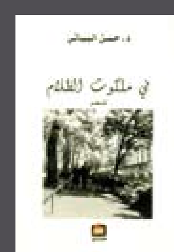
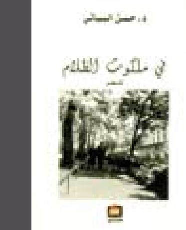
خلف السَّدة (رواية)
عبدالله صخي

حصيلة الأيام
إيزابيل الليندي

دار الفارابي



التركيب الشرطي في النحو والأصول
سعود بن عبدالله الزدجالي

أموات بغداد (رواية)
جمال حسين علي

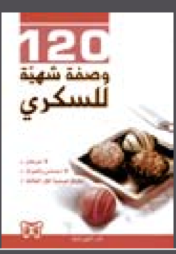
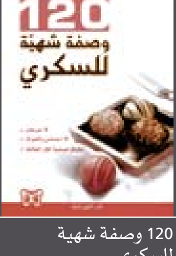
إرهاب الحب
أسامة عبيد

في ملكوت الظلام (شعر)
د. حسن البياتي

القبو (رواية)
حمزة باديس

دار الفراشة



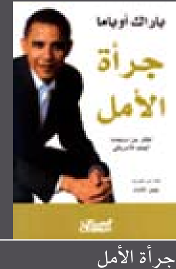
العلاجات المعجزة لأمراض المعدة
كاثرين مارسدن

120 وصفة شهية للسكري

موسوعة الريجيم والتغذية المثلى
باتريك هولفورد

مكتبات ونشر العبيكان






جرأة الأمل
باراك أوباما

عقد الروح
نبيلة الخطيب

قاموس تصريف الأفعال الإنجليزية
أحمد حنفي

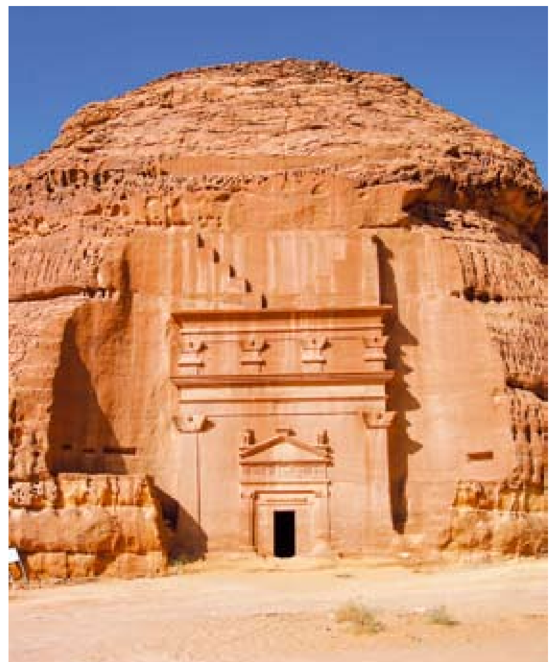
نساء اعتنقن الإسلام
نعيمة روبرت

النهضة بالآثار السعودية..

من تحت الرمال إلى ما يُدهش العالم

يوماً بعد يوم يزداد وضوح خريطة الآثار القديمة في منطقة الجزيرة العربية، كما يزداد الاهتمام الرسمي والعلمي بتحديد مواقع هذه الآثار واستكشاف ما لم يستكشف منها لأغراض عديدة؛ من أهمها اهتمام قيادة المملكة بتعريف المواطنين على بلادهم وتاريخها وكنوزها الحضارية، وأيضاً بوضع هذه الآثار على خريطة السياحة الداخلية. ولا أدَلّ على ذلك من ضم وكالة الآثار والمتاحف إلى الهيئة العليا للسياحة كي تتضافر الجهود من الداخل والخارج على البحث والتنقيب وإعداد المواقع للزيارات السياحية، وهذا ما أعقبه مؤخراً قرار يقضي بتطوير خمسة وعشرين متحفاً للآثار السعودية في مختلف المناطق. دينا الشهوان تعرض هنا مسيرة الاهتمام بالآثار السعودية منذ انطلاقتها الأولى وصولاً إلى الدفع غير المسبوق الذي شهده هذا العلم في المملكة خلال السنوات الأخيرة، ولا يزال يزداد زخماً يوماً بعد يوم.


آثار منطقة حائل


مدائن صالح



يمكن للباحث عما يجري في علم الآثار في المملكة أن يعثر بسرعة على فيض من الأخبار المتعددة الأوجه.

فعلى صعيد الحفريات مثلاً، تتوزع فرق البحث والتنقيب السعودية على مواقع متنوعة ومتباعدة، من سواحل جزر فرسان حيث البعثة السعودية البريطانية، إلى نواحي تيماء حيث البعثة السعودية الألمانية، وحتى محيط مدائن صالح حيث تستمر البعثة السعودية الفرنسية في أعمالها التي بدأت عام 2002م.

أما عن المعارض، فيطالعنا الإعداد لواحد من أضخم المعارض العالمية الخاصة بالآثار السعودية، وهو المعرض الذي سيُقام في العام 2010م في متحف اللوفر في باريس في إطار التبادل الثقافي ما بين المملكة وفرنسا، والذي كان من وجوهه المعرض الذي أقيم في العام 2006م في المتحف الوطني في الرياض لروائع الفنون الإسلامية المحفوظة في متحف اللوفر.

وبالنسبة لتنظيم هذا القطاع، هناك طبعاً ما بات يعرفه الجميع، وهو نقل وكالة الآثار والمتاحف من تحت مظلة وزارة التربية والتعليم إلى مظلة الهيئة العليا للسياحة، الأمر الذي كان سبباً في تغيير اسم الهيئة إلى «الهيئة العامة للسياحة والآثار»، التي ستتحمل المسؤولية الكبيرة في متابعة المسيرة التي بدأتها الوكالة منذ سنوات، وتحقيق لأفضل استثمار سياحي للمواقع الأثرية، لا على الصعيد الاقتصادي فحسب، بل أيضاً على الصعيد الثقافي والإعلامي محلياً وعالمياً. وتجدر الإشارة هنا إلى الاهتمام البالغ الذي يوليه الأمين العام للهيئة الأمير سلطان بن سلمان ابن عبدالعزيز لقطاع الآثار بشكل خاص، وما الجهد الشخصي الذي بذله سموه لوضع مدائن صالح على قائمة التراث العالمي إلاَّ مثالاً واحداً عن ذلك. إذ نجحت الهيئة في تحقيق ذلك من خلال اجتماع لجنة التراث العالمي التابعة لليونيسكو في دورتها الثانية والثلاثين التي عقدت مؤخراً في مقاطعة كيبيك الكندية، حيث تنافست 41 دولة على الانضمام إلى القائمة الأولى على مستوى العالم.

وعن التنظيم أيضاً، هناك مشروع نظام جديد للآثار يسعى إلى ضبط جوانب عديدة من هذا القطاع وصولاً إلى تشديد العقوبات على العبث بالآثار والمتاجرة بالقطع المسروقة.

ويومياً تطالعنا أخبار جديدة حول منجزات الهيئة، منها حصولها على 50 شاهداً حجرياً، وتسلمها لعدد من القلاع القديمة.. فيما ينهمك العاملون فيها على وضع نظام رقمي للمعلومات الجغرافية والمواقع الأثرية في مختلف مناطق المملكة.

إن هذه المنجزات وهي غيض من فيض، تُظهر مدى عن التسارع الذي شهده علم الآثار والاهتمام بها في المملكة في الآونة الأخيرة. غير أن الصورة الشاملة لهذا العالم تفرض علينا العودة إلى ما تحقق وتراكم منذ ظهور الاهتمام بالآثار في المملكة قبل ردح طويل من الزمن. ونبدأ بالتوقف للحظة أمام ماهية هذا العلم.

ذكاء الأثر

يهتم علم الآثار بدراسة كل ما تركه الإنسان على مر العصور مـن أشياء بدءاً من الأدوات التي صنعها لمواجهة متطلبات الحيـاة في العصر الحجري وصولاً إلـى كل الأعمال الفنية والمعمارية والعلمية التي تكشف ما كانت عليه حياة الإنسان ومـا ميَّزها من قيم ومفاهيم وعـادات في زمن محدد وفي بيئة محددة.

ولا يبتعد هذا التحديـد لعلم الآثار عن دلالة اسمه اليوناني الأصـل «أركيولوجيا»، أي «علـم القديم»، المعتمد اليوم في اللغات الأوروبية. أما تحديد القِدَم، أي الزمن الذي يتوقف أمامه علم الآثار، فمختلف عليه بين ثقافة وأخرى.

وتنقسم الآثـار إلى فئتين: آثار ثابتة وهـي متصلة بالأرض مثل الكهوف الطبيعيـة أو المحفورة، التي كانت مخصصة لحاجـات الإنسـان القديـم، والصخـور التـي نقش عليها الإنسان كتاباته ورسومه، والقصور والمعابد وأطلال المدن ومـا تبقى من عمرانها والمدافن ومـا إلى ذلك.. أما الآثار المنقولـة فهي التي صُنعـت لتكون بطبيعتهـا منفصلة عن الأرض أو المبانـي التاريخيـة مثل المنحوتـات، الأسلحة، العمـلات، الأدوات المنزليـة والزراعيـة، المخطوطـات، المنسوجات وكل ما شابه ذلك.

وتعـود جذور الاهتمام بآثار الحضـارات الغابرة بشكل عام إلـى عصر النهضـة الأوروبية، عندما بدأ رفـع التراب في روما عن آثار الإمبراطوريـة القديمة المدفونة في باطنها. ولكـن هذا الاهتمام لم يتحوَّل إلى «علم» إلاَّ بدءاً من القرن التاسع عشر الميلادي مع انطلاق البعثات العلمية في العمل وفـق منهجيات دقيقة، تتجـاوز الاستطلاع للقيـام بأعمال الحفر والتنقيـب واستنطاق اللقى حتى الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن الحضارة التي تنتمي إليها.







من آثار منطقة الرياض

فعلـم الآثار هو أكثر العلوم تركيـزاً على تتبع مسار الإنسان وتطـوره عبر التاريخ. ومنذ الأزل لا يزال الأثر يمارس لعبته مع الباحث غموضـاً واكتشافاً.. بعبارة أخرى، يمكن وصف علـم الآثار بأنـه مواجهة ما بيـن ذكاء العالـم وذكاء الأثر الصامـت. والغاية مـن هذه المواجهة هي حمـل الأثر على الإفصـاح عمـا يختزنه من أسـرار ومعلومـات. ولذا، فعلم الآثـار هو في المقـام الأول بحث عن المعرفـة، وليس بحثاً عن الكنوز كما يمكن للبعض أن يتوهم.

بدايات الاهتمام بالآثار السعودية باكراً جداً ولكن بشكل محدود

قـد يفاجأ القـارئ إذا قلنا لـه إن الاهتمام بآثـار الجزيرة العربية لم يتأخر أبداً عن تاريخ الاهتمام بالآثار الفرعونية أو الإغريقيـة، إذ تزامـن مع ظهور علم الآثـار الحديث في القـرن التاسع عشر. ففي تلك الفترة، كانت الآثار الشرقية قبلـة أنظار كل الباحثين في هذا العلم فـي أوروبا الغربية، فاندفع المئات منهـم لدراسة آثار مصر الفرعونية، وبقايا الحضـارات الإغريقيـة فـي تركيـا، والتنقيب عـن الكنوز المدفونـة فـي أرض فلسطين.. وفـي الوقت نفسـه اندفع بعضهـم باتجـاه الجزيـرة العربيـة لاستطلاع مـا بقي من شواهـد على ما هو غامض من ماضيها. الفرق الوحيد كان في أن مصر وتركيا وبلاد الشام مثلاً حظيت ببعثات تنقيب تسعى إلـى استكشـاف ما هو مدفون فـي باطن الأرض، في حين أن وعورة الطرق فـي الجزيرة العربية آنذاك وعوامل عديـدة أخرى جعلـت اهتمـام المستشرقيـن يقتصر على زيـارات فرديـة هدفت إلـى استطلاع ما هـو قائم من هذه الآثار وتدويـن المعلومـات المتوافرة عنه ورسمـه بأقصـى قـدر ممكـن مـن الدقة لإخضاعه لاحقاً للدراسة والتحليل.

من آثار منطقة الرياض

يقول الدكتور عبدالعزيز بن سعود الغزّي رئيس قسم الآثار في جامعة الملك سعود إن عمـر الدراسـات الأثريـة فـي المملكـة



الآثار السعودية في الخارج

تُعد المملكة العربية السعودية من أقل دول العالم تضرراً على صعيد اختفاء بعض القطع الأثرية من البلاد وانتقالها إلى الخارج.

غير أن ندوة عقدت في العام 1999م بعنوان «الآثار في المملكة العربية السعودية، حمايتها والمحافظة عليها» عرضت جرداً بالآثار السعودية التي نقلت فيما مضى بطرق مختلفة إلى خارج البلاد، ومنها مسلّة تيماء الشهيرة المحفوظة في متحف اللوفر بباريس، ومجموعة نقوش نبطية ولحيانية استقرت في بعض المتاحف الألمانية، ومجموعة ألواح حجرية تحمل نصوصاً بخط المسند في عدد من المتاحف الأوروبيّة، وآثار من المنطقة الشرقية في بعض المتاحف الأمريكية، وآثار من نجران في المتحف البريطاني، ومجموعة من الآثار الإسلامية نقلها العثمانيون من الحجاز إلى مكان مجهول، وأدوات حجرية مجهولة المصدر في المتحف الجامعي بكمبريدج في بريطانيا.

وكما هو الحال في معظم بلدان العالم، تنقسم الآراء بشأن وجود هذه الآثار في الخارج إلى قسمين: فهناك من يرى وجوب العمل على استردادها، لأنه من حقوق الأوطان استعادة ممتلكاتها الثقافية. بينما يرى قسم آخر عدداً من المبررات التي تدعم بقاء هذه الآثار حيث هي لأنها أولاً محفوظة بعناية وتلقى المعاملة اللائقة بها، وثانياً لأنها تمثل ما يشبه السفارة الثقافية التي يطلع العالم بأسره من خلالها على التاريخ الحضاري الكبير لبلاد لا يعرف إلاّ القليل عنها.





العربية السعودية يعود إلى عصر الرحالة الغربيين الذين تعود إطلالاتهم الأولى إلى القرن السابع عشر، غير أنه بدءاً من القرن التاسع عشر، راح الرحالة يصفون تقارير بتقارير مسهبة الآثار التي شاهدوها. وتمثِّل هذه التقارير القاعدة الأولى التي قام عليها البحث الأثري لجهة معرفة بعض المواقع.

ونذكر من جيل الروّاد في هذا المجال وليم بالجريف الذي استطاع أن يعبر في عام 1862م المملكة من الشمال إلى الشرق مروراً بالرياض التي مكث فيها لمدة ستة وعشرين يوماً، وجاء في كتبه المنشورة وصف متكامل لأحياء مدينة الرياض القديمة، إضافة إلى بعض المواقع الأثرية في القصيم مثل آثار عيون الجواء.

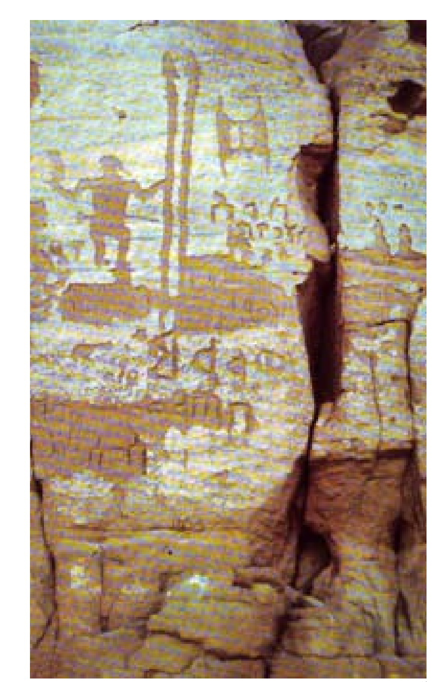
واستطاع الرحَّالة أوغوست والن أن يجوب شمال المملكة، وضمّن مذكراته المنشورة معلومات كثيرة عن الآثار في منطقتي الجوف وحائل، ويُعتقد أنه أول رحَّالة استطاع أن يجتاز صحراء النفود ما بين الجوف وحائل.

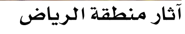
ومن رحَّالة القرن التاسع عشر ريتشارد بورتون الذي زار شمال غرب المملكة، ونشر كتابين ضمنهما وصفاً لآثار مدين ومغائر شعيب والبدع والعلا. كما زار الرحَّالة الإيطالي جيرماني شمال المملكة وخص آثار الجوف بحديث مفصَّل.

وفيما يخص وسط المملكة، فقد زارها إضافة إلى بالجريف الدبلوماسي البريطاني لويس بلي الذي تحدث عن آثار منطقة الرياض، إضافة إلى تلك التي شاهدها في الأماكن التي مر بها، والدبلوماسي البريطاني أيضاً فوستر الذي وصف عدداً من آثار المنطقة الوسطى.

أما رحَّالة القرن العشرين فعددهم كبير جداً، وإنتاجهم أغزر وتركّز أكثر من ذي قبل على الآثار. ومن الرواد نذكر على سبيل المثال الألماني مورتز الذي زار شمال غرب المملكة عام 1907م، وتناول بالتفصيل موقع قريّة الأثري. واستقبل الموقع

من آثار منطقة نجران





آثار منطقة الرياض



البلدة القديمة في العلا

نفسه أكاديمياً أمريكياً تشيكي الأصل هو لويس موزل بين عامي 1907 و1914م، وهو الذي عرفه سكان المنطقة باسم (موسى الرويلي). وقد جال موزل كثيراً في شمال المملكة ووادي سرحان ووضع عدداً من الدراسات العلمية. ولا ننسى الرحَّالة الإنجليزي هاري سانت جون فيلبي الذي أقام لوقت طويل في المملكة حيث أجرى عدداً من المسوحات الميدانية ونشر أبحاثاً وكتباً كثيرة، كان للآثار فيها حيّز ملحوظ.

الثمار العلمية الأولى.. حضارة الأنباط مثلاً

من أبرز المواقع الأثرية التي استوقفت المستشرقين وأدهشتهم كانت الآثار النبطية المتوافرة بكثرة في النصف الشمالي من الجزيرة العربية. وتُعد الأبحاث التي أجراها عام 1910م العالمان الفرنسيان جوسان وسافينياك في بلدة تيماء وخارجها كجبل غنيم والخبو، وبين الآكام الصخرية المنتشرة غربي البلدة وشمالها علامة فارقة في مسيرة علم الآثار في المملكة. إذ شكَّلت أبحاثهما ورحلتهما التي نشرت في كتاب في باريس عام 1914م، مصدراً اعتمد عليه الكثيرون في دراساتهم المستفيضة عن الحضارة النبطية.

وبتوالي البعثات المستطلعة لحضارة الأنباط، تم اكتشاف أكثر من خمسة آلاف نقش تحوي نصوصاً معمارية وجنائزية ودينية وتحكي تفاصيل الحياة اليومية للأنباط.

فبعد رحلة جوسان وسافينياك، استطاع كل من البريطاني داوتي والألماني أويتنج، والفرنسي هوبير فك عدد من رموز النقوش النبطية. ويعود الفضل إلى هؤلاء في وضع اللبنة الأساس التي قامت عليها معظم الدراسات اللاحقة.

بداية مرحلة البعثات والتنقيب

وكان من الطبيعي أن يؤدي توحيد المملكة واستقرار الأوضاع الأمنية فيها إلى تحولات بارزة على صعيد الاهتمام بالآثار. فمن جهة لم يعد هذا الاهتمام متروكاً لمشيئة المستشرقين وجهودهم الفردية إذ تولت الحكومة السعودية منذ أواسط القرن العشرين هذه المهمة فتعاونت مع معاهد وجامعات من بلجيكا وكندا وبريطانيا للكشف عن الكثير من المواقع الأثرية المهمة. فكان ذلك بداية مرحلة العمل المنظم في الحفر بحثاً عن الآثار.

ولا يمكن الحديث عن تلك المرحلة الزمنية من دون الإشارة إلى الدور الذي لعبته أرامكو آنذاك في هذا المجال. إذ يقول الدكتور عبد الله المنيف وكيل كلية السياحة والآثار



منطقة السوق بقرية الفاو



الوجهة الغربية في منطقة تاروت

في جامعة الملك سعود إن عدداً من علماء الآثار وعشاقها كانوا يُضمّون إلى بعثات المسح الجيولوجي التي كانت أرامكو تنظمها للقيام بأعمال البحث والتنقيب عن البترول. ومن خلال هذه البعثات والدراسات الميدانية، حقق هؤلاء كماً هائلاً من الاكتشافات في أواسط القرن الماضي. ويعدد الدكتور المنيف من هؤلاء على سبيل المثال هنري فيلد الذي كانت أغلب دراساته عن العصور الحجرية في المملكة، ومكلور الذي رسم خريطة للمواقع الأثرية في الجزيرة العربية ركَّز فيها على المواقع التي تعود إلى ما قبل التاريخ، وزيونر وسمبسون وسورديناس وأوفر ستريت، وكلهم صبوا جهودهم على العصور الحجرية القديمة، وتصنيف الأدوات الحجرية التي عثروا عليها خلال القيام بالمسوحات الجيولوجية.

مرحلة الجهود الوطنية

واحتل الاهتمام بالآثار مكاناً بارزاً في نسيج النهضة الثقافية التي صاحبت النهضة في كافة أوجه الحياة في المملكة خلال القرن العشرين. وما إن حلت السبعينيات حتى عقدت حكومة المملكة العزم على أن تتولى الاهتمام بهذا القطاع من خلال الإمساك المحكم بملفه، من دون أن يعني ذلك الاستغناء عن التعاون مع الجهات الأكاديمية والعلمية في الخارج أسوة بما يجري في مجال علم الآثار في كل بلدان العالم.



ويقول الدكتور عبد العزيز الغزي «إن البداية الفعلية للدراسات الأثرية ووكالة الآثار والمتاحف كانت عام 1976م، حين بدأ مشروع المسح الشامل للآثار في المملكة، المستمر حتى يومنا هذا، وشمل هذا المسح كل المناطق، وخصص مواسم لمسح النقوش والرسوم الصخرية».

ويضيف: «لم يقتصر عمل الوكالة على المسوح، بل أجرت حفريات في عدد كبير من المواقع منها: مقابر جنوب الظهران وثاج والدفي وتاروت والربيعة في المنطقة الشرقية، والصليبيخات ودومة الجندل في منطقة الجوف، ومدائن صالح والخريبة والمابيات وقريّة وتيماء. في منطقة تبوك، والأخدود في منطقة نجران، وسهى وعثر والشرجة في منطقة جازان. كما أسهمت جامعة الملك سعود ممثلة بقسم الآثار في كلية السياحة والآثار في حفريات عديدة، منها حفريات موقعي الخريبة والمابيات التي أنجزت فيها حتى الآن خمسة مواسم، ولا يزال العمل مستمراً عليها حتى الآن».

الثروة التي يقاس بها التحدي

وقبل الغوص في تفاصيل أعمال الحفر والتنقيب الجارية اليوم، يجدر بنا التوقف أمام «مسرح العمليات» الذي وجدت وكالة الآثار والمتاحف نفسها أمامه، والذي تترامى أطرافه من أقاصي المملكة حتى أقاصيها المقابلة.

فمنذ ما قبل العصر الحجري القديم يعود تاريخه إلى نحو مليون سنة، وحتى انتهاء العصر العثماني قبل قرن واحد من الزمن، عرفت الجزيرة العربية عدداً لا يحصى من التجمعات البشرية القديمة والحضارات والثقافات المختلفة التي كانت تقوم وتزدهر في ناحية من نواحيها في فترة معيَّنة. ففي كل من الشويحطية قرب سكاكا في الجوف، وفي منطقة نجران، والعلا ووادي فاطمة



بمحافظة جدة عشر على ما يثبت الاستيطان البشري في هذه المواقع منذ نحو مليون سنة وما قبل.

أمـا بخصوص العصور الحجرية بـدءاً بقديمها وصولاً إلى حديثهـا، فإن أدواتها تتبعثر على كافة أنحاء المملكة: وادي فاطمـة في الغرب، تبوك والعلا ونجران وحائل، وصولاً إلى القريّات شمالاً والتمامة في منطقة الرياض.

أما العصور الحضارية بدءاً بحضارة الصبير (5000 سنة ق.م) وحتـى الحضـارة العثمانيـة قبل قرن واحـد، مروراً بالهلنستيـة، والساسانيـة والممالـك العربيـة والنبطية ثم الحضـارة الإسلامية بمختلـف فتراتها الأموية والعباسية والمملوكيـة والعثمانية.. فقد تركت كلها آثـاراً واضحة في مواقـع مختلفة مـن أنحـاء المملكة شمـالاً وجنوبـاً وغرباً وشرقاً..

ومـن دون الدخول فـي عرض «جرد» كامـل للمواقع الأثرية فـي المملكة (مستحيلة في هذا المجـال الضيق، وموجودة فـي مصادر أخرى)، نشير إلـى أن الكثير من هذه المواقع لا يقتصر في أهميته على ما يكشفه من حقائق علمية تتعلق بالماضـي، بل يفرض نفســه على الثقافـة العامة بمختلف مستوياتهـا محلياً وعالمياً ويشـكِّل عامل جذب سياحي لكل باحث عن المدهش وما يغني ثقافته الشخصية من دون أن يكون مؤرخاً أو عالم آثار.



قلعة تبوك

ومن هذه المواقع علـى سبيل المثال وليس الحصر، مدائن صالح التي يعرفها الكثيرون. إنها المدينة الثانية في مملكة الأنبـاط بعد البتـراء، وكانت تسمى قديمـاً بالحجر وباتت اليوم على قائمة التراث العالمي كما أسلفنا، وهناك مدينة الأخـدود في نجـران التي كشفـت الحفريات جانبـاً مهماً منهـا، وهي المدينة التي ورد في القرآن الكريم ذكر حادثة حـرق سكانها النصارى على يد أحد ملـوك حِمْيَر الوثنيين في القرن السادس الميلادي.

وهنـاك قرية الفـاو التي كانت عاصمة مملكـة كندة الأولى وعاشـت لثمانية قرون بدءاً من القـرن الرابع قبل الميلاد،

المتحف الوطني السعودي في الرياض

يمثل المتحف الوطني السعودي في الرياض واحداً من أكثر وجوه العناية بالآثار إشراقاً.
فقد أقيم هذا الصرح الوطني في حرم «مربع الملك عبدالعزيز التاريخي» الذي أنشئ على مساحة 17 ألف متر مربع في قلب العاصمة، وتم تدشينه عام 1999م في إطار احتفالات المملكة بمرور مئة سنة على توحيدها.
تتوزع محتويات هذا المتحف على ثماني قاعات كبرى، تعبِّر كل واحدة منها عن مرحلة تاريخية محددة، وتتكامل في رسم صورة شديدة الوضوح لتاريخ المملكة العربية السعودية.
وهذه القاعات هي: الإنسان والكون، الممالك العربية، عصر ما قبل الإسلام، الدعوة النبوية، الإسلام في الجزيرة العربية، الدولة السعودية الأولى والثانية، توحيد المملكة، الحج والحرمين الشريفين.
وتتضمن هذه القاعات إضافة إلى مجموعة ضخمة من اللُقى النفيسة، مجسمات لبعض المعالم الأثرية طبق الأصل، وشاشات عرض تلفزيونية وكمبيوترية تعرض أفلاماً وثائقية وشروحات مستفيضة لجوانب للُقى تعبِّر عنها.

أوقات زيارة المتحف

أيام الأسبوع	9 - 12 صباحاً	4:30 – 9 مساءً
السبت	مقفل للصيانة	مقفل للصيانة
الأحد	مدارس/ رجال	عوائل
الإثنين	مدارس/ رجال	عوائل
الثلاثاء	مدارس/ بنات	مدارس/ رجال
الأربعاء	مدارس/ رجال	عوائل
الخميس	مدارس/ رجال	عوائل
الجمعة	مقفـل	عوائل



مثالات تيماء

ودومة الجندل التي كانت تدعى قديماً أدوماتو حيث أعمدة الرجاجيل وقلعة مارد.. وقلعة تاروت في المنطقة الشرقية وسلسلة القلاع على طريق الحج الشامي، وموقع جبة في شمال المملكة حيث يوجد أكبر تجمع للرسوم الصخرية في الجزيرة العربية. وصولاً إلى الدرعية القريبة من الرياض، البلدة التي لا تزال أطلالها وبقايا أسوارها وقصورها وأبراجها ومساجدها تشهد على ما كانت عليه المملكة عشية توحيدها.

.. واليوم يستمر البحث

أخذ التعاون السعودي مع البعثات الأجنبية في مجال البحث والتنقيب وصيانة الآثار شكلاً جديداً في الآونة الأخيرة. وثمة مشروعات سعودية - دولية سوف تشكّل من دون شك نقطة مهمة في هذا المجال. نذكر منها مشروع «الجايكا» للتعاون الفني الياباني في مجال المسح الأثري، الذي شمل في العام 2002م بعض المواقع العائدة إلى ما قبل الإسلام وبعده، وتضمَّن أيضاً مسحاً للنقوش الصخرية ودراستها وترجمتها.

أما التعاون السعودي الفرنسي المستمر في مدائن صالح منذ عام 2002م، فقد توصّل إلى إثبات الحقيقة القائلة بأن هذا الموقع كان مدينة حقيقية ومتكاملة، وليس مجرد مكان للطقوس الدينية ودفن الموتى كما كان البعض يعتقد سابقاً. ومن المرجَّح أن يثمر التعاون السعودي الفرنسي قريباً توقيع اتفاقية علمية حول البحث والتدريب بين كلية السياحة والآثار وجامعة نانسي الفرنسية. وفي ربيع العام 2004م بدأت البعثة السعودية الألمانية المشتركة التنقيب عن الآثار في تيماء. وشملت الأعمال حتى الآن المنطقة الوسطى في موقع تل قريّة، وأكدت اللقى وجود استيطان خارج الأسوار، كان قائماً على مراحل متفاوتة ما بين نهاية الألف الثاني وحتى القرنين التاسع والثامن ق.م.

وبموازاة ما تقدَّم، يتولى المشروع السعودي البريطاني البحث والتنقيب على امتداد ساحل البحر الأحمر حيث يعتقد الباحثون بوجود آثار عديدة تعود إلى آلاف السنين. وقد تمكن القائمون بهذا المشروع من تسجيل نحو ألف موقع أثري متفاوت الأهمية على سواحل جزر فرسان، إضافة إلى بعض الظواهر الجيولوجية المميزة مثل السواحل القديمة التي غمرتها المياه.

أما ما هو مرتقب على صعيد الآثار في المملكة بعدما أصبحت في عهدة الهيئة العامة للسياحة والآثار، فلا يقتصر على أعمال الحفر والتنقيب، ووضع النظام الجديد للآثار.. بل ان التحدي الذي تعمل الهيئة جاهدة على رفعه يتمثل في تحفيز الاطلاع على هذه الآثار من قبل المواطنين لإغناء زادهم الثقافي ووعيهم لتاريخ بلادهم من جهة، وتحقيق المزيد من المنافع الاقتصادية للمدن والمناطق المضيفة لهؤلاء.



بئر حداج

قول في مقال

الصورة.. كم كلمة تساوي فعلاً؟

كثيراً ما نسمع القول الشائع إن «الصورة تساوي ألف كلمة» ضمن الأحكام التي تطلق على المطبوعات المصورة من مجلات وكتب.
عبود عطية يناقش هنا الإفراط في استخدام هذا القول من قبل البعض، ويعرض قراءته الشخصية لما يتكشف عنه.

جاء في قول منسوب للكاتب الساخر جورج برنارد شو أن في كل بيت يجب أن يكون هناك كتاب يستفيد الحكيم من قراءته، ويتفرج الجاهل على صوره، وتستخدمه مدبرة المنزل لقتل الصراصير.. ليست الطرفة المضحكة في الوظيفة الثالثة للكتاب حسب هذا القول هي التي نتوقف أمامها، بل الثانية التي ربطت الجهل بالاكتفاء بالتطلع إلى الصور. والجهل محزن.

فكل من عرف شخصاً أمياً في محيطه، لا بد وأنه شعر بالحزن لحالته وهو يراه يمسك بمجلة يقلِّب صفحاتها مكتفياً بالزاد القليل الذي تعرضه عليه من صور. ومثل هذه المواقف كانت كثيرة في الماضي، عندما كانت نسبة الأمية عالية جداً، خاصة في صفوف كبار السن. أما اليوم فقد تبدَّلت الأحوال، ولا نعني بذلك تبدل نسبة الأمية، بل تبدُّل مقادير الحاجة إلى الزاد الثقافي، بحيث أن الصورة صارت لوحدها، على ما يبدو، كافية لإشباع بعض المتعلمين الذين يعرفون القراءة والكتابة. فكثرت الكتب التي صار الحكيم يستخدمها.. لقتل الصراصير.

وبتعبير فج، لأننا أمام مشكلة تستحق شيئاً من الفجاجة في التصدي لها، نقول إن ما من قول مأثور أفرح الأميين في العالم، كما فرح بعض «المثقفين» العرب بالقول «إن الصورة تساوي ألف كلمة». فنسمعها ونقرأها وتتكرر أمامنا بلا كلل ولا ملل. ويتميز نطق هذا القول عادة بثقة كبيرة عند القائل، وكأنه نطق جوهرة الكلام، حتى ولو كان من أولئك الذين لم يقولوا سابقاً أي كلام آخر ذي قيمة.

أصل القول ومعناه الأصلي

يعود القول «إن الصورة تساوي ألف كلمة» إلى رجل أمريكي يدعى فريد برنارد كان يعمل في حقل الإعلانات، وشاء الترويج لإحلال الصورة محل الكلمات في الإعلانات التي تلصق على أبواب السيارات. إذ كانت مشكلة هذه الإعلانات تتمثل في وجوب اختصارها بأقل قدر ممكن من الكلمات كي تصبح قراءتها ممكنة على سيارة عابرة أمام المشاهد. فنشر برنارد هذا في 15 مارس 1927م إعلاناً يقول «الصورة تساوي عشرة آلاف كلمة».. ولأن الرجل نفسه لم يكن واثقاً من تقبل الناس لهذه الفكرة، زعم أنها حكمة صينية قديمة كي يأخذها الناس على محمل الجد. وبسرعة وصل الخيال الشعبي إلى نسب هذا القول إلى كونفوشيوس!!

فالغاية الأساس من هذا القول هي إذن إعلانية. وبتوسعة دائرة الاستخدامات الممكنة لهذا القول ضمن حدود المعقول، نرى أنها تبقى في إطار القول أنه «يمكن» للصورة أن تعبِّر عن شيء يتطلب التعبير عنه نصاً كتابياً طويلاً. وفي العمق، يعبِّر هذا القول عن أهمية الفن البصري حيثما هناك كمية كبيرة من المعلومات يجب أن تستوعب بسرعة. ولكن مشكلتنا مع بعض المثقفين عندنا أنهم رأوا ما هو «ممكن» في بعض الحالات، على أنه قانون عام أو حكم مطلق، يمكن إطلاقه أمام أية صورة فنية أو صحافية أو وثائقية، إذا كانت تقنياً جيدة.

من «تساوي» إلى «تغني»

وما من شيء يدل على سوء استعمالنا لهذا القول المصنف في موطنه الأصلي على أنه

«كليشه» وليس «حكمة» كما يؤكد ذلك وروده في كتاب «قاموس الكليشيهات» للباحث جايمس روجرز، هو التعديل الذي تسلل إلى نصه خلال ترجمته إلى العربية من دون الانتباه إليه، فحلت كلمة «تغني» محل كلمة «تساوي»، ليصبح القول في صيغته العربية «الصورة تغني عن ألف كلمة».. نعم، تغني.. مع كل ما في هذا القول حرفياً وضمنياً من ازدراء للكلمة ولفعل الكتابة عزّ نظيره عند أكثر شعوب العالم تخلفاً وجهلاً.

مقارنة لا مجال لها أساساً

نستدرك ونؤكد أننا أبعد ما نكون عن ازدراء الصورة والاستخفاف بقيمتها. فلا أحد ينكر أن لوسيلة التعبير هذه مجالات استخدام عديدة. إذ يمكنها أن تكون فناً تعبيرياً، وأداة توثيق، وإضافة جمالية، وإثباتاً يدحض الشكوك في بعض الموضوعات. أي أنها فن مستقل. ولأنها كذلك، تكمن المشكلة الأساس في القول إنها تساوي ألف كلمة بالمقارنة التي لا مجال لها.

فما من أداة تعبير وجدت لتلغي أخرى، حتى اللوحة الزيتية التي شعر البعض في القرن التاسع عشر أنها قد تكون مهددة من قبل آلة التصوير لم تتزعزع بتاتاً. ولو تحدثنا بلغة الأسعار (التي يفهمها بعض المثقفين) لأشرنا إلى أن ما من صورة فوتوغرافية في التاريخ قاربت أسعارها أسعار لوحات أساتذة الرسم في القرن العشرين. ليس لأنها أقل قيمة بل لأنها شيء مختلف تماماً. إلى ذلك نضيف أننا لم نسمع يوماً مقارنة تقول إن الرواية تساوي عشر لوحات، أو أن اللوحة تساوي خمسين أغنية، أو أن منحوتة تساوي مئة قصيدة.. فلماذا علينا أن نقبل بقياس الصورة بكمية معينة من الكلمات؟

من الممكن جداً أن تصدر دار نشر «ألبوماً» مصوراً حول موضوع معين، لا يحوي غير الصور وشروحاتها. ومن الممكن أن يكون هذا الكتاب عملاً فنياً عظيماً، ولكن بالله عليكم، لماذا على كل ناشر يصدر هذا النوع من «الألبومات» أن يتحفنا في المقدمة بقوله «إن الصورة تساوي ألف كلمة»؟.. بماذا يمكن تفسير ذلك بغير عقدة النقص تجاه الكلمة، وكأن الناشر يخشى أن يتوجب عليه الاعتذار لافتقار إصداره إلى الأفكار التي يعبِّر عنها بنصوص جرياً على عادة الكتب، فوجد نفسه مضطراً إلى الزعم أنه تعمَّد تفضيل الصورة من خلال إيهامنا أن ما من كلام يرقى إلى مستوى بضاعته..

تضخم صناعة الطباعة وانكماش صناعة الفكرة

إن الفضيحة التي يسعى البعض إلى إخفاء معالمها تتكشف من خلال استحضار أي منا لمعظم المناسبات التي سمع بها «ببغاوات الثقافة» تكرر القول إن الصورة تساوي ألف كلمة. فمعظم هذه المناسبات ينحصر في تقييم المطبوعات مثل الجرائد والمجلات والكتب، أي في وسائل تعبير نشأت تاريخياً لنقل الأفكار بواسطة الكلمات أولاً. ولكن بسبب أزمتنا الثقافية الحادة في البلاد العربية، والانكماش الكبير في الأفكار والمفكرين (وهذا ما يعرفه ويقر به الجميع) مقارنة بتضخم صناعة الطباعة والنشر التي يجب عليها أن تنتج كذا ألف صفحة يومياً، يذهب الكثيرون إلى تعبئة الفراغات على هذه الصفحات بالصور. وعندما نضيف إلى محاولة التستر على النقص في المجهود الذهني والكتابي بزيادة الهامش المعطى للبصري، ما نلحظه من علامات التباهي والاعتزاز على وجوه المبررين لذلك بالقول إن الصورة تساوي ألف كلمة، فإننا لا نجد أنفسنا أمام مثقفين يرتكبون خطأ، بل أمام جهلة سعداء يستمتعون بأميتهم، ويتوقعون منا أن نغبطهم عليها. واستطراداً، نشير إلى أن الاهتمام بالبصري (بما فيه الصورة) إذا انقلب هوساً يمكنه أن يؤدي إلى ردة فعل عكسية. فتتحول جاذبيته إلى عامل منفِّر. ونعترف (شخصياً) أننا بتنا نشعر بفتور تجاه قراءة محتويات كتب ومجلات، تجاوز فيها الاهتمام بالبصري حدود الإتقان المطلوب، ليتحول إلى هوس، وكأن البهرجة هي المبرر الأساس للإصدار، مع الاعتراف بما في مثل هذا الموقف من أحكام مسبقة متجنية.

وأخيراً وليس آخراً، يمكننا نقض القول إن الصورة تساوي ألف كلمة، من زاوية لا تستعصي على فهم مردديه مهما كانت قدراتهم على الاستيعاب محدودة. فالبرامج الحوارية على التلفزيون، أي حفلات الكلام البحت على شاشات تكمن مهمتها الأولى في عرض ما هو بصري، تؤكد أن الكلمة لا تزال ذات وظيفة محددة، لا تستطيع أية صورة ثابتة أو متحركة أن تنال منها، حتى في ميدان أدوات التعبير البصرية.

وقد يقول قائل إن ازدهار برامج الحوارات التلفزيونية ينتصر للكلمة المحكية وليس للنصوص المكتوبة. ونحن نقول إن الأمر صحيح تماماً، وهذا لا يدل على شيء غير أننا بتنا في واقعنا الثقافي الحالي نحب الحكي وليس الكتابة. والأدهى من كل ما تقدم هو أن معظم هذا الحكي يبدو غير صالح للطباعة، فتبقى الفراغات في المطبوعات، ويبقى الاعتماد في سد الفراغات على.. «ما يغني عن ألف كلمة».

ولو عرف الببغاوات أن تكرارهم للقول إن الصورة تساوي ألف كلمة لم يعد يستر أي عيب، ولو عرفوا حقيقة هذا العيب وبقي عندهم الحد الأدنى المطلوب من الحياء، لعرفوا أن صمتهم وحده يساوي ألف مرة القول إن الصورة تغني عن ألف كلمة».

«السيارة صديقة البيئة»..

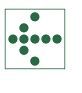
أيها حقيقة وأيها وهم؟



تنامى الحديث في السنوات الأخيرة عن السيارة صديقة البيئة بتنامي الوعي لخطورة الاحتباس الحراري. ففي العالم نحو بليون سيارة تُعد مسؤولة عن ربع الانبعاثات الكربونية في الفضاء البيئي المحيط بالأرض، من خلال المحركات التقليدية التي تعمل بالاحتراق الداخلي للوقود الأحفوري.
وتَلَقَّى الحديث عن إنتاج «السيارة العتيدة» دفعاً كبيراً في الآونة الأخيرة، عندما ظهر -لأسباب اقتصادية وسياسية وليس بيئية فقط- خلال حملة الانتخابات الرئاسية في أمريكا، ضمن المشاريع المستقبلية للمرشح الفائز باراك أوباما.
عبدالله بشرى * يحاول هنا سبر أغوار أهم الحلول المطروحة حالياً لمعالجة مشكلة الانبعاثات الكربونية من خلال تكنولوجيا السيارة صديقة البيئة، فيسلِّط الضوء على تاريخ الجهود التي بُذلت سابقاً في هذا المجال، ليجيب عن أسئلتنا حول ما إذا كنا سنرى هذه السيارة في شوارعنا أم لا، ومتى؟



* باحث ومترجم من السودان



ظهـر مفهوم السيارة صديقة البيئة لأول مرة في عام 1960م، من خلال أبحـاث مبتدع أجهزة الطاقة البديلة «ECD» ستانفورد أوفشنسكي، الذي ركَّز جهوده على تحويل التفاعل بين الهيدروجين والأكسجين إلى طاقة محركة نظيفة.

تقـوم نظرية أوفشنسكـي على أن الهيدروجيـن، وهو الغاز الموجود بصورة طبيعية في غلافنا الجوي، يولِّد عند اتحاده مع الأكسجين بمساعدة بطارية تولد الطاقة اللازمة لإنجاز هذا التفاعل، طاقة دافعة نظيفة ينتج عنها فقط بخار الماء الذي لا يضر إطلاقاً بالبيئة.

> **البنية التحتية للسيارات والتي صممت بالكامل لخدمة السيارة التقليدية، بالإضافة إلى الخوف من ضياع الأصول، جعل من الصعوبة بمكان الانتقال ببساطة إلى التكنولوجيا البديلة**

ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، ظهرت الكثير مـن التطبيقات القديمة-الحديثة في مجال الوقـود. ففي السنـوات الأخيـرة، صار جل الحديـث الذي يتصـدر كبريـات الصحف العالميــة عــن الوقــود الحيــوي «Biofuel» وأهميتـه في خفـض الانبعاثـات الكربونية فــي الجــو ورخص تكلفتــه مقارنــة بالوقود التقليـدي من ناحية. ولكـن الوقود الحيوي كشـف عن عيب فـي غاية الخطـورة، تمثَّل في تأثيره على احتياطيات الغذاء العالمية، وأثر ذلـك على ملاييــن البشــر الذين هم فــي أمسّ الحاجة إلى المــواد الغذائية التي يصنع منها، مثل الذرة وقصب السكر.

وربمــا نشــأت المعارضة الأكثــر عنفاً على الوقــود الحيوي بسبب ما يتوقع من آثاره السالبة على البيئة، والتي لا بد أن تقع بسبب الكم الهائل من المبيدات التي سيتم سكبها عند زرع مساحــات واسعة من الأراضــي لتغطية جزء ضئيل من حاجات الطاقة المستولدة من هذا النوع من المواد الحيوية، ومن ثــم ما يترتب على ذلــك من إزالة واسعــة للغابات في حال الاحتيــاج لمساحات إضافية مــن الأراضي الزراعية. حيث إن كمية الوقود المستخرج تُعد ضئيلة مقارنة بكميات المحاصيــل المستخدمة في إنتاجهــا. وضعت هذه العوامل عراقيل جدية أمام الوقود الحيوي كي يبشر بعهد جديد في مجال الطاقة. رغم ذلك، نجد دولاً مثل البرازيل والولايات المتحدة، قــد بدأتا بالفعل في استخــدام كميات هائلة من المحاصيل لإنتاج هذا النوع من الوقود وخلطه بنسب معيَّنة مــع الوقود التقليدي تصلــح لإدارة المحــركات كأحد أنواع الوقود «الهجين».

وممــا لا شــك فيه أن الانخفاض الملحوظ في أسعار النفط خــلال الآونة الأخيرة، سيضاف إلى العوامل التي ستسحب البســاط أكثر من تحت الوقود الحيــوي، أو على الأقل، من تحت المخططين للاتجاه إلى عالم هذا النوع من الوقود.

رقص الديناصورات.. دليل حيوية أم مرض؟

إذا كان التاريخ الحديث للسيارة التي تعمل على الهيدروجين هو حوالي الخمسين عاماً، فـإن تاريخ البطارية الكهربائية يعــود إلى أكثر من ذلك بكثيــر. إذ تقول بعض المصادر إن مهندس السيــارات النمساوي فردناند بورش «Ferdinand Porsche»، مصمم سيــارة الفولكسفاغن الشهيرة، هو أول من طوَّر سيارة تعمل بالهيدروجين والكهرباء وذلك في عام 1899م، وإن كل التجارب التي تلت ذلك كانت على خطاه.

ظلــت السيارات من هذا النوع تنتج باستمرار من قبل بعض الشــركات والمصنعيــن المغموريــن، لكنها لم تلــقَ الرواج المطلوب. إذ أن أي من عمالقة صناعة السيارات لم يستثمر فــي هذا المشــروع أبداً حتى بدايات القــرن الحالي، وحتى بعدمــا دخلت «تويوتــا» هذا المضمار بسيــارة «بريوس» في عــام 1990م التي تعمل بالوقود الهجيــن «بنزين وإيثانول». وجدير بالذكر أن الوقود الهجين (الديزل والهيدروجين)، ظل مستخدماً في الغواصات منذ اختراعها وحتى استبداله فــي السنوات الأخيرة بالطاقة النووية، بالرغم من أن مبدأ عمــل الغواصة يعتمد على توفيــر الأكسجين أكثر من توفير الديــزل. وربما كان أول سؤال يتبــادر إلى الذهن هو: لماذا تأخــر إنتــاج السيــارة الهجين كل هذا الوقــت، بالرغم من توفر تقنيتها منذ أمد بعيد؟

تنبع أهمية تجربة «تويوتــا» من أنها فتحت مجال المنافسة حــول تقنيات سيــارة المستقبل. حيث دفعــت هذه التجربة بشركتي السيارات الأمريكيتين العملاقتين «جنرال موتورز» و«فورد»، وعدد من كبريات شركات إنتاج السيارات الأخرى، إلى الدخول في مضمار السباق نحو سيارة المستقبل.

بيــد أن السبب الأساســي في تأخر هذه الشــركات كل هذا الوقــت في تنــاول تطبيقــات التكنولوجيا البديلــة يعود إلى المــوارد الضخمة التي صُبت في إطــار الصناعة التقليدية للسيــارات، والتــي يصعب معهــا التحول الكامــل إلى تبني التكنولوجيات الجديدة بسرعة. فالمصانع وشبكات التوزيع والخدمــة والتقنيات التي أنفقت عليهــا مليارات الدولارات من أجل تثبيت دعائم أنماط محددة من الاستهلاك، جعلت مــن الصعب بمكان لهذه الشركات أن تتحول إلى تكنولوجيا المستقبل مــن دون الإضرار بالأربــاح الكبيرة التي تجنيها سنويــاً مــن مبيعــات السيــارات التقليديــة. كذلــك البنية التحتيــة للسيــارات والتي صممت بالكامــل لخدمة السيارة

التقليدية، بدءاً بمحطات الوقود وصولاً إلى ورش الصيانة، تجعل من الصعوبة بمكان الانتقال ببساطة إلى التكنولوجيا البديلة، ناهيك عن العوامل الاقتصادية الأخرى التي تتمثل في الارتباط الوثيق ما بين النفط وهذه الصناعة.

إذن، الخوف من ضياع الأصول هو ما أخّر الاستثمار في تكنولوجيا السيارة صديقة البيئة. إضافة إلى الأموال الطائلة التي يتطلبها ذلك من أجل بنية تحتية بديلة، هو ما لا تستطيع هذه الشركات تأمينه. إنها المشكلة التي يسميها الاقتصاديون الخوف من انحسار الأصول «stranded assets»، حيث يحدث نفور كبير من عملية التغيير بسبب الخوف من ضياع الأموال التي أنفقت في الاستثمارات السابقة. ولكن، قوانين المنافسة الحالية التي تقودها تويوتا هي التي تعِد بالتحول القادم، للمنافسة التي أرغمت عليها الشركات الكبرى من خلال ارتفاع أسعار الوقود خلال الفترة الماضية، وتصاعد النبرة في أصوات المدافعين عن البيئة وما يشكله الارتفاع المزمن في غاز ثاني أكسيد الكربون من خطر على البيئة في العقود القادمة إذا استمرت ظاهرة الاحتباس الحراري أو «البيت الزجاجي» في التعاظم بمعدلاتها الحالية.

لقد أضحت هذه المنافسة بالنسبة لمنتجي السيارات في ديترويت مثل «فورد» و«جنرال موتورز» أو في اليابان، مسألة وجود أو فناء لهذه الشركات. الشركة التي تحوز على التقنية الأفضل للبيئة والأوفر للمستهلك سوف تكون في الصدارة، أما الشركة التي تبقى في المؤخرة فهي مهددة بالتلاشي.

في خبر نشرته صحيفة الاقتصادية الإلكترونية بتاريخ 2008/10/16م، جاء أن شركات السيارات الأوروبية سوف تطالب المفوضية الأوروبية، وهي الذراع التنفيذية للاتحاد الأوروبي، بالحصول على قروض تصل إلى 40 مليار يورو من أجل صناعة سيارات صديقة للبيئة. وأعرب رئيس شركة «فيات» الإيطالية لجريدة «فاينانشيال تايمز» عن تخوفه من ضعف قدرة الشركات الأوروبية على المنافسة في صناعة سيارات تقل فيها انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، خصوصاً بعد موافقة الكونغرس الأمريكي على حصول شركات صناعة السيارات الأمريكية على قروض تبلغ قيمتها نحو 25 مليار دولار لتطوير المحركات بشكل يحافظ على البيئة، وتحاول الحكومات من خلال هذا الدعم السخي تمكين هذه الشركات من المنافسة عبر السيطرة على أفضل التكنولوجيات الممكنة. ويضيف رئيس شركة «فيات» قائلاً: «إن دعم الشركات الأمريكية سيزيد من صعوبة مهمة الشركات الأوروبية في السوق الأمريكية فضلاً عن الأعباء الاستثمارية الجديدة لشركات السيارات الأوروبية لتحقيق مطالب المفوضية الأوروبية بخفض نسب انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون في العادم». ويجدر بالذكر أن المفوضية



في مضمار المركبات الآلية تحولية الوقود، غالباً ما تحتاج مؤشرات الوقود أن تشير إلى مستويات مختلف الأنواع التي تستخدمها المركبات الآلية، ويقوم مؤشر الوقود هذا بالإشارة إلى مستويات كلٍ من الغاز الطبيعي المضغوط (CNG) والنفط.



تتيح مضخة الوقود هذه للمستهلكين خيار استخدام الوقود العضوي، ولا تحتاج المحركات العاملة بالوقود المتوافرة حالياً إلى أي تعديلات لحرقه، كما أن عملية مزجه مع مازوت النفط - بأية نسبة كانت - هي عملية آمنة.

الأوروبية بقيادة خوسيه مانويل باروسو وضعت قانوناً يفرض غرامات على الشركات المخالفة بحلول عام 2012م في حال زادت نسب انبعاثات العادم في السيارات الأوروبية على 120 غراماً لكل كيلومتر. لكن حتى هذا القانون ما زال مثار جدل بين ألمانيا من جهة والاتحاد الأوروبي من جهة أخرى، مما يدل على الصعوبات التي تواجهها هذه الصناعة في أوروبا. لذا تجد الشركات الكبرى نفسها في وضع صعب ما بين مطالب البيئة وقوانين المنافسة والسوق وتكاليف التحول. فهل يعيد الدعم الحكومي توازن هذه الشركات؟

سباق من أجل المكاسب أم الأرض؟ نجاحات وفشل

يعمل نموذج «بريوس» الذي يعد أحد الحلول البيئية الناجحة في هذا الإطار، بقوة دفع من بطارية كهربائية تكفي حوالي 35 ميلاً، عند شحنها بالكامل، مع محرك احتياط يعمل على البنزين في حال فراغ البطارية، مما يتيح خفض استهلاك الوقود إلى النصف تماماً. وتنبع أهمية هذه السيارة من خلال وضعها حلاً ناجعاً لشرائح واسعة من الناس الذين لا تزيد عدد الأميال التي يقطعونها يومياً عن الرقم المذكور، مثل الموظفين وأصحاب الأعمال.

وهنــاك أبحــاث ومشاريــع جــادة مــن كبريــات الشركات العالميــة لإنتاج سيارات صديقة للبيئــة وإن كانت لم تصل إلــى شوارعنا بعد بالصــورة المطلوبة. حيث بــدأ عدد من كبريــات الشركات السيــر على خطى «تويوتــا»، مثل شركة هوندا التي طرحت نموذجهــا «هوندا سيفيك هيبرد» الذي يستهلــك غالوناً واحداً من الوقود لكل خمسين ميلاً. كذلك طرحــت شركة فــورد الأمريكيــة العملاقــة سيارتها «فورد سكيب هيبــرد» وهي من طراز متعــدد الاستعمالات «SUV» في عــام 2004م، ثم تبعتها «تويوتا» مــرة أخرى بنموذجها «هايلانــدر هيبرد» من الطراز نفســه بعد عام واحد فقط. وتخطط شركة «نيسان» لطرح نموذجها من «نيسان ألتيما» في القريب العاجل.

كذلك، فــي مجال تطــور مواد تصنيــع السيــارات صديقة البيئــة، طرحــت شركــة «ستروين» الفرنسية فــي معرض فرانكفــورت 2007م، نموذجهــا التجريبي لسيــارة تم فيها استخــدام مواد تتحلل بيولوجيــاً. سميت هذه السيارة «سي كاكتيــس». أيضاً طرحت شركة «سيــات» الإيطالية سيارتها «بادنا أريا» والمصنوعة من مواد تتحلل بيولوجياً.

تقنية يابانية على أرض أمريكية

تجــري في شــوارع أمريكا حالياً حوالي ثلاثمائــة ألف سيارة تعمل بالوقود الهجين، 95% منها صناعة يابانية. هذا الرواج الكبير دفع بشركة «جنرال موتورز» العملاقة إلى حلبة السباق على متــن منتجها الأول الذي أطلقت عليه اسم «فولت» والتي تعمل عــن طريق خلايــا وقــود الهيدروجين. وكانــت جنرال موتورز قد طرحت نموذجها الأول «هيدروجين 4»، الذي يعمل بخلايــا الهيدروجين أيضاً، فــي معرض فرانكفورت 2007م. ولكــن هذا لــم يكن كافياً لإرضــاء تطلعــات الشركة، فقامت بتطويــر نموذج فولــت إلى «فولت شيفروليــه» لتجمع بين قوة الأداء وصداقة البيئة. وبقدر ما كان معرض فرانكفورت بداية لنقاش جاد عــن دور الوقود الحيوي في سيــارات المستقبل، طــرح معرض لوس أنجلوس الذي تليــه، بداية أخرى لتكشف شركــة «جنرال موتورز» الأمريكيــة و«هوندا موتورز» اليابانية عــن مدى التقدم الــذي حققتاه على صعيــد الإنتاج التجاري للسيارات العاملة بنظام خلايا وقود الهيدروجين.

الأبحاث والنتائج

تشيــر التقاريــر أن شركــة «جنــرال موتــورز» دفعــت أكثر مــن بليــون دولار للأبحــاث المتعلقة بخلايــا الوقود خلال الأعــوام الخمســة الأخيرة. ويشير هــذا المبلــغ إلى اتجاه الشركــة العملاقة للاستثمار الجــدي في سيارة المستقبل، ومحاولاتها المستميتة في الحفاظ على ريادتها.

وفــي ضواحــي شنغهــاي الصينية المعبــأة بالهــواء الثقيل الملوث بعوادم الملايين من السيارات، تقبع مئات المعامل التــي ينصبُّ اهتمامها علــى السباق نحو السيــارة الأفضل للبيئــة والأرخــص ثمنــاً، سعياً إلــى حل المشكلــة المزمنة للتلوث الذي ضرب كبريات المدن الصينية عبر سنوات من استخــدام محركات الاحتراق الداخلــي. في المدينة، اتجه النــاس إلى استخــدام الدرَّاجات الكهربائية بعــد أن أرهق التلوث هواءهــا، وشكل ارتفاع أسعار الوقود مشكلة حقيقية أرهقت كاهل الكثيرين. وقــد وقَّعت شنغهاي أخيراً اتفاقية تعاون مشترك مع جنرال موتورز لإنتاج نماذج أولية لسيارة الهيدروجيــن، وللعمل مع سلطــات المدينة على تطوير بنية تحتية لدعم هذه الصناعة.

وفــي إطار جهود الصين البيئيــة، أقامت مقاطعة «هاينان» جنوبــي الصيــن معرضاً للسيــارات صديقــة البيئة يهدف إلــى تطوير تكنولوجيا حماية البيئة فــي صناعة السيارات. المعرض تشرف عليه الأكاديمية الصينية للهندسة ومجلس الصين لدعم التجــارة الدولية وإدارة العلوم والتكنولوجيا، ويهدف إلــى زيادة التعاون بين الصيــن والشركات الدولية العملاقــة في إطــار التكنولوجيــا البديلة للسيــارات. ومنذ عام 2001م وحتــى اليوم أحرزت الصيــن تقدماً كبيراً في مجــال صناعة السيارات صديقة البيئــة. ومثالاً على ذلك، فازت الصين بأربع ذهبيات عام 2006م في إطار المسابقة السنوية التي تقيمها شركــة «ميشلين» الفرنسية للإطارات لأفضــل سيارة صديقــة للبيئة. ومنذ ذلــك الوقت والصين تواصل جهودها لتطوير هذه السيارة.

وفــي الهنــد، تعمل شركــة «تاتا» الهنديــة على إنتــاج سيارة لا يزيد ثمنها على 3000 دولار، واستهلاكها للوقود يقل ثلاث مرات عن سيدان الأمريكية الجديدة الصديقة للبيئة. وسوف يبدأ إنتاج هذه السيارة بصورة تجارية في أواخر هذا العام، مما يؤكد دخول الهند بقوة في السباق نحو المستقبل.

أمــا في تايلاند، فتتحول البلاد بخطى ثابتة إلى «ديترويت» السيارات صديقة البيئة من خلال تبنيها سياسة الإعفاءات الضريبية للشركات الراغبة في الاستثمار في هذا المجال،

بشرط إنتاج ما لا يقل عن 100 ألف سيارة تستطيع الواحدة منها قطع 20 كيلومتراً بلتر واحد من البنزين.

اغتناماً لهذه الفرصة، تخطط شركتا «سوزوكي» و«نيسان» اليابانيتان مع «تاتا» الهندية لاستثمار مئات الملايين من الدولارات في تايلاند. حيث تخطط «سوزوكي» لإنتاج 138 ألف سيارة صديقة للبيئة سنوياً باستثمارات قدرها 316 مليون دولار أمريكي، في حين تعتزم «نيسان موتورز» إنتاج 120 ألف سيارة سنوياً من النوع نفسه بمبلغ يقارب السابق. كما وافقت تايلاند أخيراً على تقديم إعفاءات ضريبية لشركتي «ميتسوبيشي» و«تويوتا» اليابانيتين بعد منحهما إعفاءات مماثلة لشركة «هوندا» اليابانية. ويخطط الثلاثي «ميتسوبيشي»، «تويوتا» و«تاتا» لإنتاج أكثر من 300 ألف وحدة سنوياً باستثمارات تبلغ في مجملها 536 مليون دولار أمريكي. وتسعى تايلاند والتي تحتل فعلياً المرتبة الخامسة عشرة بين الدول المصدرة للسيارات، إلى أن تصبح مركزاً رئيساً لإنتاج مختلف أنواع السيارات صديقة البيئة الصغيرة والرخيصة الثمن إلى حد ما، لتغطية حاجة السوق المحلي وتصدير الفائض منها إلى الأسواق العالمية. والجدير بالذكر أن تايلاند تُعد حالياً ثاني أكبر مركز لإنتاج الشاحنات الخفيفة في العالم بعد الولايات المتحدة. فهل يتحول البلد الآسيوي الصغير إلى «ديترويت» السيارات صديقة البيئة؟

المستهلك الذي تعوَّد طوال عقود على السيارة التقليدية قد يفكر ألف مرة قبل الإقدام على شراء سيارة من النوع الجديد يزيد ثمنها على السيارة التقليدية وليس لديه أية معلومات كافية عن تكاليف تشغيلها

جيوبنا.. هل تتحمل؟ عقولنا.. هل تقتنع؟

إن ما تواجهه صناعة سيارات المستقبل من عقبات تتعلق بالتمويل اللازم، وتردد الشركات الكبرى لصناعة السيارات للاستثمار في هذا المجال خوفاً من فقدان استثماراتها السابقة، يرتد سلباً على أسعار المطروح منها حالياً في الأسواق، كما يسبِّب نوعاً من عدم الثقة بين المستهلك والمنتج. فالمستهلك الذي تعوَّد طوال عقود على السيارة التقليدية، من ناحية تكلفتها وتكاليف تشغيلها من صيانة ووقود وقطع غيار ومعرفته التامة بأداء كل سيارة من خلال توافر المعلومات الكافية، قد يفكِّر ألف مرة قبل الإقدام على شراء سيارة من نوع جديد، يزيد ثمنها عن السيارة التقليدية، وليس لديه أية معلومات كافية عن تكاليف تشغيلها.







سيارة إيرستريم كونسبت 2008 من فورد المزودة بحجيرة وقود هجينة عاملة على الهيدروجين، سيارة هايبرد أكس كونسبت الهجينة من تويوتا، وسيارة إيماس هايبرد كونسبت 2004 من هوندا. قدرة هذه الأخيرة على توفير الوقود مدهشة، حيث إنها تستطيع عبور 161 كيلومتراً مستخدمة غالوناً واحداً من الوقود.

ففي استطلاع للرأي أجراه فريق أبحاث في ألمانيا، تبيَّن أن 11% فقط من المشترين الجدد يفكرون بشراء سيارة هجين، تلك التي تعمل بالوقود والبطارية، فيما تتردد الغالبية عن الشراء بسبب ارتفاع السعر. إذ أعرب ثلاثة أرباع المشاركين في الاستطلاع عن استعدادهم لشراء أكثر المحركات صداقة للبيئة شرط ألا يكلِّفهم أكثر من سعر الطرازات العادية المشابهة. وقد أكد ذلك «اتحاد السيارات الألماني» في إعلانه في منتصف ديسمبر لعام 2007م أنه من غير المستغرب أن تكون مبيعات السيارات الصديقة للبيئة الموفرة للوقود منخفضة، بعد أن أثبتت نتائج اختبارات أجراها على 11 نوعاً من هذه السيارات، أن السيارات المزوَّدة بتكنولوجيا خفض استهلاك الوقود ما زالت مرتفعة الثمن للغاية، مقارنة بنظيراتها التقليدية. ويشكِّل هذا عقبة حقيقية أمام المطروح منها حالياً. وعلى سبيل المثال، فإن سيارة «فورد فوكس إيكونيتيك» تتطلب من مشتريها قطع مسافة



تُظهر الأضواء الملونة المعالم المختلفة لإدخال نظام الطاقة الكهربائية الهجينة على محرك سيارة تاهوي كونسبت من شفروليه.

185 ألف كيلومتراً كي يعوِّض الفارق الإضافي في السعر الذي دفعه مقابل التكنولوجيا الموفرة للوقود. كذلك يتعين على مشتري سيارة «فلوكسفاغن بولو بلوموشن» الأغلى بـ 850 يورو من سيارة «بلو ترندلياين» العادية، أن يقطع مسافة تصل إلى 100 ألف كيلومتر قبل أن يعوض الفارق في الثمن!

الاستثناء الوحيد في هذا المجال يعود إلى سيارة «سيات أيبزا 1.4 تي دي إي» الأرخص بنحو 800 يورو عن نسخة الديزل منها. ولكن هذا الاستثناء وحده ليس كافياً، حيث تظل الشروط الأخرى للمشتري قائمة.

وهناك عدد من السيارات الأخرى التي لم يكشف عنها النقاب حتى الآن مثل «بورش كايين»، و«اكس 6» التي من المتوقع أن تنتجها شركة «بي ام دبليو» الألمانية. ولكن لا يتوقع أن تصل إلى مرحلة الطرح التجاري قريباً بسبب ارتفاع تكلفتها مقارنة بالأنواع التقليدية من الطرز نفسها.

ومن ناحية أخرى، تظهر استطلاعات الرأي في ألمانيا ما يزيد الطين بلة، وهو أن الشركات التي تنتج السيارات صديقة البيئة، غير مستعدة لتقديم تخفيضات على أسعار السيارات صديقة البيئة التي تنتجها، وذلك ربما بسبب ارتفاع تكاليف الإنتاج.

فمن الواضح أنه بالرغم من الوعي البيئي الذي بدأ ينتشر في السنوات الأخيرة، ومع ارتفاع أسعار الوقود، إلا أن المشترين ما زالت تأخذهم الحيرة حيال الكم الهائل المعروض عليهم من تكنولوجيا خفض انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون، ويترددون في اتخاذ قرار الشراء قبل التأكد من حصولهم على أفضل العروض لسيارة تجتمع فيها الجدوى المالية مع التقنية. وهذا ما يشكِّل عقبة أخرى في وجه نجاح السيارة صديقة البيئة.

وقد ظهر هذا الارتباك لدى المشترين من خلال استطلاع أجرته مؤسسة ألمانية شمل 3600 مشتر محتمل للسيارات من أوروبا وأمريكا، حيث أظهر الاستطلاع أن الزبائن يلحون في طلب المعلومات التي تساعدهم على اتخاذ قرار الشراء عند وجودهم أمام مجموعة واسعة من التقنيات الجديدة والمربكة أحياناً. وبحسب تقرير أصدرته شركة «رنكوس» ومقرها الهند، فإن مبيعات السيارات الهجين في أوروبا بلغت نحو 39800 سيارة عام 2006م، بلغ نصيب «تويوتا» منها حوالي 90%. وتتوقع رنكوس أن تتجاوز مبيعات السيارات الأوروبية الهجين الرقم 49500 سيارة عام 2012م.

فالمشكلة الحقيقية في إعراض المشترين عن شراء السيارة صديقة البيئة تتلخص في عدة أسباب أهمها ارتفاع ثمنها وعدم توافر المعلومات الكافية بشأنها وذلك مقارنة بالسيارة التقليدية. وهذا ما يزيد من خطورة الوضع بالنسبة للشركات التي تنفق أو تخطط لإنفاق أموال إضافية للاستثمار في هذا المجال. ويزيد من تأزم الوضع القوانين التي وضعتها بعض الدول والكيانات مثل قانون الاتحاد الأوروبي لانبعاثات العادم من ناحية، وتحذيرات البيئيين من ناحية أخرى من استفحال ظاهرة الاحتباس الحراري، خصوصاً إذا زادت الصين والهند، أكبر الاقتصاديات الآسيوية نمواً، من نسبة الانبعاثات الحالية المشار إليها سابقاً ببطء تبنيها للتكنولوجيات المتاحة حالياً في مجال الحفاظ على البيئة بصورة عاجلة.

وأن تكون تكنولوجيا السيارات الصديقة للبيئة قد راعت الظروف البيئية المتدهورة، فإنها لم تراعِ جيب المستهلك

وعقله الـذي لا يكاد يستوعب تقنية حتى تظهر تقنية أخرى أكثـر جاذبيـة وتعقيـداً. فالرابط الذي يجمـع بين كل هذه التقنيات، بالرغم من ارتفاع أثمانها، هو تعقيدها وعدم ثقة المستهلـك في الحصول على الخدمـات الضرورية لما بعد البيـع وبأسعار مناسبة كما كان يجدهـا بالنسبة للسيارات التقليديـة. لذا تبقـى السيارة صديقة البيئـة بعيدة المنال حالياً علـى المستهلك، وسوف تقتصر على شريحة صغيرة مـن الناس في بعض الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة وأوروبا إلى أن يجد المصنعون طريقة ما لجعلها أكثر شعبية وقدرة على المنافسة في البلدان النامية.

> إن تكون تكنولوجيا السيارات الصديقة للبيئة قد راعت الظروف البيئية المتدهورة، ولكنها لم تراعِ جيب المستهلك وعقَله الذي لا يكاد يستوعب تقنية حتى تظهر تقنية أخرى أكثر جاذبية وتعقيداً

فالوعـي البيئـي وحـده قـد لا يكـون كافياً فـي هـذه المرحلـة للقضـاء علـى السيارة التقليدية، بل يحتاج إلى تكنولوجيا صديقة لجيـب المستهلـك، وأسهـل علـى الفهـم. عندها فقـط تضمن السيارة صديقة البيئة مكانتها المطلوبة في أرجاء العالم، وتصبح ذات جدوى تجارية للشركات المصنعة.

الحل يبقى أحفورياً

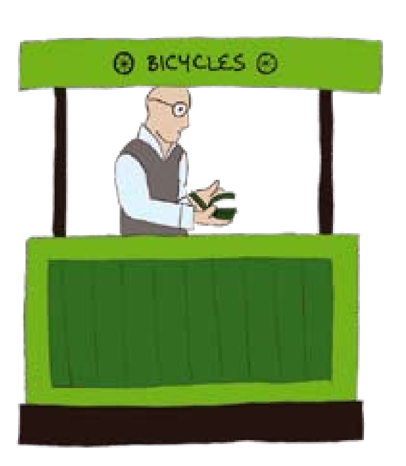
إن مـا سقنـاه حتـى الآن حـول السيـارة صديقـة البيئة يسمح لنـا بالتأكيد على أن أفضـل ما أنجز في هـذا المجال يبقى قائمـاً في أساسه على تخفيـض استهلاك الوقود الأحفـوري، بحيث تتمكن السيـارة من اجتياز مسافة معينـة بأقل قدر من انبعاثات ثانـي أكسيد الكربون من عادمها. أما الحلول الهادفة إلى الاستغنـاء تماماً عن الوقود الأحفوري، فتبدو أنها ستبقى تـراوح في مكانها متخبطة بين تكلفتهـا الأخلاقية بسبب انتزاعها الخبز من أفواه العالم، إضافة إلى أنها ستواجه بشـكل أكثر حـدة، حذر المستهلـك، وغياب بنيـة تحتية تخـدم هذه السيارة، طالما أنه لـم يبدأ بتأسيسها عالمياً حتى الآن.

إلـى ما تقدم، نضيـف إلى أن كل ما تم إنجـازه من أبحاث ودراسات مستقبلية حول هذا الشأن يعود إلى النصف الأول مـن العام الجـاري 2008م. أما اليوم، فـإن الأزمة المالية العالمية التي بدأت تتحول إلى أزمة اقتصادية عامة وشاملة مع بدايـات الانكماش في أمريكا والاتحاد الأوروبي، ستعيد تصميم خطط المستقبل بشكل يصعب التكهن به منذ الآن. إذ أن الهاجـس الرئيـس بالنسبـة لصناعـة السيارات في العالـم بأسره أصبح بين ليلـة وضحاها «البقاء» مهما كلَّف الثمـن. ومما لا شك فيه أن الجهود التي بذلت على السيارة صديقـة البيئة أكدت ارتفاع تكلفة الأبحـاث والإنتاج وسعر السيـارة للمستهلك.. وهذا ما يشكِّل تحدياً هو اليوم أخطر علـى الشـركات مما كان عليه قبل سنة. كمـا أن المستهلك الذي تردد كثيـراً في اعتماد السيارات غير التقليدية لجهة استهلاكها للطاقة بسبب ارتفاع كلفتها، سيتردد اليوم أكثر فأكثر مع الأزمة الاقتصادية المحيطة به من كل الجهات.

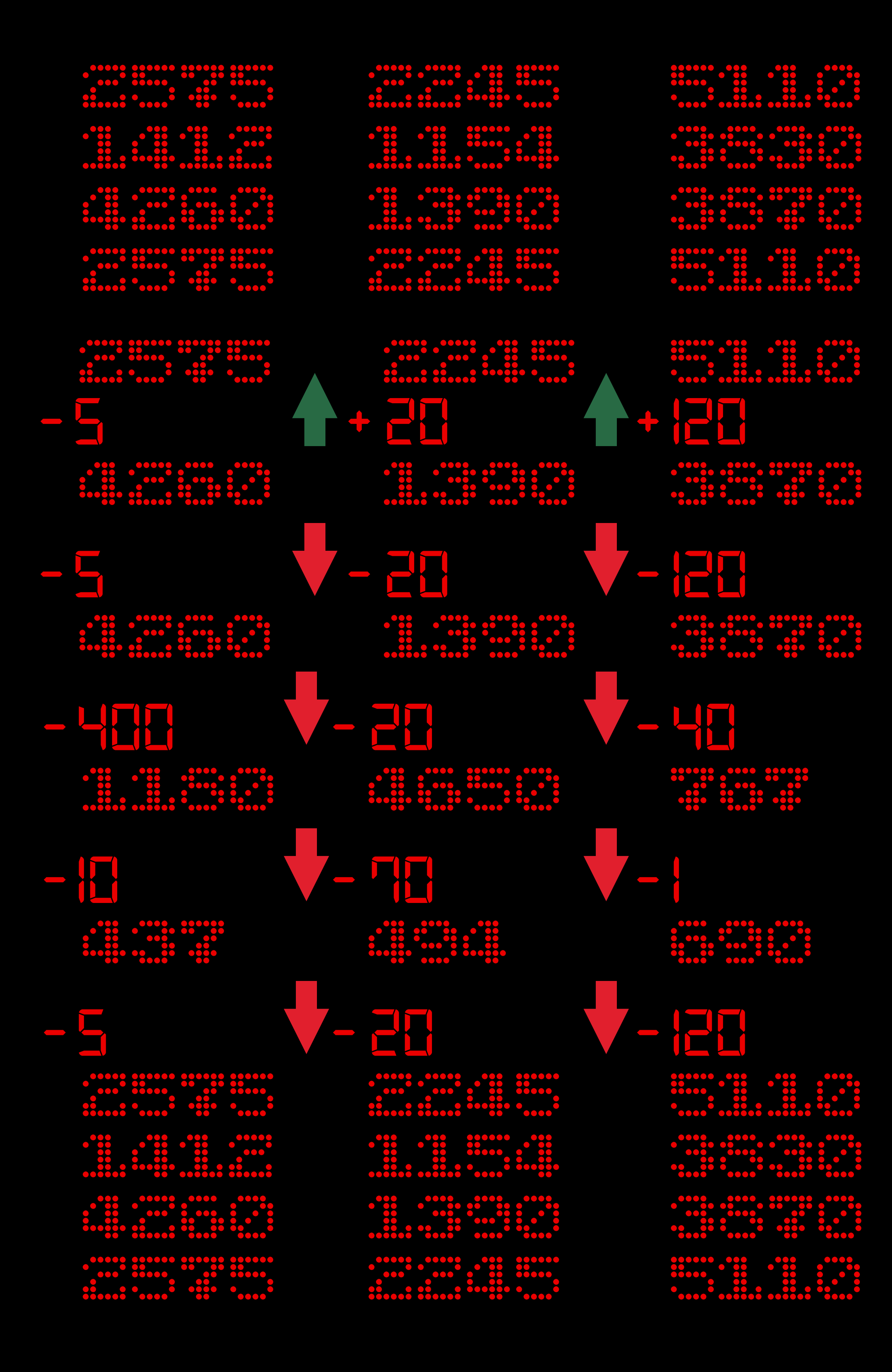
مـن جهـة أخرى، ليسـت صناعـة السيارات هـي الوحيدة في البحث عن حل للشأن البيئي. بل يرافقها في ذلك عمالقة إنتاج النفـط في العالم الذين تنصـب جهودهم على محور مختلف، ويتمثل فـي تحسين نوعيات الوقود الأحفـوري، وأيضاً نوعيات احتراقه. وقد حققت هـذه الجهود نتائج عملية بالغة الأهمية، ليس البنزين الخالي من الرصاص إلا مثالاً واحداً عنها.

ولأن التكنولوجيـا الواقعية لا تزال تؤكد أن السيارة صديقة البيئـة الأقرب إلينا ستبقى تعتمد جزئياً أو كلياً على الوقود الأحفوري، فـإن إضافة التحسينات التـي يمكن أن تدخلها شـركات النفط على نوعيـة الوقود، مضافـاً إلى تحسينات احتراقـه وتخفيـف استهلاكـه فـي المحركات، هـو وحده سيصوغ فعلاً السيارة صديقة البيئة التي ينتظرها الجميع.. وكل ما عدا ذلك هو إعلام سياسي.



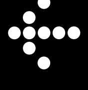





2575 2245 5110
1412 1154 3630
4260 1390 3670
2575 2245 5110
2575 2245 5110
-5 +20 +120
4260 1390 3670
-5 -20 -120
4260 1390 3670
-400 -20 -40
1160 4650 767
-10 -70 -1
437 494 690
-5 -20 -120
2575 2245 5110
1412 1154 3630
4260 1390 3670
2575 2245 5110

آثارها على متوسطي الحال في العالم...

الأزمة المالية العالمية



على الرغم من أن الكل بات يعرف أن الأزمة المالية التي أطلت برأسها أولاً في أمريكا قبل أسابيع هي في الواقع عالمية المقاييس، فإن الكثيرين من أبناء الطبقة الوسطى في البلاد العربية، كما هو الحال في بلدان كثيرة من العالم، من غير المقربين من أجواء البورصات والاستثمار فيها، لم يلحظوا بعد آثار هذه الأزمة على حياتهم اليومية ما يمكن قياسه بالحراك السياسي الضخم والضجيج الإعلامي المعبر عن هذه القضية. الكاتبان الاقتصاديان خالد بن عبدالرحمن الغشيري وبهاء الرملي يستطلعان هنا ما الذي يمكن أن يواجه المواطن المتوسط الحال، الذي يعتمد على راتبه الشهري، وذوي المدفوعات الصغيرة، وسط تخبط كبار المصارف والبيوتات المالية وحكومات العالم في هذه الأزمة، فيتناولان أسبابها وما بان من مفاعيلها حتى الآن، ويستشرفان ما يمكن أن تكون عليه الانعكاسات المستقبلية على متوسطي الحال، من خلال تلخيص لعشرات الآراء والنصائح التي أبداها الخبراء في هذا الشأن على مدى الأسابيع الماضية على القنوات التلفزيونية المتخصصة في الاقتصاد.

عندما ظهرت بوادر أزمة الرهن العقاري في أمريكا قبل نحو عام، ظلت متابعتها العالمية شبه محصورة في نطاق المتعاملين مع البيوتات المالية الأمريكية، وذوي الاستثمارات الكبيرة، الذين كانوا يعون أن ما يصيب الاقتصاد في أي مكان من العالم (وخاصة في الدول الكبرى) لا بد أن يكون ذا آثار عابرة للقارات.

وتحوَّل القلق إلى استنفار عالمي مع إفلاس بنك ليمان الأمريكي، واقتراب عدد من كبار المصارف من حافة الإفلاس، فاستنفرت الحكومة الأمريكية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مؤسساتها المالية. وبسرعة انتشار النار في الهشيم، امتدت الأزمة المالية إلى معظم دول العالم من بريطانيا غرباً إلى اليابان شرقاً. ولأول مرة في التاريخ يُطَعّم الحديث عن جهود الإنقاذ والدعم والقروض بهذا العدد من «تريليونات» الدولارات، الأمر الذي يكفي لوحده أن يثير الذعر والدهشة أمام حجم المعضلة، التي لم تلق حتى وقت إعداد هذا التقرير، ما يبشر باقتراب الحلول المطمئنة. وحتى لو ظهرت هذه الحلول النهائية اليوم، فإن مفاعيل ما يحصل ستبقى ظاهرة ومؤثرة على الاقتصاد في العالم بأسره خلال المستقبل القريب، وتعني به الفترة الممتدة حتى نهاية العام المقبل 2009م على أقل تقدير.

نواة كرة الثلج

تعود جذور هذه الأزمة التي لم نسمع بها في الإعلام إلاّ قبل سنة واحدة تقريباً إلى منتصف تسعينيات القرن الماضي، عندما راحت المصارف الأمريكية تسرف في التسليف لبناء المساكن بفوائد لم تتجاوز الواحد في المئة، مما أدى إلى نمو كبير في حركة عرض المساكن والطلب عليها، وإلى فورة عقارية شكَّلت عامل جذب للاستثمار في هذا القطاع.

بدت هذه الحركة في ظاهرها طبيعية، غير أن عقود الاقتراض المصرفي الخاصة بها كانت مفخخة بشروط لم ينتبه إليها المقترضون عن قلة دراية أو قلة خبرة أو سوء تقدير.

أكثر هذه الشروط كان في اعتماد فائدة متحركة مربوطة بالفوائد التي يحددها الاحتياطي الفدرالي الأمريكي، وتسديد فوائد القروض في السنوات الثلاث الأولى للقرض، يصار بعدها إلى سداد أقساط القرض نفسه. والأدهى أن العقود تضمنت بنداً جزائياً بتحميل المقترض غرامات مرتفعة في حال تأخره عن السداد.

سارت الأمور أولاً بشكل مقبول من الجميع حتى العام 2000م، عندما رفع الاحتياطي الفدرالي الأمريكي أسعار الفوائد إلى ما بين 4 و4.5 في المئة (بين عامي 2001 و2003م). الأمر الذي أدى لاحقاً إلى تحميل المقترضين أعباء إضافية عجزوا عن الوفاء بها، واضطر الكثيرون منهم إلى التوقف عن الدفع والتخلي عن منازلهم للمصارف المقرضة. ومع ارتفاع الفوائد، ارتفعت كلفة شراء البيوت، فتراجع الطلب عليها، لتتراجع بدورها الأسعار، وهذا ما أدى إلى تراكم الديون المستحقة للمصارف التي صارت تمتلك الكثير من البيوت التي لا يريد أحد شراءها، فوقعت في أزمة سيولة.

قبل الوصول إلى هذه المرحلة، وعندما كانت موجة الاقتراض السكني في ذروتها، راحت المصارف تصدر سندات مقابل القروض المضمونة بالبيوت. فأقبل عليها المستثمرون على أنها مضمونة. ولما كانت هذه السندات تعطي عائداً مغرياً، توجه المستثمرون إلى صناديق استثمار وباعوها إياها بضمانة البيت أيضاً. كما توجهت المصارف من ناحية أخرى إلى شركات التأمين للتأمين



على السندات، فقبلت شركات التأمين الطلب كون السندات مضمونة بالبيوت.. وهكذا بات البيت الواحد يشكل ضمانة لأربع جهات هي المصرف المقرض والمستثمر وصندوق الاستثمار وشركة التأمين. وعندما يبلغ عدد البيوت التي تخلى عنها أصحابها للمصارف نحو مليوني بيت، ولا من يريد شراءها، أي بعبارة أخرى عندما تتحول البيوت إلى بضاعة كاسدة، يمكننا أن نتصور المأزق الذي وقعت فيه هذه الجهات الأربع.

فمن المصارف التي انخرطت في هذه اللعبة نذكر بنك جي. بي مورغان الذي كان أول ضحايا انفجار الأزمة، وشركة التأمين الأولى في الولايات المتحدة أيه. آي. جي التي عجزت عن دفع ضمانات قيل أولاً أنها وصلت إلى 14 مليار دولار. غير أنها أعلنت مؤخراً حاجتها إلى 150 ملياراً للخروج من أزمتها!!

لم يقف انفلات السوق عند حد المبالغة في التسنيد بضمانة غير حقيقية. بل راحت المصارف تعطي لأشخاص غير موثوقين، وأصحاب سوابق في عدم القدرة على السداد، وفي تقديم بيانات غير صحيحة حول مداخيلهم وممتلكاتهم.. وكان كل ذلك يجري بعيداً عن أية رقابة مصرفية أو مالية. لأن نظرية عرّاب الاقتصاد الأمريكي ومنظِّره في السنوات الماضية ألان غريسبان كانت تقول بإمكانية تغييب الضوابط الحكومية إلى حد كبير، لأن آلية السوق كفيلة بأن تعالج بنفسها المشكلات المحتملة. وهذا ما تراجع عنه غريسبان، وأقر علناً بخطئه بعد انفجار الأزمة.

وإلى أزمة الرهن العقاري التي تشير آخر التقديرات إلى أن حجمها «الحقيقي» يبلغ 1.5 تريليون دولار (!؟) ، يضاف عامل آخر لم ينل من الأضواء الإعلامية ما يستحقه، وهو دور الاعتماد على الاقتراض من خلال بطاقات الائتمان في الحياة الأمريكية. إذ أدى اطمئنان الأمريكيين المبالغ فيه لجهة مسار الاقتصاد في بلادهم، إلى ارتفاعات فلكية في مصاريفهم الحياتية، بحيث بات من الطبيعي بالنسبة إلى الكثيرين أن يسددوا كامل رواتبهم الشهرية كقسط مستحق لشركات بطاقات الائتمان، بعدما تجاوزت ديونهم لها إجمالي مداخيلهم لسنة أو سنتين..

وانكشفت هشاشة الوضع أمام أول بوادر التعثر، فانهار مع انهيار المقترضين وتمنعهم عن الدفع، لينهار لاحقاً المستثمرون وصناديق الاستثمار وشركات التأمين مثل أحجار الدومينو.

الأزمة من أمريكا إلى العالم

وهكذا يمكن القول إن أزمة الرهن العقاري كانت الشرارة التي أشعلت حرائق الأسواق على ضفتي الأطلسي. فنظراً إلى تداخل البورصات الكبرى وسهولة توظيف الأموال من أي مكان في العالم في أي مكان آخر بشكل فوري من خلال سهولة الاتصال التي وفرتها شبكة «الإنترنت»، ونظراً إلى أن المستثمرين الأوروبيين مارسوا سلوكيات مماثلة لما كان يحصل في «وول ستريت»، انتقلت عدوى الهلع ومن ثم الانهيارات إلى أوروبا واليابان، حيث كانت توجد عوامل خطر بعضها مشترك، وبعضها خاص بكل دولة من دول منطقة اليورو التي كانت أكثر تضرراً من غيرها في أوروبا، بعد بريطانيا ذات البورصة وثيقة الصلة بـ«وول ستريت».

فإسبانيا مثلاً تعاني أزمة عقارية أصغر حجماً من مثيلاتها الأمريكية، ولكنها أكثر حدةً، وألمانيا تشهد فترة تراجع كبير في صادراتها. وفرنسا تعاني أزمة اقتصادية وبطالة حادة، فضلاً عن أنها لم تتخط بعد أزمة الثقة بقطاعها المصرفي نتيجة حادثة مصرف «سوسيته جنرال» التي أدت إلى خسارة المصرف 7 مليارات يورو بسبب سلوك فردي لأحد موظفيه. وأدى كل ذلك معطوفاً على أزمة الثقة بالنظام المالي العالمي الناتجة عن الأزمة الأمريكية، إلى بدء سلسلة الانهيارات الأوروبية مودية بمئات مليارات اليورو.

ومع تهاوي البورصات الأمريكية والأوروبية، انتقلت الانهيارات إلى البورصات الآسيوية التي سجلت أدنى مستوياتها في عقود، لاسيما في اليابان والصين وأستراليا وهونغ كونغ والهند. ولم تسلم البورصات العربية لاسيما في دول مجلس التعاون الخليجي. فسجلت البورصة السعودية، وهي أكبر بورصة عربية، تراجعات حادة وكذلك بورصات الكويت والإمارات والدوحة.. رغم التطمينات في هذه



الدول بأن القطاع المصرفي لا يواجه نقصاً في السيولة، ونجاح الكويت مثلاً في تطويق أزمة بنك الخليج. غير أن العامل النفسي لا يزال هو الأقوى ويحدد مسار مؤشرات البورصات العربية يومياً.

الأزمة عربياً: هلعٌ تسعى الحكومات والسلطات المالية إلى تبديده

ولو شاء المرء أن يلخص حجم هذه الأزمة العالمية، لأمكنه الاكتفاء بالإشارة إلى أن إجمالي خسائر الأسهم في بورصات العالم منذ مطلع العام الجاري بلغت نحو 25 تريليون دولار.. وأن ما ضخته الحكومات في مصارف بلدانها لإمدادها بالسيولة اللازمة لمتابعة أعمالهابلغ حتى وقت إعداد هذا التقرير نحو 8 تريليونات دولار، بعدما اعتقد البعض أن إقرار خطة الإنقاذ الأمريكية التي بلغت كلفتها 700 مليار دولار ستضع حداً لجفاف الأسواق المالية.. إذ تبين أن هذا المبلغ العملاق كان أشبه بكوب ماء يُصب فوق الرمال، فظهرت حاجات جديدة إلى المزيد. وعلى الرغم من الجهود المبذولة عالمياً على مدار الساعة لمواجهة هذه الأزمة، يبدو أن الأيام والأسابيع المقبلة لا تعد بزوال هذا الكابوس، بدليل أن العالم بأسره يتطلع إلى الخطوات التي سيقدم عليها الرئيس الأمريكي المنتخب باراك أوباما بعدما يستلم منصبه رسمياً في يناير المقبل. وخلال هذا الوقت لم تعد أخبار الانهيارات والاختلاسات تقتصر على عالم البنوك وشركات التأمين والبيوتات المالية، بل بدأت تطل برأسها في عالم الإنتاج. ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن عمالقة صناعة السيارات في أمريكا يستنجدون اليوم بالحكومة لتقدِّم لهم دعماً مالياً يحميهم من الإفلاس. وتبلغ هذه الحاجة ذروتها عند شركة «جنرال موتورز» التي أعلنت أنها قررت صرف 30% من موظفيها وأنها قد تعجز عن تسديد الرواتب بعد شهرين(!)، كما أنها قد لا تستطيع الصمود حتى يستلم الرئيس المنتخب أوباما منصبه. وبموازاة هذه الأخبار المقلقة عن عمالقة الصناعة، بدأت تنتشر في العالم أخبار صرف الموظفين بالآلاف بدءاً بكبار المصارف الأمريكية مثل «سيتي جروب» وصولاً إلى مصانع الألعاب في الصين، مما يعني بداية تحول الأزمة المالية (أو أزمة السيولة) إلى أزمة اقتصادية عامة يصعب التكهن بدقة في حجمها ومسارها لاحقاً.

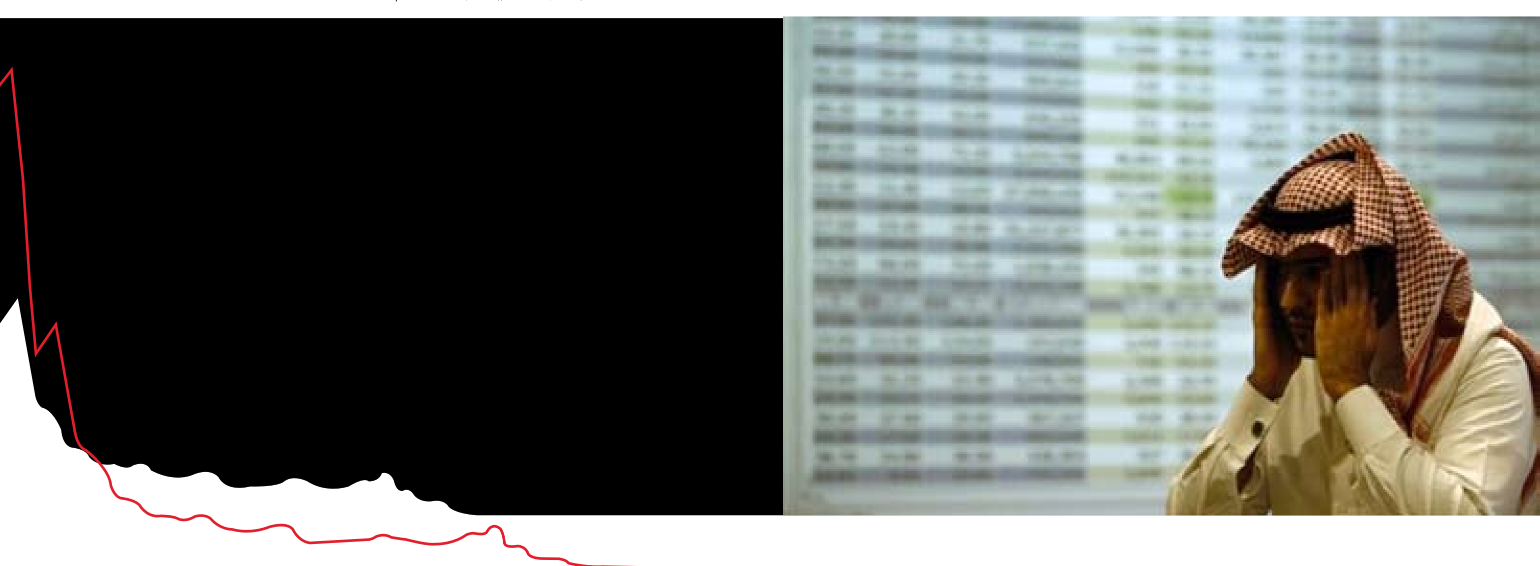
الأزمة عربياً

بشكل عام، يمكن تلخيص جانب كبير من انعكاسات هذه الأزمة العالمية على الدول العربية حتى الآن، بالقول إنها اتخذت طابع المواجهة ما بين الحكومات والسلطات المالية من جهة، والهلع النفسي الذي سيطر على المستثمرين من جهة أخرى. فقد أدى هذا الهلع كما نعرف إلى تهافت الكثيرين على بيع ما يملكون من أسهم في البورصات بأي سعر. فكانت النتيجة تراجعات حادة في كل البورصات العربية من دون استثناء يذكر. وكانت التراجعات الأسوأ في الأسواق السعودية والكويتية والإماراتية نظراً لضخامتها.

ورغم تراجع أسعار النفط مع تراجع الطلب العالمي عليه بسبب تباطؤ النمو في معظم دول العالم، وبداية الانكماش في بعضها الآخر (مثل الولايات المتحدة وبريطانيا)، فإن الحكومات الخليجية تمكنت من استيعاب الأزمة المالية بما تختزنه من احتياطات نقدية جمعتها بفعل ارتفاع أسعار النفط في السنوات القليلة الماضية. غير أن هلع المستثمرين لم يتبدد تماماً ولا يزال يؤثر سلباً على أداء الأسواق في هذه الدول. ومما لا شك فيه أن للهلع ثمنه.

أسواق الأسهم.. يكفيها بعض التعقل

إننا نعرف قصة أسواق الأسهم في المملكة ودول الجوار الخليجي وحتى مصر ولبنان وغيرها من البلدان العربية، حيث حمل الهلع عدداً من المستثمرين على بيع أسهمهم بأي سعر كان، فتكبدوا خسائر متفاوتة في أحجامها تبعاً لأحجام الاستثمارات.



وفي المقابل كان لسقوط أسعار الأسهم أثر معاكس، إذ بدت هذه الأسعار المنخفضة للغاية، مغرية للمشترين. وهي في الواقع كذلك. غير أن النصيحة التي كررها عشرات الخبراء على شاشات التلفزيون من قناة «سي. إن. بي. سي العربية» إلى «بلومبرغ» البريطانية، تشترط في المستثمر الذي يريد توظيف أمواله في البورصة أن يكون ذا نفس طويل، قادراً على تجميد المبلغ المستثمر لفترة قد لا تقل عن سنة، وقد تمتد حتى سنوات ثلاث. وإلاّ فإن استثماره سيشكِّل مقامرة قد تكون ذات عواقب وخيمة، إذا ما كان أمام مهلة محددة قد يحتاج بعدها إلى السيولة المستثمرة، لأن الأوقات الملائمة للبيع وجني الأرباح لم تكن في يوم من الأيام أقل وضوحاً مما هي عليه اليوم.

أقل ما يمكن أن يحمي متوسطي الحال هو الادخار، وحفظ المدخرات كسيولة في المصارف بعيداً عن أية مغامرات حالياً

أما النصيحة الموجهة إلى صغار المستثمرين الذين خرجوا من السوق، فهي بعدم عودتهم إليها، إلاّ إذا توافر لهم فائض من السيولة التي يدّخرونها، يغنيهم عن بيع الأسهم التي سيشترونها لفترة قد تراوح بين السنة والسنوات الثلاث.

وفيما يتعلق بالمستثمرين المتوسطين والكبار الذين يملكون مدخرات نقدية أو مصادر سيولة تسمح لهم بتأمين معيشتهم وأعمالهم الأخرى، فلا يجد الخبراء أي مبرر للتفريط بما يملكونه في الأسواق من الأسهم، لأن أكثر التوقعات تشاؤماً تبقى على مستوى ملحوظ من الثقة بجدوى التدابير الحكومية لمنع حصول انهيارات (في دول مجلس التعاون الخليجي بشكل خاص). ومن أهم هذه التدابير ضمان الودائع كلياً أو جزئياً في بعض الدول، وتقليص حجم القروض العقارية لضمان قدرة المواطنين على السداد وعدم تورطهم في عمليات عقارية تفوق إمكاناتهم المادية. فالكويت خفضت قيمة القروض من 90 إلى 70% من ثمن المنزل، وفي لبنان لا يتخطى الحد الأعلى للقرض السكني 60% من ثمن المسكن.

الموودعون ومدخراتهم في المصارف

والواقع أن أسواق الأسهم التي تشكِّل عصب الاقتصاد في دول العالم، حظيت ولا تزال بتغطية إعلامية تتابع ما يجري فيها لحظة بلحظة ما بين افتتاح الواحد منها وإغلاقه. ولكن ماذا عن ملايين البشر في البلاد العربية وغيرها من دول العالم من متوسطي الحال، الذين يتعاشون على رواتبهم الشهرية مثلاً، ويملكون مدخرات محدودة في المصارف المحلية؟

النصيحة الأولى الموجهة إلى هؤلاء هي أن يدخروا أكبر قدر ممكن، وأن يبقوا على مدخراتهم في الوقت الحاضر، على شاكلة سيولة في المصارف، لأربعة أسباب هي:

أولاً: لأن الأزمة الحالية هي أزمة سيولة بالدرجة الأولى كما رأينا مطولاً.

ثانياً: لأن نظام ضمان الودائع في المصارف من قبل الحكومات، يشكل أكبر عامل اطمئنان تجاه مستقبل هذه المدخرات. وحيثما كان ضمان الودائع جزئياً، يمكن للمدخر أن يوزع مدخراته على عدة مصارف بحيث لا يودع في أحدها ما يفوق الحد الأقصى المضمون.

ثالثاً: لأن كل مجالات الاستثمار الأخرى (في أسواق الأسهم، والعقارات والأراضي وحتى التجارة) قد لا تكون مضمونة النتائج للوافدين الجدد عليها في الوقت الحاضر، خاصة وأن شبح الكساد الكبير يخيم على العالم بأسره.

رابعاً: لأن ما بدأ كأزمة مالية قد يتحول بين ليلة وضحاها إلى أزمة اقتصادية شاملة، تتفشى فيها البطالة عالمياً بشكل كارثي. ومن يتقاضى راتباً شهرياً اليوم قد يجد نفسه من دون أي دخل مالي. وإذا كان قد وضع مدخراته

المحدودة في أي توظيف كان، فإن استرداد سيولته وقت الحاجة الطارئة لن يتم من دون خسائر، هذا إذا لم يخسر استثماره بأسره.

ففي حلقة من برنامج أوبرا ويمفري الشهير كانت مخصصة للحديث عن أحوال المتقاعدين أمام الأزمة الحالية، نصحت خبيرة الاقتصاد هؤلاء وكل الذين يعتاشون على رواتبهم الشهرية، بإعطاء الأولوية لتوفير سيولة نقدية في حساباتهم المصرفية، ولو على حساب أي استثمار مهما كان مغرياً، ووحدت حجم السيولة اللازمة بما يكفي للعيش لنحو سنوات ثلاث مقبلة تقريباً. وما يفيض عن ذلك يمكن استثماره في شراء الأسهم أو العقارات أو توظيفه في أي مجال آخر. وهذه النصيحة تصح في أمريكا كما تصح في أي مكان آخر من العالم حيث يعتمد ذوو المداخيل المتوسطة على مدخراتهم لتوفير مستلزمات عيشهم.

رب ضارة نافعة

وسط سلبياتها الكثيرة، فللأزمة بعض الإيجابيات على متوسطي الحال، مثل انخفاض أسعار العقارات والسلع

من جهة أخرى، بعيدة في أجوائها عن سوداوية ما سقناه حتى الآن، لاحظنا جميعاً كثافة غير مسبوقة للإطلالات الإعلامية التي يقوم بها المسؤولون الحكوميون والخبراء الماليون والاقتصاديون (وخاصة في البلدان العربية) لطمأنة الناس إلى أن هذه الأزمة، رغم كلفتها الباهظة على الأسواق وعلى الدول التي استنفرت احتياطاتها النقدية للحؤول دون الانهيار الشامل، ستكون لها من جهة أخرى آثار عكسية وبطريقة إيجابية على الأسواق، نظراً إلى تبدل المعطيات.

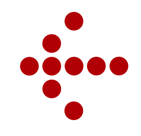
فبعدما عانى الدولار الأمريكي من ضعف طويل العمر ومتزايد تجاه العملات الرئيسة الأخرى، متسبباً بذلك بمتاعب اقتصادية وتجارية كثيرة للدول التي تربط عملاتها بالدولار الأمريكي، أدت الأزمة الحالية في منطقة اليورو وبريطانيا إلى ضعف العملة الأوروبية والجنيه الإنكليزي أمام الدولار الذي يكتسب الثقة به من قوة الاقتصاد الأمريكي الأقوى في العالم. وبموازاة عودة الدولار والعملات المرتبطة به إلى الارتفاع، ضعفت القدرات الشرائية في أوروبا، وفي مسقط رأس الأزمة أمريكا. الأمر الذي أدى بعد تحالفه مع عوامل أخرى إلى تراجع أسعار السلع الأساسية مثل المعادن ومواد البناء وبعض المنتجات الغذائية الأساسية مثل الأرز الذي شهد فورة غير مسبوقة خلال العام الماضي. وهذا ما سيؤدي حكماً إلى تراجع شريحة أوسع من الأسعار، أي إلى تحسين القيمة الشرائية للأجور، وتالياً تحسين مستوى معيشة الأفراد.



وفي هذا السياق، يُجْمِع المراقبون أن من التداعيات اللازمة تراجع معدلات التضخم بنسب كبيرة في دول المنطقة، بعدما كانت كلها تعاني من موجة غلاء فاحش تنوء تحته معظم الفئات الاجتماعية. ففي دبي مثلاً، يقدر أن تتراجع نسبة التضخم من 14% إلى 5%، وفي دولة الإمارات بأسرها من 14% إلى 9%. ونسبة التراجع نفسها مرتقبة في المملكة وباقي الدول العربية، طبعاً مع اختلاف في النسب وفقاً لخصوصيات كل بلد.

وتترافق هذه التوقعات «المتفائلة» بشيء إيجابي مع توقعات صندوق النقد الدولي الذي يرى بأن دول المنطقة ودول شمال إفريقيا ستشهد معدلات نمو مرتفعة بسبب تراجع الأسعار عموماً، وما يتوقع أن يعقبها من ارتفاع في حركة الطلب عند المستهلكين. وفي حين أن عالم المشاريع العقارية والإنشائية الكبرى يتعرض حالياً لبعض الاضطرابات نتيجة تردد المستثمرين، فإن المواطن المتوسط الحال قد يكون معنياً مباشرة بجانب آخر من تطور المشاريع العقارية.

فانخفاض أسعار مواد البناء، مضافاً إلى قلة الطلب على العقارات بسبب أزمة السيولة، يجعل من الوقت الحالي وقتاً للترقب وتحين الفرصة الملائمة عند الشريحة من أبناء الطبقة الوسطى الساعين إلى امتلاك مسكن لمعيشتهم، من المرجح أنه قد يعرض أمامهم بتكلفة أقل بكثير مما كانت قبل عام مضى. ولكن لكي يتمكن المواطن المتوسط الحال من الاستفادة من هذا المناخ، عليه أن يمتلك السيولة اللازمة. ولذا شددنا في أكثر من موضع خلال هذا التقرير على جدوى الحصول على السيولة والادخار. فالأزمة المالية التي تضرب العالم اليوم هي أشبه بعاصفة هوجاء تضرب غابة.. فالأشجار الباسقة (مثل بنك ليمان) اقتلعت من جذورها. أما الأعشاب الصغيرة الطرية، مثل أبناء الطبقة الوسطى في العالم، فعليها أن تنحني، ولا يكفيها أن تنحني، بل عليها أن تتوخى الحذر كي لا تسحقها الأشجار الباسقة خلال سقوطها.





الذهب.. كي يكون فعلاً آمناً



من المفاهيم الاقتصادية الشائعة في العالم بأسره أن معدن الذهب يشكِّل ملجأً آمناً خلال الأزمات، أياً كان نوع هذه الأزمات. وفي الأمر كثير من الصحة، إذا وعى الملتجئ إلى الذهب الشكل السليم والأفضل لشرائه. لأن الكثيرين حصدوا خيبات الأمل عندما اكتشفوا أن قيمة ذهبهم هي أقل مما قالت حساباتهم. والحديث هنا موجه بشكل خاص إلى أبناء الطبقة الوسطى الذين يرتكبون أخطاءً عديدة خلال لجوئهم إلى الذهب.

أولاً: إن شراء الذهب على الورق من خلال مكاتب المضاربة المالية (brokers)، هو اليوم أخطر من أي وقت مضى، لأن مصير هذه المكاتب مجهول في خضم الأزمة الحالية، ومن الممكن أن يعلن أي منها إفلاسه في أية لحظة، وعجزه عن رد أموال المستثمرين.

ثانياً: بعض المصارف العربية يفتح حسابات ادخار بالذهب. وهي تبيع الذهب للمدخر وتشتريه منه بالسعر الرسمي المعتمد في البورصة خلال لحظة الصفقة. غير أن معظمها يشترط حداً أدنى لفتح حساب لا يقل عن خمسين أونصة أو حتى عن مئة أو مئتي أونصة. وهذا ما يفوق حجم مدخرات متوسطي الحال.

ثالثاً: يمكن لمتوسط الحال شراء الذهب فعلاً على شكل سبائك متوافرة في الأسواق بأوزان تبدأ بالغرام الواحد وصولاً إلى عدة كيلوغرامات.. وأن يودعها في صندوق خاص به في المصرف. ولكن هنا، يجب عليه أن ينتبه إلى أن سعر السبيكة الفعلي يتجاوز عند شرائها بشكل ملحوظ السعر الرسمي المعلن في البورصة. وكلما صغر وزن السبيكة، كانت نسبة الفرق كبيرة. فشراء سبيكة تزن نصف أونصة يكلِّف نحو 80 ريالاً إضافة إلى سعرها الرسمي، في حين أن هذا الفارق يصبح 150 ريالاً للأونصة الواحدة وليس 160 ريالاً، ويبلغ الفارق في سبيكة تزن كيلو غراماً واحداً نحو ألف ريال (أي أقل من 30 ريالاً للأونصة الواحدة) وبالتالي من الأفضل شراء الذهب العيني على شاكلة أكبر سبائك تسمح بها ميزانية المشتري.

الأمر نفسه ينطبق على النقود الذهبية. فالجنيهات المعروفة في الأسواق (سعودية وإنكليزية) هي في معظمها من عيار 22 قيراطاً. وتباع وتشترى بالسهولة نفسها التي تباع بها أية عملات. كما أن صغر حجمها (وثمنها) يضعها بسهولة في متناول المدخرين الصغار. ولكن هنا أيضاً يوجد فرق ملحوظ ما بين سعر المشترى وسعر المبيع. وعلى المدخر أن ينتبه إلى وجوب الاحتفاظ بهذا الذهب إلى أن يرتفع سعره إلى ما فوق الحد الذي يغطي سعر شرائه.

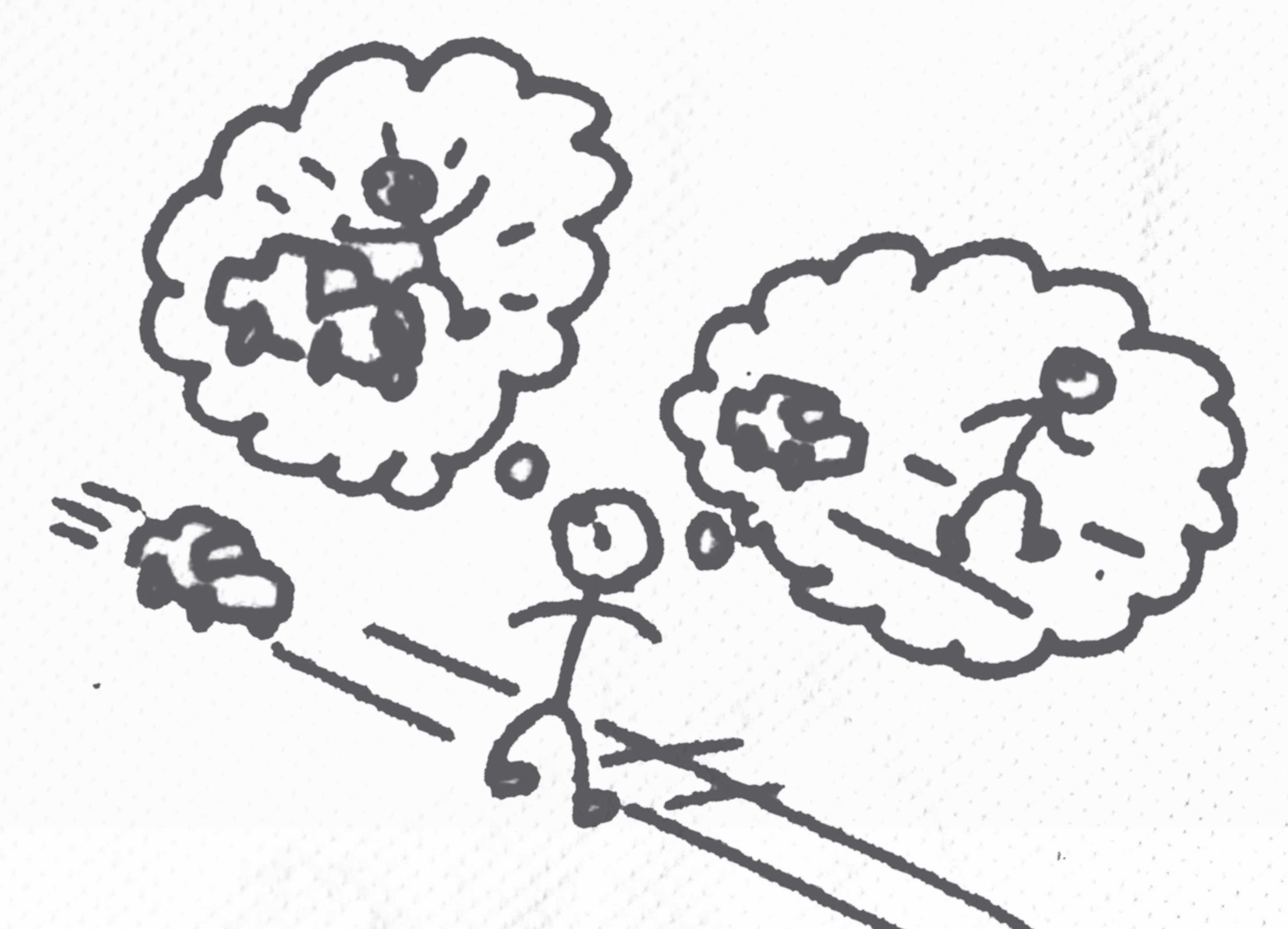
رابعاً: الخطأ الأكبر الذي يرتكبه صغار المدخرين هو في الاعتقاد أن الحلي الذهبية هي ادخار آمن. والواقع أن الحلي الذهبية تبقى محافظة على بعض قيمتها مهما تقلبت الأحوال. وإن كان صحيحاً أن إعادة بيع الحلية الذهبية يمكنه أن يوفر السيولة وقت الحاجة فمن المؤكد أن ذلك لا يعود على صاحب الحلية إلاّ بمبلغ أقل من الذي دفعه لهذه الحلية لأنه عندما اشتراها لم يدفع ثمن الذهب فقط، بل زيادة قد تصل إلى 30% إضافية على ثمن الذهب، بدل «العمل على الصياغة». ولا يوجد تاجر ذهب يشتري الحلي المستعملة آخذاً بعين الاعتبار «قيمة العمل»، لأن ذريعته هي أنه سيعيد صهرها. ولذا يجب انتظار ارتفاع أسعار الذهب بما يزيد عن 30 أو 40%، كي تصبح إعادة بيع الحلي الذهبية مربحة اسمياً. أما عملياً فإن نسبة التضخم خلال هذا الوقت الطويل تكون قد التهمت فعلاً أي ربح اسمي جناه المدَّخر في الحلي.

كثيراً ما يلجأ البعض إلى شرح فكرته المعقَّدة من خلال تناول أول ورقة تقع عليها يده، ليخط رسماً مبسطاً، أو ليجري حساباً سريعاً، أو ليطرح تصوره لحل مسألة ما مهما كان نوعها. هذا الفعل البسيط أصبح مادة لدراسات علمية كثيرة، تناولت جدواه وأهميته، وتكاد تُجمع على أنه في حالات كثيرة يوضح ويؤكد بشكل أفضل بكثير من الدراسات والبيانات الدقيقة المعمقة والمفصَّلة.

فاطمة الجفري تعرض آخر ما توصلت إليه الدراسات في تقييمها للدور الذي يؤديه هذا النمط من عرض الأفكار وإجراء الحسابات واقتراح الحلول، بعدما حظي بأسماء عديدة منها: على ظهر المظروف، على ظهر المنديل، على صفحات الكشكول، أو بكل بساطة «على ظهر أية ورقة»..

نظريات وحلول حسابية من كل نوع..

على ظهر الورقة



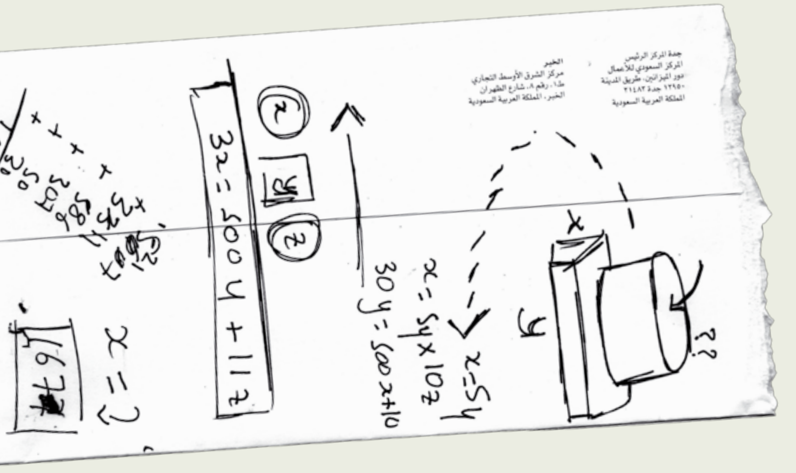


كان العمل جارياً على قدمٍ وساق في عام 1873م على إنشاء جسر إيدس الفولاذي، الذي يقطع نهر المسيسبي ليربط بين ولايتي ميسوري وإلينوي في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان حر أغسطس القائظ يكتم أنفاس العاملين، بينما المهندس الشاب ثيودور كوبر يقوم بجولة على ما تم إنشاؤه حتى ذلك الوقت من الجسر. يده الممسكة بقلم الرصاص تشير إلى أحد البنَّائين ليقترب ويرى خللاً بسيطاً يود المهندس الإشراف على تقويمه، إلا أن قدمه زُلت بحماسةٍ، فاختل توازنه، وسقط من أعلى الجسر على ارتفاع تسعين قدم، متجهاً إلى النهر. خلال سقوطه الذي استغرق لحظات معدودة، قام كوبر بسرعة بتقدير سرعة سقوطه التي ربما بلغت خمسين ميلاً في الساعة، وبناءً عليها حسب مقدار القوة التي سيرتطم بها جسمه بالماء، ثم صمم الشكل الذي سيخفف من هذا الارتطام، والذي يجب على جسده اتخاذه إن أراد النجاة، وبالفعل، اتخذ شكل الكرة، وارتطم بالماء من دون أن يصاب بأذى بفضل حساباته. وعندما انتشله قارب الإنقاذ، وجد طاقم القارب يده لا تزال متشبثة بقوة بقلم الرصاص الذي كان يشير به إلى العامل قبل سقوطه!

حسابات صغيرة لمسائل كبرى

ما قام به كوبر هو مثال لما يقوم به المهندسون دائماً أثناء ممارستهم لمهنتهم. وكما في حالة الطوارئ التي وجد فيها كوبر نفسه عند سقوطه، تتجسد مثل هذه الحسابات والتصاميم الناتجة عنها في ذهن المهندس خلال لحظة. ولكنها عادةً ما تكون نتيجة لتفكير مسبق ومدروس قد يكون ركَّز على تحليل المهمة أمامه لأيام أو لسنوات. وفي كل الحالات، فإن اختيار العمليات الصحيحة والرؤية الناتجة عنها لا تتأتى إلا بعد الخبرة، وممارسة مثل هذه العمليات الحسابية لآلاف المرات قبل هذه المرة التي قد يكون فيها الفرق بين العملية الحسابية الصحيحة والأخرى الخطأ، فرقاً بين الحياة والموت. قام كوبر بإجراء حساباته السريعة من دون الحاجة إلى برنامج كمبيوتر أو آلة حاسبة، وهذه الحسابات يستطيع أن يقوم بها أي مهندس ممارس على ورقة في كشكول خلال دقائق، أو حتى شفهياً، عندما يشرح لعميله رؤيته للبناء الذي سيقوم على الأرض الخلاء، ومن هنا أتى التعبير «على ظهر المظروف» أو «على ظهر المنديل»، ليعبر عن تلك العمليات الحسابية البسيطة-المعقدة التي يجريها علماء الفيزياء والرياضيات و المهندسون في دقائق



ليشرحوا لأنفسهم أو لمن معهم الوجهة التي يرون عملهم متجهاً إليها على أقرب ورقة متوافرة لديهم، سواء أكانت هذه الورقة ظرفاً وجدوه في جيوبهم، أو منديلاً أخذوه من علبته. وهذه المدونات الصغيرة هي أكثر بكثير من أن تكون مجرد تخمين، إذ أنها تعتمد على وجهة نظر متينة، وأساس من الأرقام والحقائق، ولكنها في الوقت نفسه أبعد من أن تكون إثباتاً لا يقبل المناقشة. وهذا التعبير قد ينطبق على عمليات حسابية أو تصاميم أجريت بالفعل على ورقة ما، أو ظهر علبة منديل على طاولة النقاش، أو حتى تلك التي لم تكتب بالفعل بل ألقيت شفهياً، في مراحل مبكرة جداً من بداية العمل، أو حتى بداية التفكير في العمل.

أجرى المهندسون هذه العمليات الحسابية منذ القدم، إلا أن التعبير الأمريكي «على ظهر المظروف»، والذي يقابله التعبير البريطاني «على ظهر علبة السجائر»، ظهر مترافقاً مع عالم الذرة الإيطالي إنريكو فيرمي الذي كان يؤكد على أن المعادلات العلمية المعقدة يمكن حلها تقريبياً بمجموعة من الحسابات البسيطة، ولإثبات وجهة نظره طور سلسلة من أمثلة عن عمليات حسابية مبسطة سميت «أسئلة فيرمي» أو «حسابات ظهر المظروف» التي تقدم حلولاً لمجموعة معقدة من المسائل الفيزيائية التي صممها فيرمي خصيصاً لإثبات وجهة نظره. ومن الفيزيائيين الذين استهوتهم فكرة حسابات ظهر المظروف نذكر العالم الأمريكي الهنغاري الأصل فيكتور ويسكوبف، الذي قدَّم مطويةً بعنوان «الفيزياء الحديثة من وجهة نظر مبدئية»، وفي هذه المطوية يقوم ويسكوبف بحساب الحجم التقريبي لذرة هيدروجين ونجم وجبل.. وذلك باستخدام المبادئ الحسابية الفيزيائية البسيطة التي يجيدها طالب الفيزياء في سنته الجامعية الأولى.



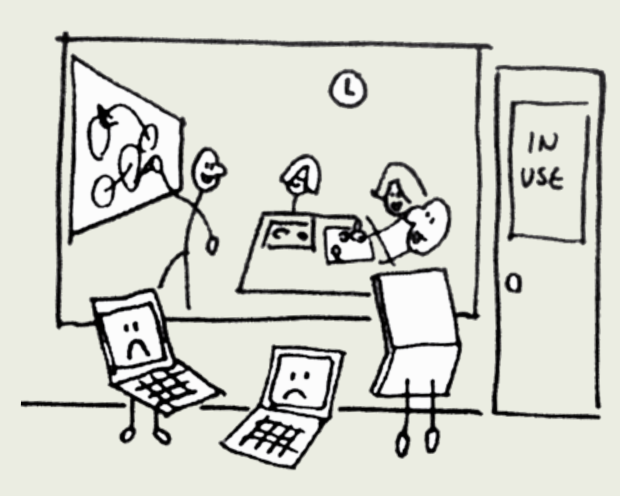
أن ترى الكل

بالإضافة إلى ما تتميز به هـذه العمليات من سهولة الفهم وتلخيص الفكـرة وإثباتهـا، فعمليـات ظهـر المظـروف، أو «عمليـات الكشكـول» إن جاز لنـا تسميتها بهـذا للقارئ العربي، تتميز أيضاً بأنها قـادرة على التركيز منذ اللحظة الأولى علـى الفكرة المبتكـرة أو المشكَّلة ضمـن المشروع المقتـرح، وعـدم الانشغال بغيـر الضروري مـن التفاصيل الأخرى التي يمكـن أن تُقرر لاحقاً نتيجةً للتصميم أو الحل الذي يقترحه الكشكـول. فعندما أتى أحد المعاونين ليخبر المهندس البريطانـي جايمس ناسيمـث أن القطعة التي يعمل عليها البناؤن أكبر من أن تنجـز بواسطة المطارق المتوافرة فـي أواخر القرن التاسع عشر، فكر للحظات، ثـم رسم علـى ورقـة كانت أمامه تصميماً جديداً تماماً لمطرقة تعمل بقوة البخار. وإلـى أن أصبحت المطرقة البخاريـة جاهـزة للعمـل، لـم يخرج العاملون على تصميمها عـن الرسم الأولي الذي رسمـه ناسيمـث، وهذا ليـس غريباً، فعادةً مـا تكون وجهة النظـر الأولى التي قدمها المهندس علـى ظهر الورقة حلاً لمشكلـة أو تطويراً لخطة هـي الأساس الذي تبنى عليه حسابات أخرى لتكتمل تفاصيل العمل.

> **يستطيع العقل أن يستخلص المعرفة بطريقة حدسية معتمداً على أكوام من الخبرات التي تراكمت فيه خلال سنوات**

في منتصـف ثمانينيـات القـرن الماضي، كان الفولاذ بدأ يظهر أخيراً كمادة للبناء في بريطانيا. وأرجـع أحد المحررين في مجلـة «الهندسـة المدنية» اللندنيـة السبـب إلـى أن المهندسيـن بـدأوا، أمـام فتنة الفـولاذ، في وضـع تصاميم أولية تعتمد فـي جوهرها على الفولاذ كمادة للبناء، أما الأسمنت الذي لطالما سيطر على أدمغتهم فقد تراجع إلى الوراء قليلاً ليفسح المجال لغيره.

والدليل على أن نهضـة الفولاذ تعود إلى استعانة المهندسين بـه كلمـا فكروا في تصميـم أولي جديد، كما يقـول المحرر، يجـده القارئ فـي حديـث صحافـي لرئيس جمعيـة الفولاذ البريطانيـة نُشر فـي نهايـة السبعينيات، توضيحـاً يقول إن مشكلـة الفـولاذ تكمن فـي أن التصميم الأول الـذي يشرحه المهندس للعميل على علبة السجائر هو تصميم إسمنتي. وإن



كان التصميـم المرسوم على علبة السجائر بالإسمنت، فثق، أن البنــاء سيكون بالإسمنـت أيضاً. ما إن حـل الفولاذ محل الاسمنت في تصميم علبة السجائر، حتى هُزم الإسمنت على الأرض، وصار الفولاذ هو المادة الأولى للبناء في ذلك العقد. وإن كنـا لا نرى الساعات التي أنفقها المهندس أو العالم على الحـل الذي خطه قلمه في لحظـات أمامنا، وكأنما الحل كان نتيجـة مباشرة لمحادثتنا معه، أو تفاعل لحظي لفكرة طارئة مـن حيث لا يدري ولا ندري، فهذا لا يعني أن ما نراه هو فعلاً ما حدث. وكما يقول الكاتـب الأمريكي مالكولم جلادويل في كتابه «التفكير اللمَّاح في طرفة عين»، فإننا نغفل عادةً حقيقة بسيطـة، وهي أن القرارات المتخـذة بسرعة كبيرة قد لا تقل جودة عن تلك المتخذة بحذر شديد وبعد عدة مداولات.

هذه «القـرارات» التي قد تبدو سريعة هـي ذروة عمل لعقل متفـوق شحـذت مهاراتـه سنـوات عديـدة مـن الممارسة والالتفات إلى ممارسات الغير أيضاً للتعلم منها، سواءً أكان هذا التعلم واعياً أم لا.

إنها قناة من القنوات التي وُهبت للعقل البشري، بحيث يستطيع أن يستخلـص خلاصـة المعرفة بطريقة حدسيـة معتمداً على أكـوام من الخبرات التي لا يمكن التنبؤ بأيها لعب دوراً حقيقياً فـي الوصـول إلى هـذه الخلاصـة. وحينمـا يضـع المهندس تصميمـه الأولي فـي دقائق أمام الشخص الآخـر، فإنه يختار بحكمة وإن كانـت سريعة، من خيارات عديدة تظهر أمامه في لحظـات، وعلى أساسها يمكن أن يتغيـر شكل التصميم كاملاً أو يتعرض للفشل. ولكن في أحيان أخرى، قد يظهر التصميم مكتمـلاً أمـام مبتكره بشكـلٍ خاطـف، إلا أن التفكيـر فيه قد يستغرق سنوات وسنوات من البحث، ومحاولة الوصول إليه.



كان جـون ستيفنز، المبتكـر الأمريكي، مغرماً بفكرة تطوير القـارب البخاري فـي القرن التاسع عشـر، وأمضى سنوات يقلـب فـي الاحتمـالات، دون أن يصـل إلى ابتـكار حقيقي لمحـرك متطور يرضـي شغفه. وفجـأة، استيقظ في صباح



مبكر على فكرة مبتكرة تعتمد على وصل مجموعة من أجزاء المحرك بطريقة مختلفة، ولأنه لم يجد ورقة أو قلم رصاص قريباً منه وخشي أن تفلت الفكرة، قام برسم التصميم بإصبعه على ظهر زوجته المستلقية على السرير بجانبه، ثم سألها عندما استيقظت متذمرة: «هل حزرت ما أرسم؟!» فأجابت سريعاً: «نعم يا سيد ستيفنز، كنت ترسم أحمقاً!».

ظهر الورقة في مواجهة الكمبيوتر

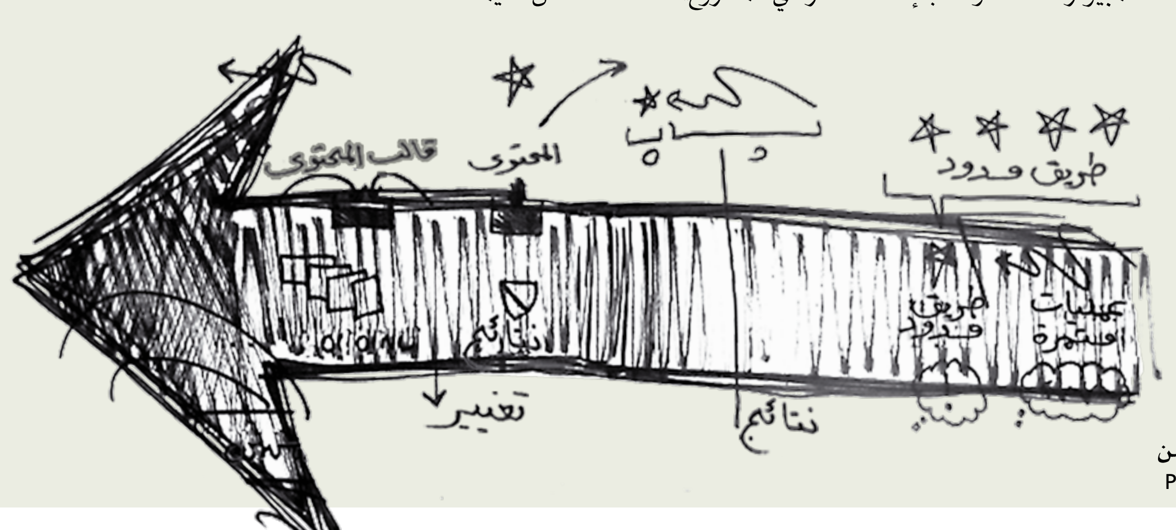
وبينما يتشبث البعض برسوماتهم الأولى عاطفياً، إلا أن المهندس الحذر يرفق تصوره بحسابات أولية تثبت إمكانية تحول التصميم لحقيقة، أو توضح خللاً ما يظهر عقمها. ورغم التطور الذي شهدته برامج الكمبيوتر التي تنتج تصاميم تحاكي ما يفكر به المصمم، إلا أن هذا لم يلغ أهمية هذه الحسابات الأولية التي يمكن أن تجرى بقلم الرصاص، والتي تقدم أرقاماً تقريبية يمكن للمهندس على أساسها تقدير مدى واقعية تصميمه.

يقول المهندس ماريو سالفادوري مدير إحدى الشركات الهندسية الاستشارية في موقعه على الإنترنت: «عندما يأتيني أحد المهندسين في شركتي بملايين الأرقام التي ولّدتها عمليات حسابية كمبيوترية، أبحث عن رقم واحد يخبرني إن كان هذا التصميم صالحاً للتطبيق أم لا، كالرقم الذي يذكر لي كم درجة يمكن لرأس البناء أن يميل مع الريح، فإن قال الكمبيوتر 7، والعملية الحسابية التي أجريتها على ظهر المظروف والتي لم تستغرق أكثر من 30 ثانية قالت 8 أو 6 درجات، فأقول: هيّا لننجز المشروع. أما إن قال الكمبيوتر 8 وقالت عمليتي الحسابية 2، أعرف وقتها أن حسابات الكمبيوتر خاطئة، وأطلب إعادة النظر في المشروع».

ويخبرنا منظمو الألعاب الأولمبية في صيف 1984م لقصة أخرى، مفادها أن إحدى شركات الكمبيوتر قدَّمت برنامجاً للمنظمين لتولي عملية توزيع البريد. كان نجاح البرنامج يعتمد على قدرته على إرسال البريد بنفس السرعة التي يقوم فيها المسؤولون بإدراج المظاريف البريدية فيه. ووفقاً لما يقوله جون بنتلي من شركة الكمبيوتر المسؤولة، فإن البرمجيين قدموا عرضهم لإدارة الشركة، فقام أحد المديرين بالتأكد من صحة البرنامج بنفسه، فأظهرت حساباته الأولية أن البرنامج ناجح بشكله الحالي فقط إن كانت الدقيقة الواحدة مكونة من 120 ثانية! إذ أنه يأخذ ضعف الوقت الذي يأخذه المسؤولون لإدراج المظاريف البريدية. وبعملية حسابية بسيطة ظهر الخلل، فقام المصممون بتعديل البرنامج، وقبله منظمو الحدث وحقق نجاحاً ملحوظاً في ذلك الوقت.



ومع كل الحديث عن أهمية ما يُكتب على ظهر المظروف أو في الكشكول، فإن الأمر في مجمله يعتمد أيضاً على جيش صغير من المحللين الذين يحسبون واقعية التصميم الأولي، ويتحققون من تفاصيل التفاصيل التي لم يشغل المصمم الأول رأسه بها، ويطرحون الأسئلة الصحيحة في الوقت الصحيح ليتأكدوا من أن الإجابات مضمونة أو متوقعة على الأقل. فمشروع مثل مولد جديد للطاقة النووية قد يأخذ سنوات وسنوات من النقاش والجدل، حتى وإن بدت تصاميمه الأولية مذهلة في بساطتها وواقعيتها وإقناعها لمن يسمع ويرى ويتخيل. وهذا الجيش من المحللين، ينضم إلى جيوش أخرى من مقاولين وعمال بناء ومهندسي صيانة وسلامة، وغيرهم، ليقوم البنَّاء بما أريد له في النهاية على أسس سليمة.



الرسمة أخذت من Flickr، وهي من مجموعة رسومات Paul Hughes

المثلث يكفي ويزيد

كان هيرب كيلر محامياً في نيوجرسي عندما قرر أن مسقط رأس زوجته في ولاية تكساس، يشهد نمواً في الأعمال يسمح له بالحصول على فرص عمل ملائمة، فحزم حقائبه وانتقل مع عائلته إلى سان أنطونيو. وفي ظهر أحد أيام العام 1967م كان يجلس مع رولين كينج، رجل الأعمال الذي كان على شفير الافلاس لفشل خطوط الطيران الإقليمية التي استثمر فيها مدخراته.

كان الاجتماع يهدف إلى الانتهاء من المعاملات الرسمية لإغلاق خطوط الطيران، وعلى طاولة النقاش في مقهى «أنتوني» الفاخر، كان واضحاً أن الأوراق والاستمارات لم تكن محط تركيز كينج، فالمغامر لم يكن متقبلاً بعد لفكرة أن تغادر طائراته الجو، وأسرَّ بهذا لكيلر الذي كان مهتماً بمعرفة الأسباب الرئيسة التي أودت بمشروع طموح كهذا للفشل.

يعتمد التفكير البصري على الرسوم التوضيحية المبسَّطة، التي تزداد أهميتها بازدياد تعقيدات القضية التي تتناولها

شرح كينج الأسباب، ثم أمسك بمنديل ورقي من مجموعة المناديل التي وضعها النادل على الطاولة، ورسم مثلثاً سمى كل رأس من رؤوس زواياه بمدينة رئيسة من مدن تكساس: سان أنطونيو/ دالاس/ هيوستن. بدلاً من أن يدير خطوط طيران صغيرة تركِّز على السوق الراكدة للمدن الصغيرة في المدينة، كان على كينج كما كان يشرح لكيلر على ظهر المنديل، أن يخدم تنقلات رجال الأعمال والأهالي بين المدن الكبرى الثلاث دون أن يحاول الوفاء بمتطلبات ضئيلة في أرباحها ثقيلة في واجباتها لكل المدن الصغيرة التي تتضمنها الولاية.

فالخطوط المباشرة بين المدن الثلاث تسمح للمسافرين بإيجاد رحلات سهلة وميسَّرة دون أن تتشتت موارد شركة الطيران المحدودة بين خطوط طيران معقدة ومتشابكة. ولأن المساحة التي تعمل فيها هذه الشركة الافتراضية صغيرة، فهي لن تخضع لتنظيمات مجلس تكساس للطيران الذي يفرض قيوداً مالية تضيِّق الخناق على شركات الطيران.

يقول الراوي إن حماس كينج كان يتصاعد كلما شرح فكرته على المثلث البسيط الذي يصل بين المدن الثلاث، وقاده حديثه مع كيلر إلى إعلانه رغبته في خوض المغامرة مرة أخرى، بل سمى فكرته التي أثبتت فعاليتها أمامه على ظهر المنديل خطوط «ساوث ويست للطيران». استمع كيلر بصمت متيقظ إلى إعلان كينج، وفي النهاية وافقه على أمرين: الفكرة مجنونة، ولكنها في نفس الوقت، لامعة. وبعد أكثر من ثلاثين سنة، لا تزال شركة «ساوث ويست» التي قامت على الشراكة بين كينج وكيلر تجني أرباح المثلث بتتابع قلَّ نظيره في عالم شركات الطيران.

التفكير البصري

دان روم، مؤلف كتاب «على ظهر المنديل» الصادر مؤخراً عن دار نشر «بورتفوليو»، يعتمد على هذه القصة بشكل أساسي لشرح أهمية التفكير البصري كما يسميه، وهو التفكير الذي يعتمد على تمثيل العناصر الرئيسة لفكرة أو مشكلة ما بالرسوم التوضيحية المبسَّطة، بحيث تتجرد الفكرة من كل التفاصيل غير الضرورية ويفك تشابك عناصرها ليؤسس نتيجةً لذلك مخططاً يضع القاعدة التي ينطلق منها الحل أو الابتكار.

وكلما كانت المشكلة التي تواجهها صعبة وحلها غير مرئي، سواءً كانت نزاعات سياسية أو مسائل تجارية أو تعقيدات تقنية أو حتى تحديات شخصية، صلحت أكثر للعمل عليها بواسطة الرسم، حيث إن الصور التوضيحية (أشكال هندسية كالدائرة والمربع، خطوط وأسهم، أناس وأدوات، وماشابه ذلك) تمثل مجموعة من المعلومات والمفاهيم المعقَّدة بحيث تجعلها سهلة للفهم والمتابعة من قبل الآخرين. وأول ما يركِّز عليه روم في كتابه هو أن حل المشكلات بالصور ليس حكراً على أولئك الذين يجيدون الرسم، فإن كنت تجيد الإمساك بالقلم ورسم الأشكال البسيطة من مربع ووجوه دائرية وغيرها، فأنت مؤهل لأن تنضم إلى فريق المفكرين البصريين.

بين الفأرة واليد: الخيار سهل

ولكن ما الفرق بين المفكر البصري، الذي يلتقط أقرب

ورقـة إليه ويرسم عليها توضيحـاً للمشكلة، وبين الشخص الذي يستعيـن بالرسـوم الجرافيكية علـى الكمبيوتر مثلاً ليدرجهـا ضمـن عرض الـ «باور بوينـت» أو الـ «كي نوت» وغيرهما من البرامج الشبيهة؟

الفـرق هو فـي أن التفكير البصري الفعـال لا يتوجه بشكل أولـي إلى الجمهـور كي يقنعـه بفكرة ما. فالغرض الأولي مـن التفكير البصـري هو تجسيد فكرة مـا أمام صاحبها، وربمـا إعـادة تنظيمهـا أو ابتكارها فـي أحيان أخـرى. إن أكمـل الرسم التلقائي مهمته في هـذا الإطار، انتقل إلى المهمة الأخرى وهي التوجه إلى الجمهور. وهنا، فإن استخدام المنديل والقلم، أو الورقة وقلم الرصاص، أو حتـى السبـورة البيضـاء وأقلامهـا، يعطـي كل مـن يـرى ويسمـع العرض احساسـاً بفوريـة الفكرة ومباشرتها مـن دون أن تفسد جدتها الاستعانة بأطراف دخيلـة كبرامج الكمبيوتر، وتسمح للجمهور سواء أكان على طاولـة مطعم فـي دعوة عشـاء غير رسميـة، أو حضور في قاعة كبرى، بالمشاركة الفعالة العفوية ودون حسابات.

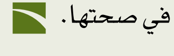
إن الخطـوط المائلـة التـي تنضـح بإنسانيـة كاتبها تفسح المجال للمناقشة والتعليـق، وفيها لمحة من طرافة تدفعنا إلـى الاهتمـام بهـا، تختفـي تماماً بمجـرد ظهـور أشكال الكمبيوتـر المحترفة. كما أن تلقائية يـد الرسام وعفويتها بالإضافـة إلى خشونتها وعـدم ترتيبها في حد ذاتها عبارة عـن دعـوة مفتوحـة للإضافة والحـذف وتحسيـن الفكرة وتطويرها. كما أنه ليس هناك أسرع من «السكتش» للإبداع والتغييـر، والخطأ مسمـوح طوال الوقت، وحلـه بسيط، إذ يقتصـر على خطـوط متشابكة أخرى لحذفـه من الصورة وطغيـان مسحـة ثانيـة مـن الحريـة علـى ورقـة النقاش. بالإضافـة إلـى أن العنصـر الآخر الذي تسمـح به الرسوم التلقائيـة على ظهر المنديل أو ما تتجـه ناحيتها هو دوران الحديـث المباشـر دون الاستنـاد، أو الاختبـاء ربما، خلف النقـاط المدونة بعنايـة، أو بطاقات الفهرسـة التي تضفي على المحادثة جواً روتينياً مملاً.

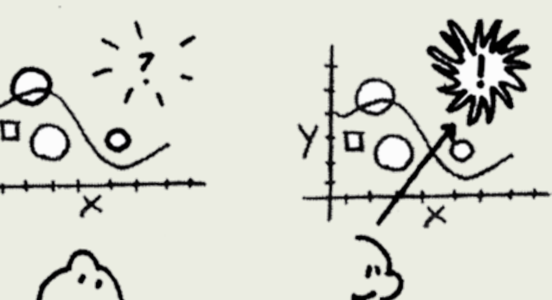
إن أهـم ما يمكننـا أن نتذكره في مثل هذه النقاشات هو أن ترتيـب العرض وجماله ودقته هو آخر ما يمكن أن نهتم به. فالمهـم هو في قدرتنا على التفكيـر البصري براحة وثقة، وإشراك الآخرين فيه.

على هامش الصفحة

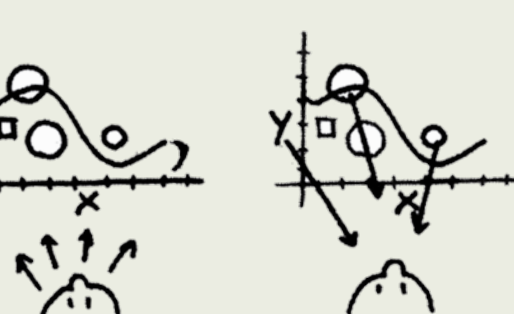
تصاميـم وحسابـات ظهـر المظـروف/ المنديـل/ علبـة السجائر/ الكشكول لديها ما يقابلها من التعابير والمفردات في عدد من المهن الأخرى، لوصف تلك المهارة والقدرة على قراءة أدق الأجزاء بعمق، ومن ثم الوصول إلى خلاصة عامة تربط الأجزاء وتقدِّم حلولاً مبتكرة لم تخطر بالبال قبلاً.

في الجيش مثلاً، يقال للجنرالات الذين يقدمون على اتخاذ قرارات فورية صحيحة بناءً علـى قراءتهم العاجلة لميدان القتـال أن لديهـم «النظـرة الخاطفة»، بينمـا يسمى لاعب كـرة السلـة الذي يـدرك كل ما يدور حوله ويقـوم بالحركة الصحيحة من مكانه بينما يوجه الآخرين لما ينبغي عليهم أن يفعلـوه «عقـل الملعب»، وفـي علم دراسـة الطيور، يقال إن مـن يستطيع أن يتبيـن جنس الطائر مهما كان نادراً من نظـرة واحـدة بينما هو طائر فـي السماء، أنـه يستطيع أن يلتقط «جوهر» الطائـر. وقد نستطيع القول إن كل أصحاب المهـن، على اختـلاف طرقهم، قد اتفقوا علـى قبول قدرة المتمرس منهم على إصدار أحكام صائبة أو حلول مبتكرة في وقت قصير، وإن كانت الهندسة والرياضيات والفيزياء ومـا شابههـا مـن علوم قـد اعتمدت علـى حسابـات ظهر المظروف، بينما فضل أصحاب المال والأعمال الحلول التي تنتجهـا رسوم ظهر المنديل، فـإن الأمر في بدايته ومنتهاه يعتمد أولاً على الإيمان بأن عفوية الفكرة ليست سبباً للشك في صحتها.









في شهر أكتوبر أعلنت مؤسسة نوبل أسماء العلماء الفائزين بجائزتها في فروعها الثلاثة الطب والكيمياء والفيزياء. وفي العاشر من ديسمبر يقام في العاصمة السويدية الاحتفال الضخم الذي يسلم فيه ملك السويد الجائزة للعلماء الفائزين. ومابين الإعلان والاحتفال، يخصص باب «زاد العلوم» صفحتيه في هذا العدد، لمتابعة هذه الجائزة العلمية رفيعة المستوى، والأسماء التي حصدتها لهذا العام.

1 جائزة الطب.. البحث عن الفيروسات

«أتمنى أن تخلق هذه الجائزة مزيداً من الوعي .. أن تلفت مزيداً من الانتباه، للدور الذي تلعبه الفيروسات في الإصابة بمرض السرطان.»

هارولد زيرهاوزن .. جائزة نوبل في الطب 2008



كرِّمت جائزة نوبل هذا العام حدثين مهمين في تاريخ اكتشاف الإنسان للفيروسات ودورها في إصابته بالمرض. وقد فاز بنصف الجائزة العالِمْ الألماني هارولد زيرهاوزن (مركز أبحاث السرطان فيِ هايدلبرج بألمانيا)، وتقاسم نصفها الآخر العالمان الفرنسيان فرنسواز باريه سينوسي (قسم علوم الفيروِسات بمعهد باستير في باريس)، ولوك مونتانييه (المؤسسة العالمية لأبحاث مرض الإيدز في باريس).

قادت أبحاث هارولد زيرهاوزن المكثفة على عائلة الفيروسات المعروفة باسم فيروسات (HPV) إلى اكتشاف العلاقة بين العدوى بها، والإصابة بمرض سرطان عنق الرحم. وشكلت هذه النتيجة دفعة كبيرة في الاتجاه الذي يربط بين العدوى الفيروسية والإصابة بأنواع مختلفة من مرض السرطان، وهو الاتجاه الذي يرى العلماء أنه يشكِّل مفتاحاً مهماً في معرفتنا بالمرض ومن ثم قدرتنا على علاجه أو منعه.

أما فرنسواز باريه سينوسي ومونتانيه، فقد جاء اكتشافهما لفيروس فقدان المناعة المكتسبة والمعروف الآن باسم (HIV) بعد عامين فقط من ظهور أول تقرير عن حالات الإصابة بمرض لم يكن معروفاً قبل ذلك الوقت هو مرض الإيدز. كان الإيدز وقت ظهوره مرض مجهول السبب، ولم يتمكن العلماء من معرفة الفيروس المسبب لهذه العدوي، إلا أن أبحاث سينوسي ومونتانيه قد نجحت في الكشف عن الفيروس المسؤول حيث قاما بعزله من مجموعات مختلفة من المرضى، وتوصلا إلى فهم الآلية التي يقوم بواسطتها بتدمير الخلايا المناعية في جسم الإنسان.

2 جائزة الفيزياء.. أسرار تركيب المادة

«يبدو أننا الآن على أعتاب الدخول إلى عهد جديد في علم الفيزياء»

ماكوتو كوباياشي .. جائزة نوبل في الفيزياء 2008



وجهت الجائزة الاهتمام هذا العام للأبحاث التي تكشف عن طبيعة بنية وتركيب المادة، والقوى الطبيعية التي تحكم التفاعل بين وحداتها الأساسية. وقد فاز بنصفها يويتشيرو نامبو (معهد إنريكو فيرمي بجامعة شيكاجو في الولايات المتحدة الأمريكية)، وتقاسم نصفها الآخر العالمان اليابانيان ماكوتو كوباياشي (منظمة أبحاث المسرعات عالية الطاقة في اليابان)، وتوشيهيدي ماسكاوا (معهد يوكاوا للفيزياء النظرية بجامعة كيوتو اليابانية).

وضع يويتشيرو نامبو صيغة حسابية تضيف لمعلوماتنا عن هذا الأمر، وتعدِّل في النموذج الذي اعتمده العلماء لتفسير تركيب المادة والقوى المؤثرة فيها. أما أبحاث كوباياشي وماسكاوا فقد أتت بعد وصولهم في عام 1972م إلى فرضية تقول بوجود مجموعة من الجسيمات الإضافية التي تدخل في تركيب الذرة، غير تلك التي كانت معروفة في ذلك الوقت. كانت فرضيتهما تؤكد وجود ستة أنواع من جسيمات تعرف باسم الكواركات، وليس أربعة فقط كما كان معروفاً من قبل. لكن كان عليهما أن ينتظرا حوالي ثلاثة عقود حتى تثبت التجارب صحة فرضيتهما. وقد تم ذلك حين تأكد العلماء بالنتائج العملية من وجود هذه الجسيمات، في منتصف التسعينيات من القرن العشرين.

3 جائزة الكيمياء.. البروتين الأخضر المضيء

«حين سمعت للمرة الأولى في تلك الندوة العلمية عن هذا البروتين، قلت لنفسي: سيكون هذا رائعاً، سأتمكن من مراقبة ما بداخل خلايا حيوان حي!»

مارتن تشالفي .. جائزة نوبل في الكيمياء 2008

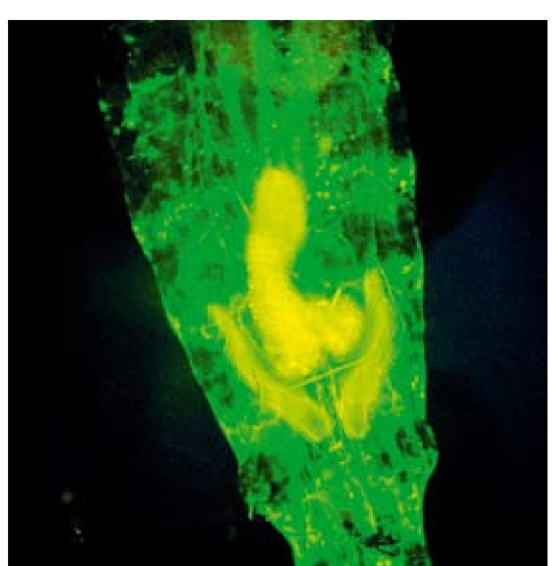
جاءت جائزة نوبل للكيمياء هذا العام لتكرِّم ثلاثة من القائمين على واحد من الإنجازات العلمية المهمة في مجال الكيمياء الحيوية، والذي يُعد مثالاً على الطريقة التي يمكن بها أن تقود الأبحاث العلمية في مجال معيَّن إلى الوصول إلى تطبيقات مهمة في مجال آخر. إذ أدى فهم ومعرفة الطريقة التي تنتج بها بعض الكائنات البحرية الضوء، إلى التوصل لمجموعة من الأدوات التي يمكن بها مراقبة ورؤية العمليات الحيوية التي تحدث داخل الخلايا وتتبعها بدقة ووضوح. وقد فاز بالجائزة كل من أوسامو شيمومورا (معمل أبحاث الحياة البحرية في ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية)، ومارتن تشالفي (جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية)، وروجر تشن (جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية)

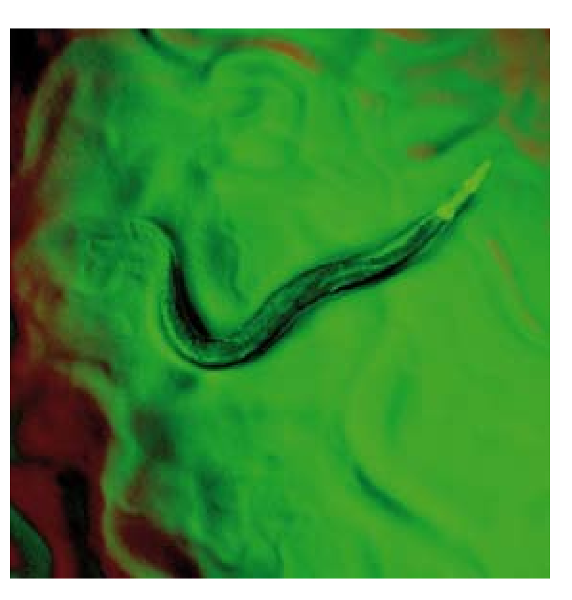
جذبت الكائنات البحرية المضيئة انتباه أوسامو شيمومورا عالم الكائنات البحرية بجمالها واختلافها. وساقه فضوله العلمي لمعرفة السبب، إلى اكتشاف نوع من البروتين هو المسؤول عن هذه الظاهرة. أطلق شيمومورا على هذا البروتين اسم البروتين الأخضر المضيء أو ما يعرف اختصاراً باسم GFP.

بعد هذا الاكتشاف بعدة سنوات، كان مارتن تشالفي حاضراً في ندوة علمية تمت فيها مناقشة مجموعة من الأبحاث حول البروتين الأخضر المضيء. واستحوذ الأمر على اهتمامه، إذ خطرت له فكرة يستطيع بها أن يستفيد من هذا البروتين في أبحاثه. وكانت أبحاث تشالفي البعيدة تماماً عن علم الكائنات البحرية، تدور حول البروتينات والعمليات الحيوية التي تتعرض لها جزيئاتها داخل الخلايا. قام تشالفي «بحياكة» هذا البروتين المضيء مع البروتينات الأخرى التي يقوم بدراستها، فأصبح تتبعها سهلاً. فكل ما عليه هو أن يبحث عن مصدر الضوء داخل الخلية ويتبعه.

وجاءت بعده أبحاث تشن لتضيف آليات جديدة لهذه العملية. فبدلاً من الاكتفاء باللون الأخضر، حصل تشن عى طيف واسع من الألوان عن طريق إدخال تغييرات خاصة على جزئ البروتين المضيء. وبلعبة الألوان التي حصل عليها، أصبح بإمكانه دراسة عدد من البروتينات داخل الخلية الواحدة في نفس الوقت، كل بروتين له لونه الخاص، وكذلك دراسة أدائها الجماعي وتفاعلها مع بعضها.

وتقديراً لهذا المسار العلمي المميَّز، تم منح الجائزة لهؤلاء العلماء الذين وقفت جهودهم خلف الاكتشاف الأول لهذا البروتين، ثم خلف سلسلة الخطوات المهمة التي أدت لاستخدامه كأداة لتتبع البروتينات داخل الخلايا الحية والكشف عن الكثير من أسرارها.





قصة ابتكار

قلم الرصاص بالممحاة

ابتكار.. مهما قالت المحكمة العليا

عرفت بريطانيا قلم الرصاص في منتصف القرن السادس عشر، ومعه عرفت الممحاة. إلا أن الاثنين بقيا منفصلين حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، حينما بدأت شركة فيبر الألمانية بإنتاج أقلام رصاص تلصق في نهاياتها قطع صغيرة من المطاط تستخدم كممحاة لما يكتبه قلم الرصاص.

ولكن بينما كان ابرهارد فيبر صاحب الشركة مستمتعاً بالنجاح المحدود الذي حققه ابتكاره آنذاك، وصله في العام 1862م استدعاء قضائي لأن المبتكر الأمريكي جوزف ريكيندورفر أقام دعوى عليه بتهمة الترويج لمنتج ببراءة اختراع باطلة، ذلك أن براءة الاختراع التي يمتلكها فيبر يعود تاريخها إلى بداية الستينيات من القرن التاسع عشر بينما يمتلك ريكيندورفر براءة اختراع أخرى للابتكار نفسه، سجلت في مارس عام 1858م.

لم يكن ريكيندورفر هو صاحب براءة الاختراع الأولى التي أقام على أساسها الدعوى، وإنما كان مبتكراً أمريكياً آخر لم يصلنا عنه سوى القليل.

كان هايمان ليبمان يعيش في فيلادلفيا عندما سجل باسمه براءة اختراع لقلم رصاص تدرج فيه ممحاة. وفي براءة اختراعه، يذكر ليبمان أن هذا الابتكار ليس فقط ليسهل مسح الأخطاء على مستخدم قلم الرصاص، وإنما أيضاً عندما تدرج الممحاة في قلم الرصاص، يمكن بريها بحيث يصبح طرفها رفيعاً جداً يمكننا من أن نمحي الخطوط الدقيقة دون أن نضر بالرسم أو الكتابة.

بعد سنوات قليلة، أقنع ليبمان ريكيندورفر بشراء براءة الاختراع بمبلغ ضخم في ذلك الوقت، هو مئة ألف دولار أمريكي. وبالطبع أقدم ريكيندورفر على هذه الخطوة كجزء من سعيه إلى الحصول على أضعاف هذا المبلغ عن طريق مقاضاة أكبر شركة لإنتاج أقلام الرصاص حينئذ.. شركة فيبر. ولكن من سوء حظه، ومن حسن حظ فيبر، قضت المحكمة الأمريكية العليا أن البراءتين باطلتين، وأن ابتكار جمع شمل قلم الرصاص بالممحاة هو في الحقيقة ليس ابتكاراً، وإنما مجرد تجميع لابتكارين معروفين سلفاً، دون أن يتأتى لهذا الجمع أن ينتج وظيفةً جديدة.



في عام 1872م دخلت شركة إيجل لأقلام الرصاص ساحة تطوير الفكرة، فحصلت على براءة اختراع لقلم رصاص تُدرج فيه الممحاة بدلاً من التصاقه بها بواسطة الغراء كتلك الأقلام التي تنتجها شركة فيبر والشركات الشبيهة. وحذت بقية الشركات المنتجة لأقلام الرصاص حذو إيجل، وبقي هذا القلم من أرخص الأدوات الكتابية إذ كان المستهلكون يستطيعون شراءه بأقل من قرش واحد. وارتفعت نسبة استخدامه في القرن العشرين إلى 90% من جملة أقلام الرصاص المستخدمة في العالم.

قصة مبتكر

إيرل توبر

مبتكر حافظات الطعام البلاستيكية (التوبر-وير)



بدأ إيرل سيلاس توبر حياته المهنية بستانياً ومخططاً للأراضي، وكان من الممكن أن يقضي بقية حياته كما بدأها، إلا أنه بعد سنوات عشر من البستنة وقف أمام مدخل شركة دوبون الأمريكية للبلاستيك في لحظة قرار مصيرية، لم يدرك أهميتها إلا بعد سنوات.

ولد توبر في نيوهامشير عام 1907م، ابناً لمزارع كان يتسلى في وقت فراغه بابتكار أجهزة زراعية لتخفيف اعتماد مزرعته على الأيدي العاملة. وفي العام 1927م درس البستنة لشهور، وأنهى دراسته لينشئ شركته الخاصة في هذا المجال.

قاده عمله في البستنة إلى الاهتمام بالكيمياء، فالتحق بشركة دوبون للبلاستيك كيميائياً مبتدئاً. غير أنه لم يستمر كثيراً فيها، بل استقال لينشئ عمله الخاص بأبحاث البلاستيك، محافظاً في الوقت نفسه على علاقته الطيبة بشركته الأم، ومتعاقداً معها على القيام بأبحاث محدودة.

طلب توبر من دوبون أن تهبه نفايات البلاستيك كي يستخدمها في أبحاثه. وبالفعل، منحته الشركة كمية كبيرة من بلاستيك أسود صلب يسمى «بولي إيثيلين». ومن هذه «النفاية» استطاع توبر أن يصنع بلاستيك صالح للقولبة، وصلب رغم مرونته. وبقي بعد ذلك الهم الأكبر: كيف يمكن أن يحوِّل هذه المادة بإمكاناتها الواسعة إلى منتج يمكن الاستفادة منه وبيعه؟

الغريب، أن فكرته الأولى كانت تتركَّز على صناعة «نعال» للأحذية، ولكنه سرعان ما تخلى عن الفكرة لصالح فكرة أخرى: أوعية بلاستيكية لحفظ الطعام، خفيفة الحمل، غير قابلة للكسر، والأهم أنها بأغطيتها المحكمة يمكنها أن تمنع الهواء من التسرب للطعام وتحفظه من الفساد. وبالفعل، استقبلت الأسواق هذه الأوعية عام 1945م، ثم حصل توبر على براءة الاختراع عام 1949م.

لم يكن هذا كافياً. فقد كان توبر مدركاً لأهمية ابتكاره وعمليته، إلا أن المستهلكين بدوا وقتها غافلين عن هذه النتيجة. ومن الأسباب التي دفعت المستهلكين إلى تجاهل ابتكار توبر نظرتهم الدونية إلى البلاستيك. وأدرك توبر مع بقية فريق العمل في شركته أن النجاح التسويقي لهذه السلعة الجديدة يحتاج إلى تغيير فكرة الجمهور عن منتجه. وعثر على منجم الذهب حينما اقترحت إحدى الموظفات وتُدعى براوني وايز منهجاً غريباً يتمثل في زيارة مندوبة الشركة لمنازل المستهلكات المحتملات، وشرح طريقة عمل هذه الحافظات بشكل شخصي. هذا النوع من التسويق لا يبدو جديداً لنا، ولكنه كان يتبع لأول مرة. وما أن طبق، حتى ارتفعت مبيعات الحافظات واحتلت مكاناً عزيزاً على رفوف الثلاجات المنزلية.

تقاعد توبر عام 1958م بعد أن باع شركته بملايين الدولارات، وتوفي في أكتوبر عام 1983م عن عمر يناهز السادسة والسبعين، إلا أن اسمه لا يزال حياً على أوعيته: التوبر-وير.

الإنترنت عربياً..

م. أمجد قاسم*

كما هو معلوم، شهدت السنوات القليلة الماضية نمواً كبيراً ومتواصلاً لشبكة المعلومات الدولية، وزيادة كبيرة في عدد مستخدمي الإنترنت. وتدل الإحصاءات الصادرة عن عدد من الجهات المتابعة لتطور الشبكة العنكبوتية، على أن عدد الأشخاص الذين أتيحت لهم الفرصة لدخول هذه الشبكة في عام 1995م كان 16 مليون شخص فقط، وقد تضاعف هذا الرقم بشكل مذهل في مطلع عام 2008م ليصل إلى حوالي مليار و463 مليون إنسان، بواقع 431 مليون متصفح بالإنجليزية، و276 مليون متصفح بالصينية، و125 مليون متصفح بالإسبانية، و60 مليون متصفح بالعربية التي احتلت المركز السابع بنسبة بلغت 4.1% من مجمل مستخدمي الإنترنت عالمياً.

وتظهر الدراسات أيضاً أنه منذ مطلع الألفية الجديدة، شهدت خدمات الإنترنت نمواً كبيراً وانتشاراً في الوطن العربي. وطبقاً لإحصاءات موقع «Internet world stats» فإن انتشار وتطور شبكة المعلومات الدولية في الدول العربية يُعد الأعلى عالمياً. وقد احتلت كل من دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية المركزين الأولين بين الدول العربية.

وبالرغم من هذا النمو المتسارع لاستخدام شبكة الإنترنت في الوطن العربي، والذي قدرته بعض الدراسات بنسبة 2063.7% خلال الفترة الممتدة من عام 2000 إلى 2008م، إلا أن هذه النسبة من عدد المستخدمين لا تتجاوز 16.7% من إجمالي سكان الوطن العربي الذي يغيب بذلك عن المراكز العشرة الأولى في العالم المستخدمة للإنترنت.

تحمل هذه الأرقام دلالات مهمة للغاية. فبالرغم من أن اللغة العربية تُعد إحدى اللغات الست المعتمدة في الأمم المتحدة كلغة عالمية معترف بها، إلا أنها مغيبة بصورة كبيرة عن الشبكة العالمية للمعلومات.

فطبقاً للدراسات والإحصاءات التي أجرتها منظمة «الإسكوا» التابعة للأمم المتحدة، تبيَّن أن نسبة الصفحات العربية على شبكة المعلومات الدولية لا تتجاوز 1% من إجمالي الصفحات العالمية. حيث بلغ عدد الصفحات العربية حوالي 40 مليون صفحة، في حين أن العدد الكلي العالمي يتجاوز أربعين مليار صفحة.

هذه الفجوة الرقمية الهائلة، صاحبها ضعف شديد في محتوى الصفحات العربية، وغياب الرؤية الشاملة والواقعية في الكثير من المواقع العربية. بالإضافة إلى أن عدداً كبيراً من تلك الصفحات حُرِّر بلغات غير عربية، مما أفقدها بُعدها الوطني والعربي الأصيل.

إن إمكانات الشبكة العالمية للمعلومات، وسهولة التعامل معها، وقدرتها على الوصول إلى كافة بقاع العالم، وأهميتها لكل ثقافة وأمة، دفعت عدداً من دول العالم إلى الإسراع في استغلالها والتوسع في استخدامها.

فمنذ إطلاق هذه الشبكة، قامت فرنسا بنشر ثقافتها وكافة المخطوطات الوطنية والكتب التراثية المهمة لديها، كما نشرت النصوص الأساسية للأدب الفرنسي وأرشفت كل ما له علاقة بالتراث العلمي والثقافي والحضاري لديها. كذلك قامت كبريات المؤسسات الوطنية والمكتبات ومراكز المعلومات في أمريكا بأرشفة كافة الوثائق المهمة على شبكة الإنترنت لتجعلها متاحة لعامة الناس. الأمر نفسه ينطبق على باقي الدول الأوروبية وبعض الدول الآسيوية، بينما بقي المحتوى الرقمي العربي على الإنترنت يعاني من ضعف شديد وندرة وعشوائية.

إن التركيز على زيادة الوعي بالثقافة الرقمية، أصبح حاجة ملحة في مطلع القرن الحادي والعشرين، وأصبح من الأهمية بمكان تعزيز صناعة المحتوى الرقمي العربي، مع إيجاد مشاريع عربية جادة، كمشروع موقع إلكتروني لكل أستاذ جامعي، ومشروع موقع متخصص لكل مؤسسة إعلامية، ومدونة لكل كاتب في أية صحيفة أو مجلة، وغيرها من المشاريع التي تهدف إلى بناء اقتصاد معرفي، يدعم مكانة وحضور اللغة العربية على الشبكة العنكبوتية.

* كاتب علمي من الأردن



روان أحمد شحادة – 9 سنوات

* المساحات اللونية على الصورة إضافة من المصمم

أسهل عليك أن تدخل
من فتحة باب،
من أن أدخل أنا إلى
بلدي.
سآخذك إلى مخيمنا،
لكن لن تراه إلا من
عدساتنا الصغيرة.
نحن أطفال فلسطين..
نرشدك.. فترى ما
ترى.
بلدي، مثل ما بي..
أجزاء، وأشلاء.
لكن لا بأس..
لا بأس...



رانيا جلال يوسف – 12 سنة



لارا محمد أبيض – 12 سنة

نورهان خالد السبع – 12 سنة



رشا علي عبدالله – 12 سنة



ديانا حسن العريض – 6 سنوات



أحمد بلال الحاج حسن – 12 سنة



عبدالله نظير القيِّم - 8 سنوات



ريما سليم سبير – 12 سنة



وسام أبو الشباب - 5 سنوات



ميرنا وليد - 12 سنة



مروة عبد الكريم شحادة - 9 سنوات

لحظات..

أطلقت جمعية «مهرجان الصورة- ذاكرة»، في الفترة ما بين شهري فبراير 2007م وفبراير 2008م، مشروعاً حمل اسم «لحظة». قام أعضاء الجمعية من مصورين محترفين وهواة بتوزيع 500 آلة تصوير على 500 طفل فلسطيني من سكان المخيمات الفلسطينية في لبنان، ليسجلوا بالصور واقعهم، ويتعرفوا في الوقت نفسه إلى جمال التصوير كوسيلة تعبير، وربما مجال عمل في وقت لاحق. «القافلة» تنشر، بالتنسيق مع الجمعية، مجموعة من الصور المختارة، والتي نشرت ضمن كتاب صدر مؤخراً يحمل اسم المشروع «لحظة».

خسائر مثيرة للإعجاب!

لم تثر أرقام الأرباح التي كان يرد ذكرها كل عام، وكذلك أرقام الميزانيات هذه الدهشة التي تثيرها أرقام الخسائر في السوق الأمريكية اليوم.

حيث كوّن الناس فكرة أفضل عما تمثله كبرى الشركات الأمريكية، وماهية السوق الأمريكية نفسها، مما يسمعونه عن حجم الخسائر التي ابتليت بها، أكثر بكثير مما تكوّن لديهم في الماضي مما سمعوه عن حجم الأرباح.

إن الأرقام التي ذكرت خاصة في باب ما اضطرت أن تضخه الحكومة الفيدرالية من مبالغ لإنقاذ المصارف الكبرى وبعض الشركات تكاد تكون أرقاماً لم يسمع أحد بمثلها في السابق. وهي بلا ريب تثير دهشة الناس من حجمها وتكاد تثير إعجابهم رغم أنها تصنف في باب الخسائر لا في باب الأرباح. ولسان حالهم يقول من ذا الذي يستطيع أن يخسر مثل هذه الخسائر، غير العمالقة.

ولا شك في أن للخسارة وقعاً درامياً أكبر من الربح. ولا شك أيضاً في أن ما نراه اليوم يمثل أكثر من مجرد خسارة ليصل إلى ما يشبه انهيار اقتصاد، واهتمام الناس وتأثرهم بأخباره يتصل بقلقهم على أنفسهم ومداخيلهم.

فمنذ ثلاثة عقود تقريباً حدث شيء مشابه من دون سابق إنذار، إذ سجَّلت إحدى الشركات العملاقة في صناعة السيارات الأمريكية خسائر بلغت بلايين الدولارات. وحينئذ لم تكن هذه الأرقام من النوع المتداول بين الناس. وذهل الناس لحجم الخسارة. خسارة تحققها شركة واحدة في عام واحد. ولكن ذهولهم تضاعف حينما وجدوا أن جُلَّ ما نتج عن هذه الخسارة هو تغيير الشركة لرئيسها، وإعادة هيكلة بنيانها محدثةً بعض التقدم في الإنتاج والتسويق، واستمرت كأن شيئاً لم يكن.

وكان هذا بالتأكيد مثيراً للاستغراب.. ومثيراً للإعجاب كذلك. أن تربح أية شركة أرباحاً بهذا الحجم محط إعجاب لاريب، لكن أن تستطيع أن تخسر مثل هذه الخسارة وتستمر فهذا محط إعجاب أكبر.

وحجم السوق الأمريكية الضخم هو من الحقائق الرئيسة في بنيان الاقتصاد العالمي. ولكنها حقيقة تغيب بشكل أو بآخر عن بال الناس وهم يتابعون الأحداث السياسية والاقتصادية.. وربما كان الفارق في الحجم بين هذه السوق وبين اقتصادات أخرى هو أكبر من أن يتقبله الإنسان برضاه، ولهذا يميل إلى تناسيه والالتفات عنه. فحتى الذين يحتفظون بهذه الحقيقة حاضرة في تفكيرهم يغيب عنهم الحجم الفعلي للفارق. لتأتي أحداث على هذه الدرجة من الفداحة لتذكرهم وتذكرنا جميعاً. وهنا أيضاً يلف الشعور بالدهشة والقلق شعورٌ بالإعجاب. وإذا كان القلق قد بدأ يطغى، جاءت نتيجة الانتخابات الرئاسية لترجح في الميزان بشكل أو بآخر كفة الدهشة وثم الإعجاب مرة أخرى.

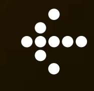
إلا أن حجم الخسائر ربما يكون قد فاق الكم إلى النوع.. ويبقى أن نرى إن كان تغيير رئيس وزيادة فعالية الإنتاج والتسويق سوف تكفي.

كميل حوا 



من السينما والتلفزيون والإنترنت..

عبارات الشاشات على الألسنة



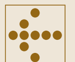
ثمة ما تسلل ببطء إلى لغتنا اليومية وقلائل هم الذين لاحظوه.

فبموازاة الكلام الكثير عن الأدوار الاجتماعية، الإيجابية منها والسلبية، التي تلعبها السينما والتلفزيون والإنترنت في حياة المجتمعات، قلما نلتفت إلى الدور الذي تلعبه الأفلام والإنترنت على صعيد اللغة المحكية يومياً، وهو دور يتجاوز إلى حد بعيد مسألة القواعد اللغوية، ليصل إلى التعبير عن مضمون ما يدور في الذهن بمفردات وعبارات قولبتها السينما والتلفزيون والإنترنت وزرعتها في العقول، جاهزةً للاستعمال في ظروف محددة.

وهنا ثلاثة إسهامات تقرأ هذه الظاهرة سعياً إلى تفسيرها.

1 السينما تخلف الشعر في مد الناس بالمفردات والتعابير

بقلم: إبراهيم العريس*



كثيرة هي الأمثال التي نستخدمها في حياتنا اليوم، مع معرفتنا، أو من دون معرفتنا أنها وصلت إلينا من قصائد قديمة لشعراء مثل أبي الطيب المتنبي أو المعري أو ابن الرومي وغيرهم.. فهناك من يعرف، كما أن هناك من يجهل، أن عبارات مثل «على قدر أهل العزم تأتي العزائم» أو «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن» وما إلى ذلك، هي أصلا عبارات من قصائد شعرية. ففي الماضي، كان الشعر هو المرجع الذي يستقي منه الناس أفكارهم ومواقفهم وأمثالهم. أما في زمننا فقد تبدلت الأمور كثيراً.

صارت السينما اليوم تنافس الشعر والأغاني في مد الناس بما يحتاجونه من عبارات يستخدمونها لأسباب أو لأخرى في حياتهم اليومية. صحيح أن الأغنية لا تزال المصدر الأساسي، لكن للسينما مكانتها في هذا المجال، حتى وإن نسي الكثيرون أن عبارة معينة هي مستقاة من أحد الأفلام.

التكرار للترويج أم نتيجة الرواج؟

فبعض العبارات تبقى محفوظة في ذاكرة الناس حتى بعد أن ينسوا الأفلام التي وردت فيها. ولكن هناك في المقابل بعض الناس ممن يذكرون ليس فقط اسم الفلم الذي حفظت منه هذه العبارة أو تلك، بل حتى المشهد الذي يقال فيه. كما أن ثمة فئة من الناس المهتمين جداً بالسينما، يمكنهم أن يؤكدوا أن الجملة الفلانية قالها الممثل الفلاني في هذا الفلم ثم رددها في الفلم الثاني والثالث.. وينطبق هذا بشكل خاص على نوعيات محددة من السينما العربية الشعبية، حيث يحدث في مرات كثيرة أن تنجح عبارة ما في

أبجد هوز

* ناقد سينمائي

فلم معيَّن، بالانتقال إلـى شفاه الناس. فيصبح مطلوباً من الممثل قائـل هذه العبارة أن يكررها فـي فلم آخر، وأفلام تالية، اعتقـاداً بأنها سوف تتمكن مـرة أخرى من اجتذاب المتفرجين.

بعض العبارات تحولت إلى حكم وأمثلة، وبعضها الآخر لتسجيل موقف معين أو للإضحاك فقط

ونذكـر من تجاربنـا الشخصية فـي العمل سابقـاً علـى بعض الأفـلام اللبنانيـة- المصرية المشتركة، أننا أثناء تلقين الفنان الكبير محمود المليجي على حوار معين في أحد الأفلام، لاحظنا أنه قرأ الحوار بسرعة ثم طوى الورقة ووضعها في جيبه. ولما قلنا لـه إن عليه حفظ الحـوار بسرعة لأن التصويـر سيبدأ بعد دقائـق، ابتسم الرجل بطيبة قائلاً: «قلت هذا الحوار نفسه ألف مرة في ألف فلم قبل الآن».

وخـلال العمـل علـى تصوير فلـم آخر من بطولـة العملاق يوسـف وهبـي، كان علـى الفنـان أن يقـول عبـارة واحدة تلخِّـص موقفاً محدداً. وخلال ثوانٍ تـم الاتفاق على عبارة «شـرف البنت زي عـود الكبريـت» ونعرف جميعـاً أن هذه العبـارة التي قالها وهبي في أحـد أفلامه القديمة أصبحت مثـلاً يُضرب ويتناولـه الناس حتى يومنـا الحاضر. كذلك نعـرف أن السينما الشعبية كانت تريـد دائماً من إسماعيل ياسيـن ومحمـود المليجي وغيرهمـا أن يتلفظـوا بعبارات يعرفهـا الجمهور جيداً. ذلك أن جزءاً لا بأس به من الكلام المستخدم في الحوارات بين الناس، ولا سيما خلال العقود الأخيـرة من القـرن العشريـن إنما أتى مـن الأفلام، ومن مواقف محددة في الأفلام.

ويتشابه الحال في السينما الغربية

السينمـا العربية ليست وحدها في هذا المجال. فلا أحد نسي العبارة التي اختتمت بها سكارليت أوهارا فلم «ذهب مـع الريح» قبل نحو سبعين عامـاً، عندما قالت «غداً يوم آخر»، وكانـت تقصد بقولها هذا أنها لن تعود إلى البؤس ثانيـة. هذه العبارة استخدمت عشرات المرَّات لاحقاً في السينمـا الغربية في كل مرة يحتـاج فيها شخص التعبير عـن تفاؤله بغـد مشرق ومستقبل مختلـف. ومن السينما أصبحـت جملـة شائعـة في الغـرب كما فـي الشرق على ألسنـة العامة عندما يكونون في موقف مشابه في جوهره للموقـف الـذي ظهر للمـرة الأولى على شاشـة السينما.

وحيـن يخبط بـول نيومان طابـة البيلياردو فـي المشهد الأخيـر من فلم «لـون المال»، ويقول: «هــا أنا قد عدت»، يعطينـا العبارة التي نقتبسها عنـه للإعلان عن خروجنا من حزن أو مأساة.

وفي عودة إلى حالنا مع السينما العربية، ألا يستخدم بعضنا بشـكل ساخر عبارة: أنا كلمتي ما تنزلش الأرض أبداً.. بس المـرّة دي حتنزل» حيـن يعلن رضوخه لقوة قاهـرة ما؟ أو عبـارة فريد شوقي القاسية والمريرة التـي يقولها في أحد أفلامـه: «اشنقونـي رحمةً بي...» ألا يقولهـا كل تعيس حظ حين تضيق به الدنيا؟

يمكن للائحة العبارات هذه أن تطول كثيراً، وقد يكون فاتنا مـا هو أكثر رواجاً من العبارات التـي عرضناها على سبيل الأمثلة، ومنه مثلاً نداء سعاد حسني الشهير «يا واد يا تقيل» الـذي انطلق من فلم «خلِّي بالـك من زوزو» ليصل حتى إلى ألسنة المعلقين الرياضيين.

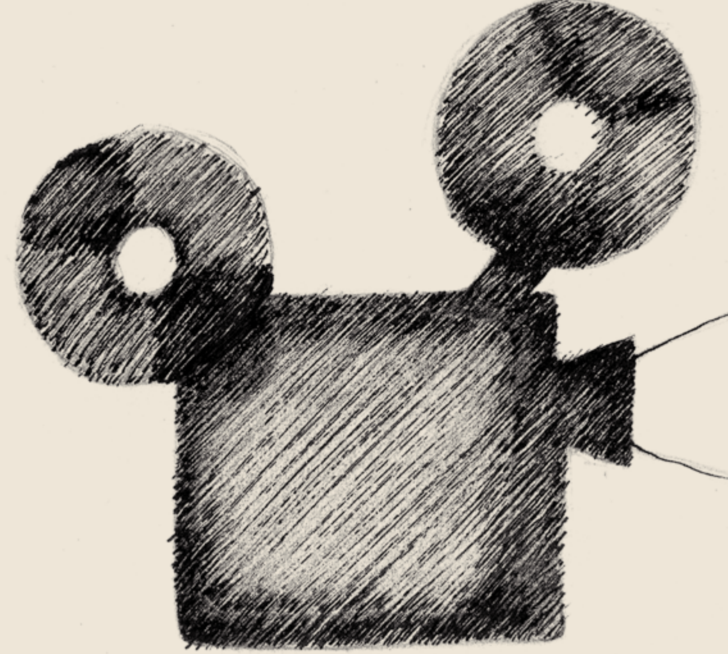
فئات مختلفة من العبارات

لـو شئنا أن نحلـل هذه الظاهـرة اجتماعيـاً، لتوجب علينا الانطلاق من تـوزع العبارات التي انتقلت مـن السينما إلى ألسنة العامة على فئات مختلفة: فهناك أولاً عبارة «مأثورة» تطـرح على المستـوى الكوميـدي لتسجيل موقـف معين أو لمجرد إثارة الضحك.

وهناك بعد ذلـك عبارات تردد انطلاقاً مـن لعبة التماهي ما بيـن الإنسان العـادي وبطل الفلم الذي هـو عادةً نجمه المفضـل. كأن تستخـدم فتاة عبـارات مقتبسـة من سعاد حسنـي أو نجـلاء فتحي أو غيرهما فـي مواقف حياتية تمر بهـا تعتبرهـا مشابهـة لمواقـف سينمائيـة مـرت بها هذه النجـوم. وهناك عبارات تستخدم بشـكل تلقائي لأنها منذ ظهورها على الشاشة دخلت في وجدان المتفرجين ووعيهم الباطنـي، لتصبح جزءاً من هذا الوعي وأسلوب التعامل مع الآخرين.

وأخيـراً هناك عبارات تكـون ذات دلالة خاصة قد لا تتضح إلا لمستمـع يكون قد شاهـد الفلم الذي اقتبست منه. ومثل هـذه العبارات تستخدم في صراعات لفظية مقصودة، وقد تتضمن إهانات خفية أو تلميحات مبطنة.





ومن الممكن وضـع لوائح طويلة تتضمن نماذج من كل هذه العبارات. لكن الأهم من هذا هو معرفة الأولوية التي تجعل من عبارات كهذه جزءاً من الخطاب اليومي للناس. وترتبط هـذه الأولوية أول ما ترتبط بالمكانـة التي احتلتها السينما في حياة الناس طوال القرن العشرين، وأكثر من ذلك بلعبة التماهي التي أشرنا إليها بين المتفرجين ونجوم السينما.

فالمتفـرج إذ يحقـق ذاته من خـلال إسقاطهـا على حياة النجـم في الواقـع وفـي السينما، يجـد نفسه منقـاداً إلى محاكاته فيمـا يقول. ومن هنا، يجد نفسه يستخدم خطاب البطل. ولاحقـاً يبقى هذا الخطـاب «المؤلف من مجموعة غير محدودة أو محـدودة من العبارات» في الوعي الباطني للمتفرج، ليصبح جزءاً من لغته الخاصة حتى وإن غاب عن باله مجال القول الذي استعيرت العبارة منه.

وما هذا فـي الحقيقة إلا لأن السينمـا وحواراتها الخاصة، وهذا أمر لا يجب أن يغيب عن بالنا، اشتغلت على الذهنيات الشعبيـة في القـرن العشريـن، وربما تستمر فـي ذلك في القرن الحالي، أكثر مما اشتغل أي مجال فني على الإطلاق، باستثناء الأغنية التي هي في أحيان كثيرة جزء من السينما نفسها.

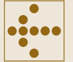
فإذا كان الأهـل يعلِّمون الصغار شـؤون الحياة، والمدرسة تعلُّمهـم شؤون العالم، لا شك فـي أن السينما والأغنية هما اللتـان تصوغان لغتهـم المستخدمة في حياتهـم اليومية. وكلمـة «الصغـار» التـي نستخدمها هنا يمكـن لدلالاتها أن تتسع لتشمل شرائح شعبية واسعة إن وسَّعنا دائرة التحليل، طالمـا أننا نعـرف اقتباساً من تشرشـل أن الثقافة هي كل مـا يتبقـى لنا في أذهاننا بعـد أن ننسى كل مـا تعلمناه في المدارس والجامعات.

ومن المؤكد أن كلمة ثقافة، حينما تنتقل من الحيِّز النخبوي إلى الحيز الشعبي، تصبح هي هي هذه العبارات والمواقف والتماهيات التي نتحدث عنها.

فعندمـا يريـد الجمهـور العريض أن يتكلـم وأن يعبِّر عن نفسـه، لا يجد أمامه إلا أن يستخدم العبارات المقتبسة من السينمـا ومـن آلاف الأفلام.. تماماً كمـا كان الجمهور في القرون الوسطى وما بعدها، يستخدم العبارات المأثورة من القصائد.

2 كلام على قد المقاس من التلفزيون والإنترنت

بقلم: خالد ربيع السيد*



أن تخـرج كلمة من المنتج الفني الدرامـي أو الإلكتروني أو الإعلانـي وتصبح رهينة التداول اليومي في الحياة العامة، فهذا يعني أن هذه الكلمـة لامست وتراً حساساً عند النـاس الذين يستعملونهـا إما لطرافتها اللفظيـة، وغالباً لدلالتها الموغلـة في توصيـف حالة معينة مرافقـة لموقف ما. فهي بمثابـة أمثلة وأقوال شرودة تقال في سياق الكلام، أو تنطق لوحدها عند لحظة معينة تستدعيها، للتشبيه أو للمجاز عن معنى يضمـره المتكلم ويكون مفهوماً.. للتنـدر أو للتنفيس والدعابة وإشارة إلى ما يمكن تشفيره من الكلام.

* صحافي سعودي

فقبل نحو ربع قرن انتشر شريط فيديو يتضمن سهرة تلفزيونية سعودية بعنوان «محمود ومحيميد» للوجهين الجديدين ،آنذاك، ناصر القصبي وعبدالله السدحان، ومساندة راشد الشمراني في شخصية «أبي هلال» سائق شاحنة صهريج الماء.. وفي إحدى مشاهد السهرة، يكرر أبو هلال عبارة «إيش قصة أهلك معايا» فإذا بها تنتشر بين العامة، وأصبحت تردد للتعبير عن تذمر شخص من محدثه إذا ألح عليه في أمر ما .. ويوجه أبوهلال، حديثه في السهرة نفسها إلى من يسأله سؤالاً بديهياً بحسب مفهومه، قائلاً له «يامستدلخ» التي دخلت بدورها إلى اللغة المحكية العامة.



معظم المسلسلات الخليجية روَّجت لكلمات وتعابير على ألسنة العامة، والتأثير الأكبر كان لـ «طاش ماطاش»

الدراما الخليجية لها نصيب

ويحفل تاريخ انتقال الألفاظ والعبارات من الشاشة بعشرات الأمثلة المشابهة. فعند ظهور المسلسل الكويتي «درب الزلق» لعبدالحسين عبدالرضا وسعد الفرج وعبدالعزيز النمش المشهور بـ «أم عليوي»، قبل ما يزيد على 30 سنة، تقول أم عليوي في لقطة رائعة وهي تحمل صينية من الأطعمة الشهية أرسلتها جارتها: «هذا الأكل هذا اللي يربي الكروش»، فذاعت العبارة بين الناس، وأصبحت مرادفة لكل من يرى طعاماً حسناً يشتهيه.

وفي مسرحية «على هامان يا فرعون» يسافر عبدالحسين عبدالرضا إلى السعودية لإحضار كتاب يتناول حياة جد «سعاد العبدالله» من أجل إقناع أبيها «سعد الفرج» وقبوله عريساً لابنته .. يقف عبدالحسين قارئاً من الكتاب عبارة بحر القلزم، فيتساءل «الفرج» وين هذا بحر القلزم؟، يجيبه «عبدالحسين» «بيه صار صخر، صار صخر»، وتذهب العبارة قولاً شائعاً في بلدان الخليج عند الحديث عن أمر قديم.

ورفدت المسلسلات الخليجية الرمضانية ألسنة العامة، في القديم والحديث، بمجموعة من المفردات والعبارات.. في «الإبريق المكسور» كأن يكرر الممثل «خالد العبيد» عبارة «أنا اللي آكل الذهب آكال همممم»، وفي مسلسل «الجوهرة والصياد» كان يقول: «غضب غضب، اللي كلامه كله علامة يصيد عدوه صيد الحمامة يا ولد»، وروَّج محمد المنصور من مسلسله الكوميدي «بوهباش» كلمة طريفة وهي «صُفيقات .. صُفيقات» التي دخلت قاموس الحكي اليومي. وقدَّم الفنان خالد النفيسي مسلسل «الحيالة» الذي قام فيه بدور «مانع» وكرر عبارة «يا جليلين الحيا»، والممثل أحمد السلمان في مسلسل «الحريم» أطلق عبارة «دربك أخضر»، والممثلة شيماء علي أهدت الى لغة الفتيات الرقيقات عبارة «ياربي شكثر أعاني». وفرض ناصر الصيرفي كلمة «صادوه» بقوة على كل من يصنع مقلباً بآخر.

والدراما المصرية أيضاً

ولا يغيب عنَّا ما نقلته الدراما والمسرح والسينما المصرية إلى الشارع. فهناك مسرحيات بعينها كان لها التأثير الأكبر في ترويج المفردات وجعلها متداولة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: مسرحية «المتزوجون» التي روجت عبارة «اللي واكل فول بيبان عليه»، ومن مسرحية «شاهد ما شفش حاجة» «دنا غلبان» أو عبارة «دنا بخاف من الكلب يطلعلي أسد؟»، ومن العيال كبرت على لسان سعيد صالح «يا سيدي أهو كله برطآن (برتقال)».

وأثرت الأفلام المصرية بمئات الكلمات والجمل ولا مجال لسردها هنا، ولكننا نذكر كلمة «أوكين» التي أطلقها سمير سيف في إحدى مسلسلاته وتحولت بعد فترة الى «أوكيشن» ..وروَّج إبراهيم نصر من خلال برنامجه الفكاهي «الكاميرا الخفية» عدة ألفاظ في اللغة اليومية: «أوعى الجمبري يعضك»، «انفخ البلالين»، «بلاش نخبط في الحلل».. والملاحظ أن تأثير الدراما المصرية يصل إلى مختلف أنحاء العالم العربي، من خلال رواج المسلسلات التلفزيونية بشكل خاص على كافة القنوات التلفزيونية في المشرق كما في المغرب.

طاش ولغة الحارة

وكان لـ «طاش ما طاش» التأثير الأكبر في نقل كلمات الشاشة إلى التداول العام، ربما بسبب اقتراب حلقاته من حياة الناس البسطاء في الحارة والحي الشعبي.. في إحدى الحلقات ، قلب محمد العيسى وجهه وقال بتأفف كوميدي ساخر، بعد أن أخذ علقة ساخنة في مجريات الحلقة.. «قم بس قم». فلم يكتف الناس بترديدها بل

طبعوها كملصق على سياراتهم، وعبارة «ما عندك ما عند جددتي»، التي قالها العيسى استخفافاً بمعلومات من يحدثه، فدخلت إلى القاموس الشعبي وأصبح الشباب يرددونها كلما صادفت المناسبة. وأيضاً عبارة «إيس فيه» التي أطلقها السدحان وهو يؤدي دور العامل الآسيوي، ولم يغب عن المشاهد التقاط عبارة «طقطقة ووناسة» التي تكررت في «تتر طاش» سنة 2006م، ومفردة «دقيزة» التي قالها يوسف الجراح، بينما كان يؤدي دور الحجازي الذي يحاول نطق كلمة «دقيقة» بالطريقة النجدية. لا سيما وهو المشهور بهتافه الطريف «يا أم أيمن هاتي الشيشية» التي انتشرت في المطاعم عندما ينادي الزبون على النادل المتأخر في إحضار الطلب.. كذلك عبارة «إنت إيش تشتغل؟»، ونبذة ناصر القصبي في شخصية فؤاد «بلا في شكلك». وقول السدحان في حلقة الأسهم (بع، بع، بع).

ومن مسلسل «بيني وبينك» راجت عبارات مثل «زحلطن»، و«في تيه القفا تاك» التي كان يكررها الممثل حسن عسيري، وهتاف «بالروه بالدم نفديك ياوسيلي» الذي أصبح هتافاً تشجيعياً للاعبي كرة القدم في الأحياء الشعبية.

لغة الدردشة الإلكترونية والإعلانات إلى الشارع أيضاً

في مضمار آخر، وشاشة أخرى هي شاشة الكمبيوتر، استحدثت تعابير للاستخدام عبر محادثات «الشات» و«المسنجر». وسرعان ما انتقلت إلى التدوال العام، والشباب منهم على وجه الخصوص. فمثلاً إذا قال أحدهم «برب» فيجب أن يكون الرد عليه «تيت»، فهذه المفردات تستخدم كثيراً في الدردشة عبر الإنترنت. وكلمة «برب» تقال بمثابة استئذان وتعني سأعود قريباً (BRB هي اختصار Be Right Back)، أما «تيت» فتعني خذ كفايتك من الوقت (TYT واختصار للعبارة الإنجليزية Take Your Time).. ومن عرف «تيت وبرب» لابد أنه يعرف «لول»، التي تعد بديلاً عن الضحكة، فتكتب كرد فعل حينما يخبرك الطرف الآخر ما يستدعي الضحك، وتعني ضحك بصوت مرتفع (LOL اختصار Laughing Out Loud).. هذه المفردات وغيرها أصبحت تكرر في أروقة الجامعات بين الطلبة وكأنها لغة بديلة استحدثها ونماها الشباب (الكول).

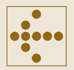
لكن للإعلانات والعبارات الدعائية قصة أخرى، لاسيما إذا ما سلمنا بوصفها منتجاً فنياً مقدماً في سياق درامي، وينتج للتأثير بعمق في الجمهور بهدف الجذب الاستهلاكي.. وهكذا، أنتجت الدعاية مفردات وعبارات دخلت صميم اللغة المحكية عن الشباب والعامة باختلاف طبقاتهم، فلا ينسى القارئ عبارة «خليها فله» التي أطلقتها إحدى الشركات للترويج عن منتجها فإذا بها تصبح شعاراً شبابياً رائجاً.

وقبل فترة ليست بعيدة ملأت إحدى شركات المأكولات السريعة الشوارع ووسائل الإعلام بعبارة «الطيب للطيب»، فإذا بها تقال في كل مناسبة وليست لتناول الطعام فقط. وفي سنوات سابقة من الثمانينيات ظهرت عبارة إعلانية عن سيارات تويوتا: «كل ما تتمناه تويوتا تدركه»، فأخذ الناس يرددونها باستبدال كلمة تويوتا بما يلائم الموقف المراد امتداحه، وصادف وقتها أن تأهل فريق المنتخب السعودي لتصفيات كأس آسيا، وكان ماجد عبدالله بطل وكابتن الفريق، وفي إحدى المباريات حقق ماجد هدفين، فهتف المعلّق الرياضي المرحوم محمد رمضان بأعلى صوته «ياماآآآجد، يا حبيبي يا ماجد، صحيح كل ما يتمناه ماجد عبد الله يدركه».



3 هوية المقتبس منه لازمات غربية وليست غريبة!

بقلم: نادين صبري*



ثمة اختلاف ما بين انتقال عبارة ما من مسلسل تلفزيوني أو فلم سينمائي عربي إلى ألسنتنا من جهة، وانتقال عبارات ومفردات من مصادر أجنبية (إنجليزية وفرنسية غالباً) إلى لغتنا المحكية من جهة أخرى.

والحديث هنا ليس تعبيراً عن الامتعاض من أولئك الذين أدغموا الحروف العربية بأخرى أجنبية في عقر دارنا، فهذا بحثٌ آخر يمكن أن يضطلع به المدافعون عن اللغة. الحديث هنا تحديداً عن السبب الذي يدفعنا إلى استخدام عبارات غربية وإلحاقها بحوارات عربية صميمة في حياتنا اليومية.

> «اللازمة الناجحة هي تلك التي تتماشى مجازياً مع مواقف كثيرة في حياتنا. ولدى الناس جوع إلى العبارات الذكية واللماحة

الحوار الفني العربي هو امتداد لنا، يعبر ويلتقط ويجزم وينتفض ويلخص من نحن، وما نمر به. عندما يصرخ سعيد صالح «هو فين السؤال؟» ويتهكم عادل إمام: «14 سنة في ثانوي وتقلي أوقف» في «مدرسة المشاغبين»، أو يرق سمير غانم ويقول «صرصار حبنا» في «المتزوجون»، وعندما يلقي السلام محمد سعد «صبَّح صبَّح يا عمي الحاج» في «اللمبي»، وعندما يتساءل يوسف الجراح «إيش بك يا فؤاد؟» في «طاش ما طاش».. كل هذا وأكثر منه بكثير صدى لنا، لهمومنا ولسخريتنا المرة أو المتسامحة من واقعنا ومن أنفسنا. وبالتالي، تصبح عودة هذه العبارات الهاربة إلى سياقها وهو حديثنا اليومي أمراً طبيعياً.

التوحد مع ثقافة انغمسنا بها

أما بالنسبة للعبارات الأجنبية المستقاة من المسلسلات والأفلام الغربية، فالأمر يختلف. نلتقط هذه العبارات للتعبير عن حالة تلبستنا من التوحد الأبكم، ليس بالضرورة مع شخصية المسلسل التي قالتها، وإنما أحياناً مع شخصية المشاهد الذي نتمنى أن نكونه! منا من يسعد باعتناق نمط الثقافة الأمريكية على سبيل المثال، وتصبح المشكلات أو الدعابات الأمريكية الخالصة مساحة فانتازية يمارس فيها هوايته. فيتفهم كما يشير الدكتور أحمد خالد توفيق في مقال له بعنوان «عن ماكدونالد والبطة دونالد»، مشكلة طالبة الثانوية عندما تضطر للذهاب إلى الحفل السنوي الراقص من دون رفيق، أو صعوبة إتقان البيسبول من قِبل الصبي الصغير.. ويصبح استخدامه للعبارات المتناثرة في المسلسلات والأفلام جزءاً من ممارسة الهواية.

أحياناً أخرى، يكون استخدامنا لهذه العبارات جزءاً من توحدنا مع الثقافة التي انغمسنا فيها لسبب أو لآخر، وأتى انفعالنا بأحداث المسلسل التي قد لا تكون في هيكلها العام معبرة عنا، وكأنما هو جواز مرور يسمح لنا بالتفاعل الحي المباشر مع هذه الثقافة عبر اقتباس مقاطع من أحاديث أناسها في حديثنا اليومي. فعندما نستعير عبارة كورتني كوكس في المسلسل التلفزيوني «فريندز» «!I Know» أو عبارة كاثرين هيجل «..Seriously.. Seriously» في المسلسل التلفزيوني «جرايز آناتومي»، فإن هذه الاستعارة أو الاقتباس أو حتى الانتشال ليس بالضرورة تعبيراً عن إعجاب أعمى بهذه الثقافة واندفاعاً أحمقاً وراء التمسك بأهدابها، وإنما يمكن أن يكون تجاوباً مع جزء ما في كياننا تعرض لموجات من هذه الثقافة أسهمت في بناء زواياه. وبهذا لا يكون استخدامنا لمثل هذه العبارات هو فقط تعبير حقيقي عنَّا، بل هو أيضاً فعلٌ مقصود أشبه بنداء استغاثة لنتعرف به بين الجموع على آخرين، هويتهم عربية لا شك فيها، وإنما يجمعنا بهم أيضاً تأثرهم بمزاج الثقافة الأخرى.

فقد ذكر الناقد السينمائي الأمريكي ريتشارد شكيل في مقال نشره الموقع الإلكتروني «نيويورك برس» أن اللازمات الناجحة هي تلك التي يمكن أن تتماشى مجازياً مع كثير من المواقف في حياتنا، ولدى الناس جوع لعبارات كفؤة وذكية ولمَّاحة يمكن أن يستعينوا بها للتعبير عما يواجهوه في حياتهم اليومية. وإن أخذنا بتفسير شكيل لاستخدامنا مثل هذه اللازمات -عربية كانت أم غربية- فيمكن لنا القول أن اللغة في حد ذاتها، بصفتها وعاءً للتعبير، لا تشكل أهمية هنا، بقدر ما يشكلها المعنى.

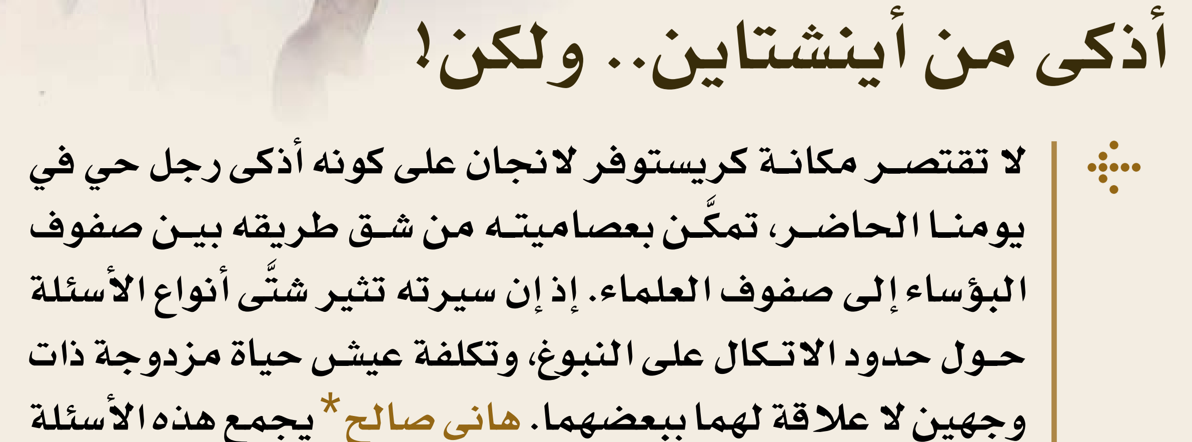
* كاتبة من فلسطين



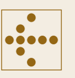
صورة شخصية

كريس لانجان

أذكى من أينشتاين.. ولكن!



لا تقتصر مكانة كريستوفر لانجان على كونه أذكى رجل حي في يومنا الحاضر، تمكَّن بعصاميته من شق طريقه بين صفوف البؤساء إلى صفوف العلماء. إذ إن سيرته تثير شتَّى أنواع الأسئلة حول حدود الاتكال على النبوغ، وتكلفة عيش حياة مزدوجة ذات وجهين لا علاقة لهما ببعضهما. هاني صالح* يجمع هذه الأسئلة في ختام عرضه لأبرز الملامح العامة في صورة هذا الرجل.



قاسى كريستوفر لانجان الكثير منذ صغره، ولم يستطع إكمال دراسته الجامعية؛ فمارس جميع الأعمال التي يمارسها أبناء الطبقة الفقيرة. وبينما كان يمارس عمله كبواب لأحد الملاهي في لونج آيلاند، عرفت الشهرة طريقها إلى بابه صدفة. وقدَّمه الإعلام الأمريكي كأذكى رجل في أمريكا، ليبدأ بعد ذلك في إظهار إنجازاته للعلن، إذ طوَّر نظرية خاصة به حول العلاقة بين العقل والواقع، سماها «النموذج النظري الإدراكي للكون»، بالإضافة إلى كتبه ومقالاته العلمية التي يمكن للمتخصص وغير المتخصص قراءتها والاستفادة منها.

طلاقة قبل الأوان

ولد كريستوفر ميشيل لانجان بسان فرانسيسكو عام 1957م، وقضى معظم سنوات طفولته في مونتانا. توفي والده أو اختفى قبل أن يبصر هو النور. أما والدته فقد كانت ابنة أحد تجار الشحن الأغنياء؛ ولكن عائلتها قاطعتها في مرحلة مبكرة من حياتها.

بدأت علامات النبوغ تظهر مبكراً على كريس، إذ بدأ التحدث بطلاقة وعمره لم يتجاوز الستة أشهر، وعلَّم نفسه القراءة قبل أن يبلغ الرابعة من العمر، وكان دائماً ما يسبق أقرانه بسنة أو سنتين في المدرسة رغم الظروف القاسية المحيطة به.

* صحافي يمني

حياة مزدوجة!

نشأ لانجان في فقر مدقع، وذاق الإهانة والضرب على يد زوج والدته منذ أن كان في السادسة. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، قرر التمرد على ضعفه. فبدأ بالتدرب على رفع الأثقال حتى تحرر من قبضة زوج والدته واستطاع أن يوقفه عند حده ويرميه خارج المنزل مهدداً إياه إن فكر في العودة. تابع لانجان دراسته، وقضى السنوات الأخيرة من دراسته الثانوية يتعلم بشكل مستقل الرياضيات المتقدمة، الفيزياء، الفلسفة، اللغة اللاتينية واليونانية. وبعد تخرجه من المرحلة الثانوية؛ تقدَّم إلى امتحان قبول الجامعات الأمريكية SAT، وحصل على النتيجة النهائية فيه، ثم قدَّم أوراقه إلى كلية ريد وبعدها إلى جامعة ولاية مونتانا، ولكنه واجه صعوبات مالية ومشكلات في المواصلات؛ إضافة إلى اعتقاده الجازم بأنه يستطيع أن يعطي أساتذته أكثر بكثير مما يمكن لهم أن يعطوه. لذا قرر ترك الجامعة، وبدأ في الانتقال من عمل يدوي إلى عمل آخر في سلسلة من الأعمال الشاقة، فما إن وصل إلى الخامسة والأربعين من العمر حتى كان قد عمل كعامل بناء، وراعي بقر، ورجل إطفاء لحرائق الغابات، وعامل في مزرعة، وأخيراً استقر في عمله كبواب لأحد الملاهي لأكثر من عشرين سنة.

يقول لانجان عن هذه الفترة من حياته إنها اتسمت باستراتيجية يسميها هو «استراتيجية الحياة الثنائية المزدوجة»، فمن ناحية، هو رجل عادي أو أقل، يعمل في مهنة يشغلها أبناء الطبقة الفقيرة الكادحة ممن لم تيسر لهم ظروفهم القدرة على الحصول على تعليم أفضل، وهو هنا يتعامل مع الآخرين بما يفهموه ويحبوه، ويشاركهم اهتماماتهم بصدق وواقعية، ولكنه ما إن ينتهي من عمله ويعود إلى المنزل، حتى يخلع قميص العامل ويلبس ثوب العالم، فينعزل عن العالم في محاولات لتطوير نموذجه النظري الإدراكي للكون، أو يعكف على حل المعادلات التي خطرت له في يومه ذاك.

أذكى من أينشتاين..

في العام 1999م نشرت مجلة الإيسكواير الأمريكية في أحد أعدادها موضوعاً عن الأفراد أصحاب نسب الذكاء المتفوقة، وعرَّفت لانجان للقراء بأنه «أذكى رجل في أمريكا».

غيَّر هذا المقال حياة البواب الذي يمارس رفع الأثقال كهواية جنباً إلى جنب مع هوايته الأخرى ألا وهي دراسة تصميم الكون. فقد أثار فضولاً متعطشاً من الجمهور لمعرفة المزيد، فقام الدكتور روبرت نوفللي –عالم النفس المعروف– في البرنامج الشهير 20/20 باختبار ذكاء لانجان، وقال التقرير الذي عرضه البرنامج إن نوفللي وقف مذهولاً أمام نتائج اختبار لانجان التي لم يرَ مثلها خلال ربع قرن عمل فيه في هذا الحقل، كانت نتيجة الاختبار 195 نقطة، وإذا عرفنا أن من هو على حدود الذكاء يصل ذكاؤه إلى 65 نقطة، وأن الشخص العادي يصل ذكاؤه إلى 100، فبحسبة رياضية بسيطة ندرك أن لانجان هو أكثر ذكاءً من الشخص العادي بنسبة 300%، وأن درجة ذكائه –كما يقال– أعلى من درجة ذكاء أينشتاين نفسه.

تدريب المتفوقين على المزيد من التفوق

بعد مشاركة لانجان في برنامج 20/20 واعتباره أذكى رجل في أمريكا؛ انتقل الاهتمام به إلى المجلات العلمية وأكثرها رصانة مثل «بوبلار ساينس»، «ذا تايمز»، و«نيوزداي».. بالإضافة إلى سلسلة طويلة من المقابلات التلفزيونية والإذاعية التي تطالب بمعرفة أكثر حول العبقري المتنكر في ثياب العمال، شارك لانجان في كتابة أعمدة يجيب فيها عن الأسئلة العلمية الموجهة إلى الصحف مثل «نيويورك نيوزداي» وغيرها. ثم أسس في العام 1999م تعاونه زوجته حينا لوساسو التي تعمل كطبيبة علم نفس عصبي، مؤسسة غير ربحية سمياها مؤسسة «ميجا»، لخلق وتطبيق برامج تساعد في نمو وتطوير المتفوقين عقلياً وأفكارهم.

وبالإضافة إلى كتاباته التي خص بها المؤسسة، فقد قاد لانجان مجموعة من النقاشات حول نظريته «نظرية النموذج النظري الإدراكي للكون» والتي يشير إليها باختصار CTMU–. كما ألَّف في العام 2001م كتاباً بعنوان «تصميمٌ لكونٍ ما»، ويقول ضمن ما يقوله حول رؤيته للكون: «لا يمكنك أن تصف الكون بشكل دقيق إلا إن كنت موافقاً على الاعتراف بأن الكون ليس فقط ما نحسه. الكون ما ندركه أيضاً».

شارك هذا العبقري في عدد من المحاضرات والمؤتمرات، وألَّف كتاباً آخر بعنوان «فن المعرفة» وهو عبارة عن مقالات فلسفية عن الكون، كتبها بلغة العامة الذي لطالما كان منهم. وإن قرأت بعضاً من عناوين هذه المقالات ستدرك أن الكتاب ليس مكتوباً للعلماء الذين يقارب ذكاؤهم ذكاء لانجان، بل هو مكتوب للشخص العادي دون أن يضر هذا بمحتوى الكتاب وأفكاره. فعناوين مثل «إذن تريد أن تصبح مليونيراً؟ لن يكلفك هذا الكثير.. فقط حريتك» أو «فأرة الألفية»، تهم القارئ العادي وتجذبه لقراءة محتواها.

في عام 2004م انتقل لانجان مع زوجته إلى شمال ميسوري حيث يمتلك ويدير مزرعة للخيول. وفي يناير من العام الجاري قرر أن يجرب الاستفادة من ذكائه بطريقة أخرى؛ فاشترك في مسابقة قناة «ام بي سي» «واحد ضد 100» حيث فاز بـ 250 ألف دولار.

بقي أن نقول أن اهتمامنا بكريس لانجان ليس احتفاءً بنسبة ذكائه، فهي في النهاية نعمة من الله ليس له الفضل فيها، وإنما للدروس والتأملات وحتى الأسئلة التي تثيرها حكايته، فلمَ طوّر استراتيجية الحياة الثنائية المزدوجة، على سبيل المثال؟ وهل كانت حاجة فرضتها عليه معيشته؟ لمَ قرر فجأة أن يظهر للعلن بقبعة المفكر التي يضعها على رأسه، مع احتفاظه بقميص العامل الذي يعتز بارتدائه؟

ماذا لو ظهر في حياة كريس لانجان منذ البداية شخص استطاع أن يهديه إلى أن الفرق بين الإنسان العادي والعبقري هو في القدرة على التناغم مع الذات ومع الحياة، وأن الأمر وإن كان صعباً فليس مستحيلاً.. هل كنا وقتها سنرى أينشتاين آخر؟ ما الذي أخذه من التعليم المستقل، وما الذي حُرم منه بسببه؟ وهل لو استمر في التعليم الجامعي، لكانت طبيعة إنجازاته مختلفة؟

كثيرة هي الكتب التي لم يصلنا منها إلا إشارة البعض إلى أنها كانت موجودة في زمن ما. وهذه حقيقة يعرفها الباحثون في أي موضوع قديم سواء أكان في الأدب أم العلوم، فيعتمدون في دراساتهم على ما نقله أحد المؤلفين عن كتاب فقدنا كل أثر له لمؤلف آخر.

سهى محمد أحمد* تحدثنا عن بعض هذه الكتب المفقودة، وتتوسع في تناول الأنماط المختلفة من فقدان الكتب وصولاً إلى تلك التي تسجن نسخها المحدودة في أماكن مظلمة، وحتى تلك التي لم تكتب.

كتب ضاعت في غياهب الزمن..

* باحثة من مصر

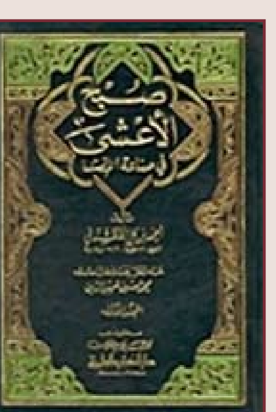

AMERICA
Nº 4.

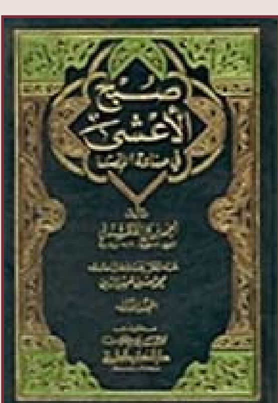
نبدأ رحلتنا إلى عالم الكتب الضائعة مع الدكتور إحسان عباس، يرحمه الله، الذي يروي لنا في مقدمة سيرته الذاتية «غربة الراعي» أنه حين أراد أن يكتب هذه السيرة استشار أخاه بكراً، فكان أن قال له: «لا أنصحك بذلك، لأن حياتك تخلو أو تكاد من أحداث بارزة تثير اهتمام القارئ وتطلعاته».

لكن، من حسن حظنا، أن الدكتور إحسان لم يعمل بنصيحة أخيه، رغم أنه يوافقه تماماً، فكتب يقول: «وجدتني أميل إلى كتابة سيرتي... لا لأن ما أكتبه تاريخ مهم، بل لأنه يمثل تجربة إنسان حاول في كل خطواته أن يخلص للعلم بصدق ومحبة».

وإقدام الدكتور عباس على كتابة سيرته هو جزء من طبيعته التي تحتفي بالكلمة وبفعل الكتابة، وهي تتسق تماماً مع هواية قيِّمة مارسها لسنوات طويلة في جمع منقولات متفرقة عن كتب مفقودة ويضعها في أطر معينة، لكي







يتمكن لاحقاً من تصور المصدر الأصلي الذي أخذت عنه. وكانت هذه الهواية أو «الأُلْهِيَة» كما يسميها الدكتور عباس، أساساً ليضع كتابه «شذرات من كتب مفقودة في التاريخ». (من منشورات دار الغرب الإسلامي)، وليُنبهنا من خلاله إلى حتمية إعادة النظر في «تاريخ التاريخ»، وعدم الاكتفاء في تصور التاريخ والتأليف التاريخي على ما هو مطبوع.

النار في الكتب.. لا تنطفئ

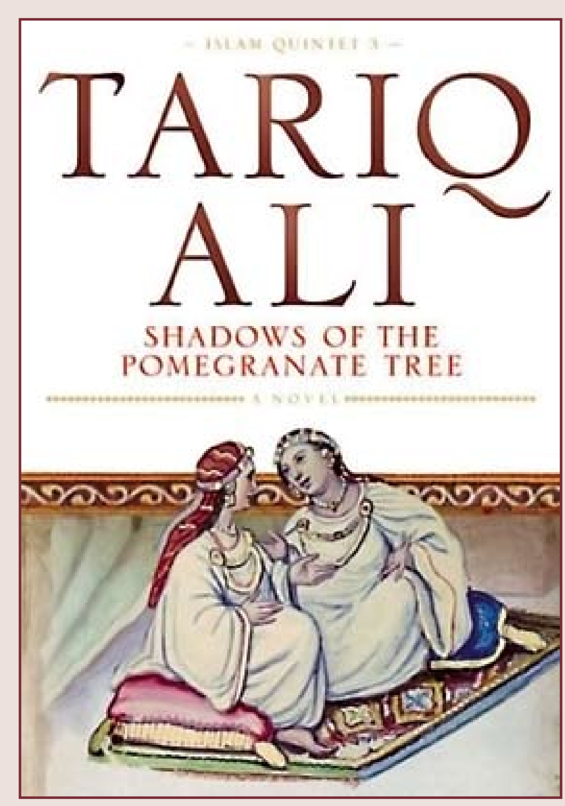
حين نتحدث عن الكتب المفقودة، تتماثل أولاً أمامنا صورة الإهمال متحالفاً مع ما هو أخطر: الجناية المتعمدة وسلاحها النار. إذ نكاد نشم رائحة الحرائق التي حدثنا التاريخ عن التهامها لآلاف الكتب على مر العصور وفي مختلف الثقافات. ويخنقنا هذا الدخان المنبعث من مكتبات بغداد التي سقطت في أيدي المغول، ومن مكتبات الأندلس عند جلاء المسلمين عنها، إذ لم ينج من ألسنة اللهب سوى القليل الذي تم تهريبه إلى خارج المكتبات، كما

يقول الكاتب البريطاني ذو الأصل الآسيوي طارق علي في مستهل روايته المعروفة «تحت ظلال شجرة الرمان».

والواقع أن الحروب على مر التاريخ كانت تلتهم الكتب بالشراهة نفسها التي التهمت بها ضحاياها من البشر وصولاً إلى العصر الحديث. إذ يروي لوسيان بولاسترون مؤلف كتاب «كتب تحترق» أن الحرب العالمية الثانية أبادت عدداً لا يحصى من المكتبات، ويذكر على سبيل المثال أن غارة على طوكيو أدت إلى حرق 220 ألف كتاب في المكتبة العامة خلال ساعة واحدة فقط. غير أن حرائق ما قبل عصر الطباعة كانت أخطر من غيرها، لأنها كانت تلتهم المخطوطات والنسخ القليلة من الكتاب الواحد. ولذا فإن الأكثرية الساحقة من مؤلفات كبار العلماء العرب التي وصلتنا، كانت عبارة عن نسخ من كتبهم، في حين أن النسخة الأصلية التي خطها المؤلف بقلمه ضاعت أو أتلفت..

تعدد عوامل فناء الكتب
الأحساء مثلاً

لا يمكـن لباحـث أن يحصر العوامل التي تـؤدي إلى فقدان الكتب. فالكاتب السعودي ناصر الحزيمي يحدثنا في كتابه «حـرق الكتب فـي التراث العربـي» عن بعض أكثـر أشكال إبادة الكتب إيلاماً، وهي تلك التي تعود إلى ضيق ذات اليد، فيقول إن بعض الكتَّاب كان يعمد إلى غسل ورق المخطوطات



تحت ظلال شجرة الرمان-طارق علي



حرق كتب النازية

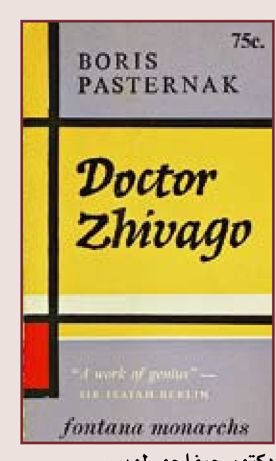
للاستفادة منه مرة أخرى. ويبـدو الأمر مؤلماً أكثر عندما يقوم الأبنـاء بالتخلص من الكتب التـي ورثوها عن آبائهم لأنهم لا يهتمون بموضوعاتها ولا يدركون قيمتها.

فالمـؤرخ جـواد الرمضـان، صاحب كتاب «مطلـع البدرين فـي تراجم علماء الأحساء والقطيـف والبحرين» الذي يقع في اثني عشـر مجلداً وطُبع منه مجلدان فقط، يحدِّثنا عن شرائه عـدداً من المخطوطات التي تركهـا عدد من علماء الأحسـاء، وتخلَّى أبناؤهم عنها. غير أن أغرب ما يرويه هو مـا يتعلق بمخطوطات جبل القـارة، إذ يقول: «كانت الناس قديماً تضـع المصاحف القديمـة والأوراق التالفة في هذه الكهـوف حفاظاً عليها من الضياع والعبث، بعد أن تنقل من محاريب المسجد. إذ كان الناس يضعون كل ورقة مقطوعة مـن القـرآن الكريم عنـد محـراب المسجد. ونظـراً لقلة الذين كانـوا يعرفون القراءة، كان النـاس ينظرون إلى كل الأوراق المكتوبة سواء أكانت من القرآن الكريم أو من غيره بمهابة واحترام. وعندما كان يمتلئ محراب المسجد، كانوا يرفعـون الأوراق ويضعونها في مـكان معيّن في كهوف جبل القارة، أو يتم تذويبها في عيون الأحساء».

ويقـول الشيخ الرمضان إنـه عثر داخل هـذه الكهوف على مخطوطات وأوراق أفادته كثيراً في بحثه عن أسماء وتواريخ عـدد مـن الشعـراء والمشايـخ. غيـر أنه يلفت فـي حديث صحافـي أدلـى به قبـل سنوات قليلـة إلى جريـدة «الشرق الأوسـط» إلى أننا لا نعرف شيئـاً عن عهود كاملة من تاريخ الأحساء، مثل إمارة «بني جـروان»، وهي أسرة حكمت تلك المنطقة لأكثر من قرن مـن عام 705هـ وحتى عام 820هـ. إذ ليس لهذه الأسرة أي ذكر في التاريخ سوى إشارة من ابن حجـر العسقلاني في كتابه «الـدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، الذي ترجم لرجل من هذه الأسرة يدعى إبراهيم ابن ناصر بن جروان. ولولا حجر هذا، لما عرف أحد بوجود هذه الأسرة جملةً وتفصيلاً.

وليس الكتاب العربي وحده في مواجهة أحداث غير متوقعة تؤدي إلى ضياعه وفنائه. فمن الحوادث الشهيرة التي وصلتنا تفاصيلها أن الروائي والشاعر الفرنسي فيكتور هوغو جمع عدداً كبيراً من قصائده المخطوطة في حزمة ضخمة استعداداً لإرسالها إلى النشر، ولكن أولاده أخذوها في غفلة منه ولعبوا بإحراقها في المدفأة، فضاع هذا الكنز الشعري إلى الأبد، لأن الشاعر لم يكن يحتفظ بنسخ أخرى عن هذه القصائد.

ويروي الكاتب ستيوارت كيلي في مؤلفه «كتاب الكتب المفقودة: تاريخ غير مكتمل لكل الكتب التي لن تقرأها أبداً»، أن توماس كارلايل أعار الفصل الأول من كتابه «تاريخ الثورة الفرنسية» لصديقه جون ستيوارت ميل الذي أعاره بدوره لصديق ظنت خادمته أن المخطوط هو مجرد أوراق لا قيمة لها، فرمت بها في نيران المدفأة.



دكتور جيفاجو-لويس باسترناك

لغز ادوين درود-تشارلز دكنز

المضنون به على غير أهله

ومن أغرب حوادث حرق الكتب في التاريخ، هو ما نقله إلينا ياقوت الحموي في معجم «الأدباء» عن أبي حيان التوحيدي الذي أقدم على إحراق كتبه بنفسه في آخر سني عمره.

فتاريخ الكتابة والتأليف يشير إلى أن إدراك المرء لقيمة ما لديه، قد يجعله يضن به على غير أهله. ومن ذلك ما ذكره الغزالي في خطبة الكتاب الذي ينسب إليه «المضنون به على غير أهله»، وجاء فيه: «اعلم أن لكل صنعة أهلاً يعرف قدرها. ومن أهدى نفائس صناعة إلى غير أربابها فقد ظلمها. وهذا علق نفيس مضنون به على غير أهله. فمن صانه عمن لا يعرف قدره فقد قضى حقه».

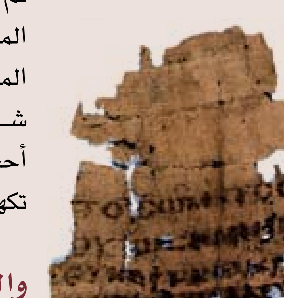
غير أن ضن المؤلفين والعلماء بالمعرفة على عامة الناس بقي في الحضارة العربية والإسلامية محصوراً في حالات فردية. في حين أنه شكَّل صفة بارزة ومدهشة في حضارات عديدة، ومنها على سبيل المثال الحضارة الفرعونية.

ففي المؤتمر الدولي الخامس للمخطوطات المطوية الذي عقد في مايو من العام الجاري، تحدث الدكتور حسين زيدان عن طي أغلب العلوم في مصر القديمة، التي أخفت معارفها خلف جدران المعابد. ولولا برديات متفرقة نجت من فعل الزمن بفضل فعل الإخفاء والطي، لما عرفنا أي شيء عن علوم مصر القديمة. وهذه البرديات هي ثلاث فقط: بردية إدوين سميث، وبردية كاهون، وبردية برلين. وهذه البرديات على الرغم من قيمتها الكبيرة، لا تدل دلالة كافية على ما وصلت إليه مصر القديمة في مجال الطب مثلاً، إذ إنها لا تكشف لنا عمَّا نسميه اليوم «سر التحنيط» المرتبط بالمعارف الطبية التي كانت مطوية في أيدي الكهنة، فصارت مخفية عن الأجيال اللاحقة،



مسرحية الليلة الثانية عشرة-شكسبير







ثم غدت مجهولة تماماً. الأمر نفسه ينطبق على الهندسة المعمارية، فمن المعارف الهندسية التي اعتمدها المصريون القدماء في بناء الأهرامات، لم يصلنا أي شيء على الإطلاق، ولذا لا تزال طريقة بناء الأهرامات أحجية يسعى المهندسون في عصرنا إلى حلها عبر تكهنات غير محسوسة...

والكتب التي لم تُكتب

ويذكر ستيوارت كيلي الذي أشرنا إليه سابقاً أن المؤرخ إدوارد جيبون صاحب الكتاب الشهير «انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» اكتشف أن أحد فراعنة مصر (مجهول الهوية) كان صاحب إنجازات في علم الزراعة أدت إلى اختراع الهندسة. ومما لا شك فيه أن باحثاً معروفاً برصانته وجديته ما كان ليطلق مثل هذا الحكم لولا امتلاكه بعض المعارف والملاحظات التي تسمح بذلك، وسواء أكانت هذه المعارف قد ظلت شفهية (على الرغم من وجود بعضها مكتوباً هو الأرجح)، فإننا لم نقرأ كتاب جيبون حول هذا الموضوع، لأنه لم يكتبه أصلاً، بل ظل مشروعاً في ذهنه.



ومما لم يُكتب أيضاً نذكر خاتمة كتاب تشارلز ديكنز «لغز إدوين برود». فقد نقل الرواة من القرن التاسع عشر أن ديكنز عرض على الملكة فيكتوريا أن يكشف لها عن نهاية الكتاب. ولكن الملكة ماتت قبل أن تعرف هذه النهاية التي بقيت في ذهن ديكنز الذي لم يكمل كتابه.

ونجد في عالم الشعر حالات من التقاعس عن الجمع والنشر أكثر بكثير مما هو حاصل في عالم الأبحاث والروايات. فبعض الشعراء يجد الاكتفاء بمجرد انتهائه من نظم القصيدة، ولا يعود أمرها يهمه في شيء، تاركاً مهمة نشرها والاحتفاء بها للآخرين إذا كان يهمهم الأمر. والأدهى من ذلك، هو عندما تكون القصيدة شفهية أو مرتجلة فتختفي من الوجود وتدخل طي النسيان من دون أثر. فالشاعر السعودي المعروف جيداً حسين سرحان لم يكن يهتم بجمع أشعاره، ويقول الدكتور عبدالمحسن القحطاني في كتابه «شعراء جيل» إن كثيراً من هذه الأشعار لم يكن ليصل إلينا لولا المتابعة الجارية من محبي شعره ونثره، الذين كانوا يطلبون منه إنتاجه حتى يتسنى لهم تقديمه إلى القرَّاء. وقد أفلح علاَّمة الجزيرة العربية حمد الجاسر في حصوله من الشاعر على كرَّاس يحوي 269 بيتاً من الشعر بعنوان «أجنحة بلا ريش»، فكان له الفضل في إنقاذه من الضياع.

الضياع المزدوج
«التعمية» مع وعائها

كان الدكتور إحسان عباس يرى أن الكتب المفقودة ليست فقط تلك التي لم تصل إلينا أصلاً، وإنما تشمل التي لم تتوجه إليها العناية بطبعها وإخراجها من صورتها المخطوطة. فأي دور يمكن لأي كتاب، مهما كان محتواه العلمي أو الأدبي عظيماً، أن يلعبه في ثقافتنا إذا بقي في نسخة واحدة مقفل عليها في إحدى خزائن مكتبة وطنية في الهند أو تركيا أو المغرب؟ وإذا كان هذا القول ينطبق على أي مخطوط نادر في أية ثقافة، فإن لبعض المخطوطات العربية خصوصية تستحق التوقف أمامها، لأنها تمثل ضياع كتابين اثنين بضياع الكتاب الواحد.

يؤكد الدكتور محمد حسان طيان أن عدم الالتفات إلى الكنوز المخطوطة يحرمنا من الاستفادة من علوم كاملة حواها تراثنا، ومن هذه العلوم ما يعرف باسم «علم التعمية» الذي قلما يدور الحديث عنه. وعلم التعمية هو تحويل نص واضح إلى نص غير مفهوم، باستخدام طريقة محددة، وحده من يعرفها يستطيع أن يفهم النص.

وفي كتابه «علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب -الجزء الأول- دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم» يروي الدكتور طيان رحلته الطويلة للبحث عن هذه المخطوطات وتحقيقها، بعد أن قرأ ما كتبه البروفيسور دايفيد كهن، وهو من كبار مؤرخي علم التعمية، عن تطوير المسلمين لمعرفة نظرية في استخراج المعمَّى، لكن ذلك لم يدرس بعد حتى الآن بشكل وافٍ، لأن التراث





بردية أدوين سميث

بردية كاهون

الإسلامي المخطوط لا يزال غير مكتشف في معظمه حتى يومنا هذا. وقد اعتمد البروفيسور كهن في كلامه هذا -كما يقول الدكتور طيان- على ما جاء في كتب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي الذي خص هذا الموضوع بباب سماه «باب إخفاء ما في الكتب من السر».

لقد حول الدكتور طيان شغفه بالكشف عن هذا العلم المفقود إلى جهد حقيقي: «لقد وجدنا المخطوط الضائع، عثرنا على مفتاح الكنوز، فما كان أشد فرحتنا.. أرأيت إلى الأعرابي يضل بعيره في الصحراء ثم يجده بعد طول يأس واغتنام؟ أرأيت إلى الأم تفقد فلذة كبدها في متاهة بعد طول بُعد وغياب؟.. كذلك كانت فرحتنا يوم لقينا مخطوطنا الضائع «مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز» لابن الدريهم الموصلي».

الفقدان النسبي للكتب

وعرفت كل المجتمعات عبر تاريخها فقداناً نسبياً للكتب. نقول نسبياً، لأن الكتاب لا يكون قد تعرض للضياع النهائي، بل لحظر نشره، بسبب تعديه على القيم المقبولة في هذه المجتمعات أياً كان شكل هذا التعدي.

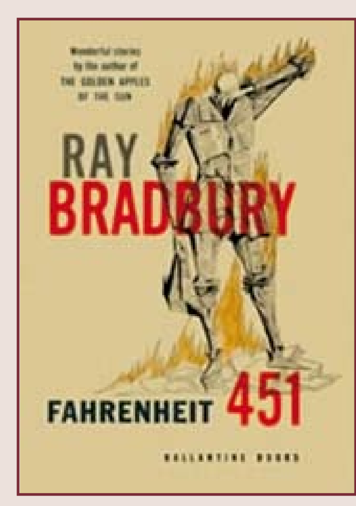
فكُتب ابن رشد التي كتبت أصلاً بالعربية أحرقت كلها في قرطبة. أما محتواها فقد وصلنا بفضل إنقاذ ترجمات لها إلى اللغة اللاتينية. وكتاب المفكر الفرنسي جان جاك روسو «اعترافات» الذي يدرَّس اليوم في الصفوف الثانوية في فرنسا، كان ممنوعاً في عام 1929م، لأنه «يخدش حياء فرنسا»!؟ الأمر نفسه ينطبق على أكثر الأدباء شهرة الذين حوصرت بعض أعمالهم لأسباب سياسية أو اجتماعية حتى في أكثر المجتمعات انفتاحاً، أو زعماً أنها كذلك. فمسرحية شكسبير «تاجر البندقية» على سبيل المثال لا تدرَّس في المدارس الأمريكية، ويمنع عرضها في مسارح برودواي، لأن الشرير فيها هو رجل يهودي، ويرى البعض أنها معادية عنصرياً لليهود.

على كل حال يبقى هذا النوع من فقدان الكتب مؤقتاً، لا يؤلم أحداً إلا في وقت محدد ومكان محدد، لأن عودة هذا النوع من الكتب إلى الظهور يمكنها أن تحصل بمجرد تبدل الأحوال التي أدت إلى حجبها.

ظلم ذوي القربى

ولكن، لو عدنا إلى كتبنا العربية والإسلامية التي فقدناها نهائياً، ولم نعرف بوجودها إلا لأن البعض أشار في وقت مضى إلى أنها كانت موجودة، لقلنا أنها تمثل خسارة فادحة. ولكن حجم ما فقدناه خلال قرون من الزمن، قد يشير إلى وجود خسارة أكبر في مكان آخر: إنها الكتب التي ضاعت من دون أن يأتي أحد على ذكرها، فلم يصلنا أي شيء عنها ولا عن مؤلفيها.

التعزية الوحيدة في عالم الكتب المفقودة تكمن في بارقة الأمل التي تتكرر من غير إيقاع محدد، عندما نسمع بين الحين والآخر عن عثور أحد الباحثين على مخطوط بالغ الأهمية في شأن معين في هذه المكتبة الوطنية أو تلك. ولو وضعنا جانباً الكتب التي فُقدت بالفعل تماماً ولم يبق منها أية نسخة في العالم، فمما لا شك فيه أن هناك كتباً عديدة نعتقد أنها مفقودة هي في الواقع موجودة في إحدى المكتبات الكبرى أو النائية. ولو تخيلنا أن الواحد من هذه الكتب قادر على أن يسمع صوت المتأسفين على فقدانه، لسمعناه بدوره يهتف لنا: «أنا هنا..»، ولكن جدران المكتبات الوطنية الكبرى وأبواب الخزائن المعدنية تتحالف مع تقاعسنا في السعي إليه، على خنق صوته وإبقائه في مكانه الذي قبع فيه لمئات السنين.



451 فهرنهايت-برادبوري





حرق كتاب 451 فهرنهايت-برادبوري

ماذا لو فتَّشنا أكثر؟



مكتبة الإسكوريال في مدريد تحتوي على عدد من المخطوطات الأندلسية

إذا كان الكتاب مفقوداً فكيف نعرف أنه كان موجوداً أصلاً؟ سؤال بسيط، لكن الجواب أبسط، وإن كان يطرح مشكلة ليست بسيطة.

نعرف عن الكتب المفقودة من كتب أخرى استندت إليها أو ذكرتها. وأشهر مثال على ذلك في الأدبيات الإسلامية العربية، أن السيرة النبوية الشريفة لابن هشام، تستند في معظم متنها إلى السيرة النبوية الشريفة لابن اسحق. وكان ابن اسحق أستاذ ابن هشام، لكن كتابه فُقد، وبقي لنا كتاب تلميذه.

ومن أشهر وأعظم الكتب التي تحدثنا عن كتب أخرى في التراث الإسلامي العربي، كتاب الفهرست، لابن النديم الوراق، الذي يعد سجلاً زاخراً عن الكتَّاب العرب الذين سبقوا عصر ابن النديم، أو عاصروه، فهو يسرد في باب كل كاتب، مجموعة الكتب التي وضعها، ومنها بالطبع كثير ضاع الآن، إما بالإهمال، أو بالحادثة الكبرى التي أودت بخزانة العرب في بغداد يوم غزاها التتار.

وفي بطون الكتب العربية الموجودة بين أيدينا وفي المكتبات المتخصصة إذن، يمكننا أن ندون قائمة طويلة من كتب كانت متداولة في يوم من الأيام.

أما معرفة الكتب التي لا تزال موجودة اليوم، ولو في نسخة وحيدة في متاحف العالم ومكتباتها التاريخية فضرورية، حتى نقارن بين ما كان، وما بقي، وتكون الكتب المفقودة هي حصيلة المقارنة بين القائمتين.

من أهم المواقع التي تحتوي على مجموعات كتب عربية قديمة في العالم اليوم، مكتبة الإسكوريال في مدريد، وفيها مخطوطات بقيت في الأندلس، بعد سقوط دولة بني النصر في غرناطة سنة 1492م. ومنها متحف الأرميتاج في سان بطرسبرج في روسيا، الذي يضم مجموعة أخرى مما اجتمع للروس خلال صراعهم مع العثمانيين في القفقاز والبلقان.

وتهتم مؤسسات عربية الآن بترميم الكتب والمخطوطات النادرة، حتى يتوقف نزف التراث في هذا المجال، ومنها المجمع الثقافي في أبو ظبي وعدد من الجامعات العربية. لكن اهتمام الأجانب لا يزال متفوقاً، ويدعو إلى شيء من الخجل، أن تكون لغيرنا حميّة تفوق حميّتنا لهذا التراث العظيم.

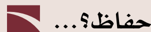


أبو حيّان التوحيدي يعتذر ويفسِّر

عندما أحرق أبو حيّان التوحيدي كتبه في أواخر عمره لقلة جدواها حسبما كان يرى، وضناً بها على من لا يعرف قيمتها بعد موته، كتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يوبخه على ما فعل. فكتب إليه أبو حيان رسالة اعتذار وتفسير لأسباب فعلته، رسالة طويلة نقتطف منها الأسطر التالية:

أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله في ثنيه لي: إن العلم -حفظك الله- يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم عاد العلم كَلَّاً على العالِم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه علاً، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار، ثم اعلم -علَّمك الله لخير- أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته. فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً (...).

...ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً (...) فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشتمون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها (...) إن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ؟...



غيض من فيض

من الكتب المفقودة التي لم تصلنا أية نسخة عنها، غير أننا نعرف أنها كانت موجودة ذات يوم بدليل ورود ذكرها في مؤلفات أخرى كمصادر ومراجع لها، نذكر على سبيل المثال طبعاً:

1 – تاريخ الفرغاني.
2 - تاريخ ثابت بن سنان.
3 - ديوان العرب وجوهرة الأدب وإيضاح النسب لمحمد ابن حمد بن عبدالله الأسدي.
4 - الجوهر المكنون لمحمد بن أسعد الجواني.
5 - نسب بني العباس لأبي موسى هارون بن محمد بن إسحاق العباسي.
6 - المنصف النفيس في نسب بني إدريس لمحمد بن أسعد الجواني.
7 - تاريخ السليل بن أحمد بن عيسى.
8 - تاريخ جمعة أبو إسحاق بن حبيب السقطي.
9 - تاريخ يحيى بن علي بن عبداللطيف بن زريق.
10 - أخبار البرامكة لأبي جعفر عمر بن الأزرق الكرماني.
11 - أزهار الأنهار لأسامة بن منقذ.
12 - سير الثغور لأبي عمر عثمان بن عبدالله بن إبراهيم الطرسوسي.
13 - القسم الثاني من جمهرة أنساب العرب.
14 - الكتاب المجدي في أنساب الطالبيين لابن الصوفي.

وغير ذلك الكثير مما لا يمكن عدّه.



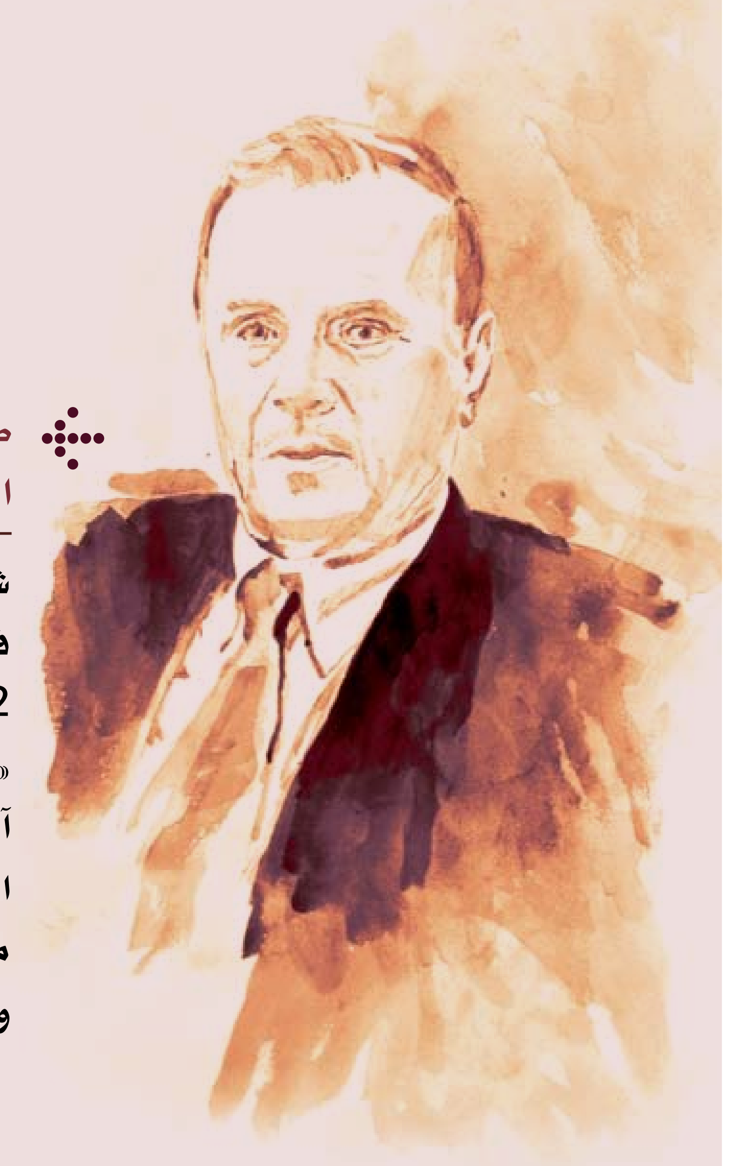
مخطوطات تنتظر من يكتشف بعض ما فُقد

ديوان الأمس



يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.

ديوان اليوم



ضيف العدد

الشاعر محمد علي شمس الدين

شاعر لبناني من مواليد 1942م في الجنوب اللبناني. صدرت له 12 مجموعة شعرية كان أولها «قصائد مهدية إلى حبيبتي آسية» وآخرها «الغيوم التي في الضواحي». ترجم شعره إلى أكثر من لغة أجنبية منها الإنجليزية والفرنسية والإسبانية.

ما كان أكثرها لنا وأقلها..



قال الجاحظ: «الشعر ديوان العرب». وإذا كانت الرواية في العصور الحديثة، قد تقاسمت مع الشعر هذا الديوان، فإن الشعر بقي مخزن حكمتهم وفضاء خيالهم، وصورةً من أجمل صُوَر تاريخهم وصيرورتهم في الوجود.
إن اختيار أزاهر متنوّعة من بستان الأمس الشعري، لا يدل عليه إلا بمقدار ما تدل باقة من الزهور على حديقة. وهي مختارات تدلّ على ذائقة شعرية، قد تلتقي أو لا تلتقي مع ذائقات شعريّة أخرى.

حين يتزاحم الجَمَال في ديوان الشعر العربي، وتتسابق قصائد الشعراء في إظهار ما خفي من محاسنها، يصير لزاماً علينا أن نختار منها المقاطع الأجمل، ذلك أن المختارات تفترض انتخاب بيت القصيد من كل قصيدة (كما سمته العرب)، أو (البيت- الملك)، على غرار «الكلمة- الملكة» بتعبير سعيد عقل. وهو اختيار صعب، ويحمِّلنا مسؤولية نقديّة، سوف نحملها على كل حال.

****

«عُلّقتُها عَرَضاً وعُلّقت رَجُلا
غيري وعُلّق أخرى غيرها الرَجُلُ»

هـذا البيت هو للشاعر الجاهلي أعشى قيس،وهو من قصيدة له يبدأها بالغزل ومطلعها:

«ودّعْ هُريرةَ إنّ الركب مرتحلُ
وهل تطيق وداعاً أيها الرجُلُ؟»

ويكشف البيت المختار، عن نسبيّة الحب، وعلاقاته الملتبسة، فعلى المسرح، وفي بيت واحد، رجل (هوالشاعر) يحب امرأة تعلقت برجل آخر، هو بدوره تعلّق بامرأة أخرى سواها.. وهكذا... إنه بيت شعر مسرحي شكسبيري بامتياز، كتبه شاعر جاهلي، في زمن مبكّر، وكشف من خلاله عن فهم عميق ودرامي لعلاقات الحب المتنوّعة العجيبة.. وهذه التعارضات يؤكدها الأعشى في بيت آخر من القصيدة نفسها فيقول:

«فكلّنا مغرَمٌ يهذي بصاحبه
ناءٍ ودانٍ ومخبول ومختَبلُ»

****

«أوقِدْ فإن الليلَ ليلٌ قرُّ
والريحُ يا مُوقِدُ ريحٌ صَرُّ
عسى يرى نارَكَ مَن يَمُرُّ
إنْ جَلَبَتْ ضيفاً فأنت حُرُّ»

هذان البيتان، من جيِّد شعر حاتم الطائي. كان من أهل نجد وزار الشام، وهو من أجواد العرب، بل أجودهم على الإطلاق، والأخبار المرويَّة عن جوده والتي روى الجاحظ منها حكايات غريبة، تضع الشاعر وأخباره وأشعاره في دائرة الأساطير.. والبيتان المذكوران يكشفان عن ظرف صحراوي في ليل بارد وريح صرصر، والتائهُ في الصحراء، يموت إذا لم يقصد النار التي يأمر حاتم عبده بإيقادها.. فإن جلبت ضيفاً فأنت حُرّ.
إن الصيغة المحكمة لهذين البيتين، تنطوي على معنى إنساني مبكر، لشاعر هو كنبع الماء في صحراء قاحلة.

****

«يقولون لا تبعُدْ وهم يدفنونني
وأين مكان البعد إلا مكانيا؟»

هذا البيت هو من قصيدة للشاعر الإسلامي مالك ابن الريب، قالها في رثاء نفسه، بعد أن لسعته أفعى وهو في خراسان، فاستشعر الموت فقال قصيدة يائية مفعمة بالحزن أكسبته شهرة بعد موته، وسلّطت الضوء على مأساته. وقد غدت القصيدة وصاحبها، من أهمّ أقنعة الشعر الحديث، فكتب الشاعر العراقي الراحل يوسف الصائغ، تأسيساً عليها، قصيدة من أجمل قصائد الشعر الحديث هي «اعترافات مالك بن الريب».

****

«إنّ التي زعمت فؤادك ملّها
خُلقَتْ هواكَ كما خُلقْتَ هوى لها
حَجَبَتْ تحيتها فقلتُ لصَاحبي
ما كان أكثرها لنا وأقلّها»

إنهما بيتان في الغزل لابن أذينة (747/130) مطبوعان (أي صادران عن الطبع وليس الصفة) ينسابان كجدول هادئ.. وهما موحيان، برغم هدوء الوزن وانسياب القافية،

بأكثر من صورة، وأكثر من حال ومعنى. وابن أذينة شاعر مقلّ، والبيتان المذكوران من أجود قليله في الشعر.

****

«قوم إذا استنبح الأضياف كلبهُم
قالوا لأمهم بولي على النار»

هذا البيت هو أشهر بيت قاله الشاعر الأموي الأخطل، في هجاء قوم جرير. والبيت مشحون بمعنى هجائي فذّ، ومصحوب بصورة تذكارية ثوريّة، لا تضاهيها سوى أبيات المتنبي في هجاء كافور.

****

«وما كان ذلك مدحاً له
ولكنه كان هجو الورى»

هذا البيت لأبي الطيّب المتنبي، قاله في هجاء كافور الإخشيدي. ويظهر سلطة الشاعر على القول وضده، بل تسلّطه على المعنى وتقليبه ظهراً لبطن، من خلال المعادلة العجيبة التالية: «مديح كافور = هجاء الناس». والمتنبي على كل حال، هو من أهم أصحاب سلطان الشعر في التاريخ. كان يطلبُ مُلْكاً ولكنّ ملكه كان في كلماته.

****

«نحن قوم مِلْجِنّ في زيّ ناس
فوق طيرٍ لها شخوص الجمال»

وهذا البيت هو للمتنبي أيضاً.. وهو بيت يكاد يكون مغموراً في شعر أبي الطيّب، لأنه مؤسس على الصورة الغرائبية، فهو بيت صُوَري، في حين أن شعر المتنبي حكمي ويستند إلى اللغة والمعنى. المتنبي يصف من خلاله نفسه وأصحابه أثناء سيرهم ليلاً في الصحراء... إن التجوّز اللغوي فيه في استعمال الشاعر لكلمة «مِلْجِن» داغماً حرف الجرّ «من» بكلمة «الجنّ»، ليس وحده ما يلفت الانتباه في هذا البيت، بل ما يلفت الانتباه فيه تلك الصورة الغرائبية العجائبية لقوم من الجنّ في زي ناس، يركبون طيراً لها شخوص الجمال.

****

«إنّ العيون التي في طرفها حَوَر
قتلننا ثم لم يحيينَ قتلانا
يصرعْنَ ذا اللبّ حتّى لا حراك به
وهنّ أضعف خلق الله إنسانا»

إنهما بيتان في الغزل لجرير. وجرير، على ما اتصف به من سلاطة اللسان في الهجاء، وقسوة الطبع، كتب غزلاً رقيقاً هو من أجمل الغزل العربي...في هذين البيتين تلك المفارقة القائمة في قوّة الضعف، وتلك القدرة التي لا تقاوم، الكائنة في الجوارح الجميلة للنساء «العيون التي في طرفها حَوَر».

****

«كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثنا
والسعد قد غضّ من أجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا»

في هذين البيتين، من قصيدة يخاطب فيها الشاعر الأندلسي ابن زيدون حبيبته ولاّدة بنت المستكفي، معنى من غبطة الحب، وجمال الوصال، بين اثنين ثالثهما الوصل، وكأنهما سَران يكتمهما «خاطر الظلماء»، ويفشيهما لسان الصبح... وهما من الشعر السعيد في الحب والوصال، على غير ما نعرفه من شعر العذاب في الحبّ، واللوعة والفراق، على غرار ما كان عليه قيس وجميل وسائر العشّاق العذريني المعاميد.

****

«يا من جَحَدَتْ عيناه دمي
وعلى خديه تورّدُهُ
خدّاكَ قد اعترفا بدمي
فعلامَ جفونُكَ تجحده؟»

إنهما بيتان من قصيدة أبي الحسن الحصري القيرواني الشهيرة، ومطلعها:

«يا ليلُ الصبُّ متى غدُهُ
أقيامُ الساعة موعدُهُ؟»

وهذه القصيدة هي من أجمل قصائد الحبّ في الشعر العربي وأرقّها، وألصقها بالذاكرة والوجدان، نظراً لرشاقة الوزن، وإحكام المعنى، وانهمار الأبيات الشعرية انهماراً ناعماً كأمطار الربيع.

****

«خليليّ فيما عشتما هل رأيتما
قتيلاً بكى من حبّ قاتله قبلي؟»

هذا البيت هو من أشهر أبيات الشاعر العذري. جميل بن معمّر وأجملها، قاله من قصيدة في حبّ صاحبته بثينة. وسر جمال البيت المفارقة التي انطوى عليها، بتبادل أدوار البكاء بين القاتل والقتيل.والموت (القتل) هنا في الحب وليس الحرب.. أما تبادل الأدوار فمن أجمل مفارقات الشعر.

****

«لم تزل ليلى بعيني طفلةً
لم تزدْ عن أمس إلا إصبعاً»

إنه بيت من قصيدة لأحمد شوقي على لسان قيس، في مسرحيته المعروفة «مجنون ليلى». وجمال البيت قائم على توقف الزمن في عيني العاشق.. قيس مشى به الزمان، كبر وهرم وشاب، أما ليلى فبقيت طفلة... هذا هو سر جنون قيس.

باب وشباكان*

محمد علي شمس الدين



"يا أختَ زينبَ" لو تدرين ما فعلتْ
عيناكِ بي لتولّى قلبَكِ الوجلُ"
(بيت شعر قديم)

(١)

بابٌ وشُبّاكانِ
لستُ أنا الذي كسرَ الزمانَ
فدارُ "زينبَ" لم يزلْ
يرتادُها الشعراءُ
تعلمُ أنني
أرتادُها لأشاهدَ النارَ التي
في أصلِها ماءٌ
وتعلمُ أنني
أمشي على السيفِ الرهيفِ
وأنَّ ما يجري هنا وهناكَ
ليسَ دمَ القصيدةِ بل دمي

(٢)

بابٌ
وأصعدُ كي أرى
زيتونةً خضراءَ

ونقطفَ من ثمارِ غصونِها ثمرًا
ولا غرابةَ حتّى نفكَّ اللغزَ
عن أوراقِها الخضراءِ
ينضحُ زيتُها نارًا
وإنّي قد مسستُ النارَ
فاستمعوا لما أروي
ولا تتوجّسوا شرًّا
فـ"زينبُ" (وهي أنقى من بياضِ الثلجِ)
صهّرها العذابُ
وأرهفتها شفرةُ السرطانِ
حتّى أنّها الذهبُ المصفّى
أو سبيكةُ إسمعْ
ولعلَّ "زينبَ" وهي أطهرُ من صنوبرةِ الجبالِ
تلوحُ من عليائِها
وتقولُ يا مرضُ اشتدَّ
وعليكَ أن تتهيّبَ الشعراءَ والعشّاقَ
يا مرضُ استرحْ على أعتابِنا
وتعالَ نطعمْكَ الجميلَ من الكلامِ
ومن قليلِ طعامِنا

* القصيدة حافظنا عليها بخط يد الشاعر

شعراء

ماذا يملكون سوى الكلامِ

على موائدهم ؟

ولعلّهم في البدء كانوا يلعبونَ

وأُرسلتْ من بعدهم كلماتهم تسعى

كما تسعى الغزالة في الحقولْ

ولعلّها جفلتْ قليلاً

واستطاعتْ حينما تعبتْ

فلم أسمعْ أنيناً في سرير الموت

لكنّي رأيتُ أظافراً زرقاءَ

تذهب في غدائر شعرها

ولعلّني أصغيتُ

قالتْ : لستُ جاهزةً لتأخذني

فكيف دخلتَ

ومن هداكَ إلى منازلنا

ومَنْ كانَ الدليلْ ؟

قالَ الدليلُ إليكِ شباكان فوقَ يديكِ

مرفوعان من غُرْدينيا الضحكاتْ ....

وسمعتُ أعراسَ تدور هنا

على هذا الرصيف المشرقيِّ من الحياةْ

قالت : تمهّلْ كي أُتمّمَ قصيدتي

وأُعيد فيض أنوثتي لله ....

....

....

مازالت تدور الأسطوانة

في هواءٍ فارغٍ :

ويدور بينهما الحوارْ

ورأيتها

بدأتْ تفكّ ضفائر الكلمات

تنشرها على مَهَلٍ ،

ويرتحل النهارْ

الجنوب ٩/ ٢٠٠٨







بموازاة عمله جيولوجياً في التنقيب عن البترول، فرض الكاتب المصري محمد العشري نفسه على الساحة الأدبية منذ أن حاز في العام 2001م جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية للرواية.

آخر أعمال العشري الأدبية هي رواية «خيال ساخن» التي يتناولها بالعرض هنا محمد العمودي*، ويختار لنا بعض مقاطعها كعيِّنة معبِّرة عن خيال أدبي يحسب حسابه، رغم أداء لغوي وأسلوبي قد يكون مثيراً للجدل.

«خيال ساخن»

أرجوحة القارئ بين الأساطير والواقع

إضافة إلى الأحداث التي ترويها، تقدِّم رواية «خيال ساخن» إلى القارئ سلسلة من الأحاجي التي قد يستمتع البعض بالعمل على حلولها السهلة الممتنعة.

وهذه الرواية التي فازت بجائزة صالون إحسان عبدالقدوس فور صدورها قبل أشهر قليلة، هي من تأليف مهندس النفط المصري محمد العشري. أما عنوانها المراوغ فيزعم سخونة لا تحتويها الرواية في الواقع بقدر ما تقدِّم خليطاً من الحقيقة

* كاتب سعودي

والخيال والفانتازيا، خليط لا يتضمَّن أية سخونة بقدر ما يحمل فلسفة تبعث على التأمل الهادئ والتفكير.

تقع الرواية الصادرة عن الدار العربية للعلوم في بيروت بالتعاون مع منشورات الاختلاف في الجزائر ومكتبة مدبولي في القاهرة، في مئة وعشر صفحات مقسَّمة على أربعة فصول رئيسة، هي على التوالي: الأمل، الهيام، النافذة، والعناق. وتعيد الرواية تشكيل أساطير جديدة معتمدة على التراث الشرقي بشكل عام، والمصري بشكل خاص.



تبـدأ الروايـة بساهـر، الرجـل الذي رأى فـي طريقه مخلوقاً أسطورياً (السلعوة) يرهب تاجراً وأسرته في عقـر دارهم، فقـام بقتله بشجاعة تركـت رب الأسرة ومـن ورائـه أهل الـدار مفتونين بالبطـل، لدرجة قرر معهـا التاجـر تكليف نحـات ليخلِّـد ذكـراه ولينصب تمثالـه وسط حديقـة المنزل. ويعود ساهـر إلى دياره مـع الوعـد بـأن يـزور التاجر من حيـنٍ لآخـر، ولكنه لا يعـود. ورغـم ذلـك تبقـى أسطورتـهُ حيـة بين من لمستهم شجاعته وأعادت لهم حياتهم حرة كما كانت. وتستمـر الرواية مع ساهر، وابنه من بعده الذي أحبته جمانة ابنة التاجر.

يختار العشري في «خيـال ساخن» أن يستكشف عدة صور للبطل في وجداننا الشعبي. البطل الأمين الذي يحارب قوى الشـر ببسالة وينتصر عليهم مهما كلفه الأمـر. ونحن إذ نرى البطل، لا نستطيع إلا أن نجرِّده من إنسانيته ونسبغ عليه هالة من نور تغشى أبصارنا عـن عيوبـه، ولهذا، نتلقـى صدمة مـرّة حينما ينزل البطل مـن عليائه ويتعرَّض لما يتعرض لـه الواحد منا، مـن إجلال الآخرين لـه أو إبخاسهم قدره، من التكريـم أو عكسه، من التقبل أو الرفض. وعلى مدار الرواية نجد بصمات واضحـة لشخصيات أثرت في الوعي الجمعي المصري، سواءً أكان ذكرها صريحاً أم تلميحـاً، ابتداءً بأبي زيد الهلالـي وانتهاءً بحسن الحلـو مروِّض الأسـود في السيـرك. ولكـن حالما نرى البطل وقد أصبح واحـداً منا تبدأ الازدواجية.. فالبطـل هو البطل، وتصرفـه الأوحد الذي رفع قدره في أعيننا وخلق منه البطل لم يتغير ولم تشبه شائبة، ولكننـا نحن اخترنا أن نراه بعين أخرى، حالما عاش بيـن ظهرانينا وأصبحـت بطولته تلك سيفـاً مسلطاً على عنقه.

في الرواية، يظـل التاجر منتظراً عـودة ساهر البطل لسنـوات وسنـوات. ويذكي انتظاره هـذا عشقاً للرجل

فـي قلـب ابنته جمانـة. ولكن مـا إن يعود ابـن البطل لتقـع الفتاة في غرامه، حتـى ينسى التاجر بطولة أبيه ويطالبـه بأن يكون مجرد عريس غني آخر تعيش فتاته الأثيرة في كنف ثروته.

رواية تستكشف دور البطل والولع به، وتلامس وتراً حول دور النيل في حياة المصريين

الولع بالبطل

إن الكاتـب يستكشـف في الوقـت نفسه ولع المصرييـن بالبطـل وانتظارهـم للمنقـذ ليحـل مشكلاتهم التـي يعانـون منها ككل، ومشكلاتهـم الشخصيـة علـى اختلافهـا. وكأنما ظهور المنقذ هذا هو الحل السحري الذي تشفى به القلوب من أسقامها.

نـرى هذا جلياً في حديث العشري الخاطف الساحر عن البستاني العجوز الذي يبيت في حجرته وحيداً بعد وفاة زوجتـه منذ زمن وهجره ولـده الذي سافـر بعيداً وظن أن الرسائـل المتقطعة تغني والده عـن حضوره.. دموع البستانـي لـم يمسحها سوى حضـور ساهـر الذي قتل السلعوة وواسى البستاني العجوز في وحدته.

في هـذه الروايـة، يمس العشـري وتـراً حساساً لدى المصرييـن أيضاً في حديثه عن النيل ودوره في رسم حياة المصريين. فلولا وجود النيل، لانتشر النـاس في الصحراء الواسعة بدلاً من تركها ينهش فيها الجفاف والخلاء من كل جانب، وربما لتغيرت طبائعهم ليتخلوا عمـا هم عليه الآن من قبول بالأمر الواقع وانتظار من يقوم بالتغيير بدلاً منهم.

وبيـن هاتين الرؤيتيـن، يطرز الراوي حـواف روايته بتسـاؤلات صامتـة حول البطـل وماهيتـه. هل الابن الـذي لم يذكر اسمه فـي الرواية هو امتـداد لبطولة الأب ساهـر؟ أم أنـه هو البطل الحقيقـي وساهر هو بدايـة تكوينه؟ هـل البطولة عمل يعتمـد على المزاج والصدفـة والاستجابة التلقائيـة لحدث ما كما حدث مـع ساهر، أم هو رحلة مقصودة مليئة بالهمة والعزم عـن الإجابة عن أسئلة فقـدت إجاباتها كما حدث مع الابن؟

بين المتغير والثابت

بيـن المتغير الممثل في الأب وابنـه، وقلقهما المستمر رغم تبايـن أسبابـه، والثابت المتمثل فـي حب جمانة البـريء الخالص للابـن والأرض التـي تحمل الجميع علـى صدرهـا الرحـب، يجد القـارئ لخيـال العشري الساخـن نفسـه مطالبـاً بوضع تصنيف مـا للأحداث التـي تمر عليه، ولهـذا قد لا يجد القـارئ الباحث عن التسليـة الصرفـة ضالته في هذه الروايـة، بينما يقدر القارئ الباحث والناقد هـذه التجربة في سياق أعمال العشري ويثمنها.

محمد العشري في سطور



روائي وكاتب مصري من مواليد نوفمبر 1967م. يعمل جيولوجياً في مجال البحث والتنقيب عن البترول.
صدرت له مجموعة من الروايات منها «غادة الأساطير الحالمة»، و«نبع الذهب»، و«تفاحة الصحراء»، و«هالة النور».
حصل على جوائز عديدة من بينها جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية في الرواية لعام 2001م.
وجائزة صالون إحسان عبدالقدوس لهذا العام على آخر أعماله «خيال ساخن».

الأمل..
الفصل الأول من الرواية

في حديقة البيت، رأيت كتلة من شجرة متحجرة، باقية من الأزمنة الجيولوجية البعيدة، وتقلباتها التي رسَّبت محاليل الرمال المنصهرة في خلايا المادة الحية، تاركة بقايا الكائنات العملاقة، كحفريات متناثرة تدل على الحياة القديمة. كتلة صخرية مغبرة، تحتفظ بتفاصيل الحياة النباتية، تبدو كشجرة لا ينقصها إلا الماء، عثر عليها تاجر الغلال، في رحلة له في الصحراء، ساعده رفيقاه البدويان على وضعها في صندوق عربته، زرعها بين الحشائش في الممر الأمامي بحديقة بيته، ذي الأشجار الضخمة، الواقفة في شموخ على الجانبين. من آنٍ لآخر، يقف أمامها مفكراً، يمرر بصمة سبابته على عروقها الحادة، فتلين تحت لمسته. يعيد إليها الذكرى وهو يستشعر الحياة التي تركتها، وحولت أخضرها إلى جفاف وتحجر.

فهناك في الزمن البعيد حين بدت محاولات الهواء لتحريك أغصانها وفروعها مستحيلة، توارت في باطن الأرض وانطمرت إلى أن تغيرت الدنيا ومن عليها. أزاحت أعاصير الرمال التي تغطيها، من جديد أطلّت على المكان الذي ولدت فيه، لم تجد غير الفراغ يحيط بها، والشمس تلهبها بنارها، حتى وجدها ذلك التاجر في مكان ليس لها. فلا طيور تحط على رأسها، لا أغصان بأوراق خضراء ملتصقة بها، لا حيوانات تتجول في حضورها، ولا حشرات تتسلق ساقها. نقلها التاجر إلى بيته، بين أبناء جيل آخر من الأشجار الحية، وأحفاد تنمو تحت ظلها، على العشب الأخضر الندي، دبّت الروح من جديد في لحائها، وتسربت إلى لُبِّها المحفوظ في تابوت صخري.

وفي ليل معتم، هرب فيه القمر من مكانه، سُمِعَ صوت يقترب منها، شاهد آخرون من سكان الحي حيواناً غريباً يقفز في الممر، ذا أرجل رفيعة، وجسم نحيل، يحمل فريسة تئن بين أنيابه، يعدو تجاه الصخرة، متخطياً البوابة الحديدية المفتوحة. أتى بها ليأكلها فوق الصخرة في ذهول ممن يراه. أصبحت الصخرة مرقده، انحصرت دنيته في نباتات الحديقة من حوله.



الكسل والتفكير العميق في أمر ما يشغل ذهن ذلك الحيوان، جعلاه يكتفي بأن ينشب مخالبه بين الحشائش ليندفع الماء إليه. يشرب ويمدد رقبته أمامه، دون مبالاة بالرعب الواقع في قلوب أصحاب البيت المحبوسين في داخله.

بعد أيام، نسى اقتناص الفرائس، استوطن عندهم، اكتفى بأكل الصفادع، والفئران، والحيوانات التي تضل طريقها وتقع بين قدميه، كما هجر المحبوسون في رعبهم الدنيا، وانكمشوا داخل الجدران. بات عليهم أن يبحثوا عن وسيلة تخلصهم ممن قطع عليهم الطريق.

***

بينما الحال هكذا، مَرَّ ساهر من أمام البيت، ظن أن الحيوان مُربّى لحراسة سكان البيت، أو أن سيركاً ما على وشك أن يبدأ عروضه. دفعه الفضول إلى الوقوف طويلاً، مرتكناً بكوعيه على حافة السور. غازل مبتسماً قوة الحيوان النائمة في استسلام ولا مبالاة له، أتى بحركات عشوائية في الهواء، وأصوات مختلفة شكّلها بلسانه وشفتيه، وجَسّمّها بيديه.

بدأت الحقيقة الغائبة تتكشف أمامه، ظهرت خطوطها الأولى في الأيدي الممتدة إليه من النافذة العلوية، ورؤيته وجه البنت الصغيرة التي تتمسح بالزجاج، وهي محمولة على يد امرأة مذعورة، تلمّ لها شعرها الأسود الطويل بيدها الحرة.

تأكـد أن الحيـوان الغريب، تقترب هيئته مـن السلعوة التي سمـع عنهـا، ولم تقـع عينـاه عليها مـن قبل، يُرهـب أهل البيـت، وأنهم في انتظار مـن ينجدهم، ويدفع عنهم أنياب الافتراس، حيـن أتاه صوت واهـن من الغرفـة الملاصقة للبوابة الحديدية التي يقـف أمامها. وقف ينظر في عينيه، طالـت وقفته، لاحـظ أنه لا يبرح الصخـرة، ولا ينام، دائم الترقـب والحـذر، انشغل بـه وأصابعـه تعبث بشعـر ذقنه النابتـة، التـي لـم يحلقها منـذ يومين، قـرر أن يدخل معه فـي عـراك. فها هي فرصته في أن يعجـن فعله بدهائه، أن يرتدي قلادة الشجاعة على صدره، أن يثبت لزوجته أنه لم يكن خائباً في سعيه وراء الدور المناسب له في الحياة، وأن كرهه وظيفته الرتيبة في الجهاز الحكومي، من أجل أن يجد ذاتـه المنطلقة، لم يكن مجرد خيـال، أو وهم سيطر عليه. فقد كانت لديه رغبة في أن يعمل مدرباً للأسود والنمور في سيرك المدينة، لكنه لم يجد الفرصة المناسبة. وعناد أبيه معه جعلـه يمتثل له، ينتظم في عمـل روتيني، يستهلك منه النهار بلا فعل يقنعه بجدوى ما يفعل.

***

مطوحاً رأسه يميناً وشمالاً، عاصراً تفكيره، يستجدي فكرة يبدأ منهـا، دلف من البوابة، ومنها إلـى الغرفة الصغيرة، وجـد فأسـاً في ركنهـا، رأى رجلاً هرماً متكومـاً في رعب، سأله وهو يخفف من خوفه:

- ماذا بك يا شيخ؟!
- السلعوة تحبسني هنا.

جلس إلى جانبه، بدأ يشد أطراف الحديث في الاتجاه الذي يريده، باعثاً الطمأنينة في قلبه. أراد أن يعرف كل التفاصيل مـن الوحشـ الراقد في حديقة بيت علـى أطراف المدينة، تاركاً مجاهل الجبـل خاوية منه. استمع إليه وهو يحاول أن يتماسك، مشيراً بيديه المرتعشتين تجاه الحديقة.

***

قَدّرَ المسافة من الحجرة إلى الصخرة، اختمرت في رأسه خطة، أمسك الفأس بقبضته، وبدأ في التنفيذ.

***

أصحاب البيت في الداخل لم يتوصلوا إلى طريقة للخلاص، وكلما مر الوقت بدوا مهمومين ومشلولين عن إمساك شيء ينجدهـم، اتجهت قلوبهم إلى السمـاء وهم يسترجعون في ذاكرتهم مـا اقترفوا من أفعال، ندموا على الأشياء التافهة التـي فعلوها ويفعلها جميع الناس، دون أن تدرج في قاموس الإثم، بدت في ضمائرهم شديدة الإيلام.

استغرقـوا في ذلك وقتاً طويـلاً، أخرجهم فجأة من موتهم صـوت عـراك شديد فـي الحديقـة، اقتربوا مـن النوافذ، نظروا باندهاش وصياح.

***

وجـدوا رجلاً قـوي البنية، يصـرع السلعوة فـوق الصخرة ممسكاً بفكيها، أبعدهما عن بعضهما، جذبهما في اتجاهين مختلفيـن بقـوة كبيرة، جعلـت الحيوان يقـور ويرفع صوته مزمجراً.

أخـذا يتقلبان فوق بعضهما. في النهاية، استطاع الرجل أن يمزقه إلـى نصفين حيين، وضعهما تحـت قدميه، وضغط بشدة.

مشهـد قـوي جعلهـم يفغـرون أفواههـم، وروح الحيـوان اللاهثـة تئن متألمـة، تصعد من اللحم الحـي الملقى فوق الحشائش.

خرجـوا إليه مندفعين، أدخلوه إلى البيت وهم يتعجبون من قوتـه، ومن عراكه مع حيوان كاسـر لا يُقدر عليه. حاصروه بالأسئلـة والفـرح يحركهم، ويضـخ الحياة مـن جديد في أوصالهم:

.. كيف وصلت إلى السلعوة؟
.. ألم تخف منها؟
.. كيف واجهتها؟
.. كيف تمكنت منها بتلك السرعة؟
.. لم واجهت الموت لأجلنا؟

ظـل فـي صمتـه، تحـت حصـار أسئلتهم ودهشتهم، محاولاً استيعاب ما فعله..



..صدر للكاتب أيضاً

قول آخر

ومضتان في فضاء الإبداع

د. أحمد زياد محبك*

تتلألأ اليوم في فضاء الإبداع ومضتان، وفي الوميض ما هو جديد ومدهش، وفيه التميُّز والاختلاف، وفيه السرعة والإيجاز، كشرارة البرق، تنير وتصعق، وهذه هي سمات هاتين الومضتين، فما هما؟

الومضة الأولى هي قصيدة النثر، وقد ثار حولها جدل ولا يزال، كيف هي قصيدة؟ وكيف هي نثر؟ ونسي القوم أن التركيب يعني ولادة ما هو جديد ومختلف، ولا بد لفهمه والتعامل معه من امتلاك معايير ومفاهيم تناسبه وتنبع من داخله. وعلى الرغم من الرفض، تبوّأ هذا النوع مكانه، وتبيّن أن كتابة قصيدة النثر لا ترجع إلى ضعف أو استسهال، فهي صعبة ومتميِّزة، وقد استقرت، وكتبها شعراء كثر، ربما كان أشهرهم محمد الماغوط، ولكنه ليس آخرهم، وتأكد أنها ليست على حساب شعر التفعيلة أو قصيدة البحر، وأنها لا تلغي أياً منهما، بل تتكامل معهما، لتخلق معهما تطويراً في الشعر، ففي عصر لاهث سريع الإيقاع صاخب بدت الحاجة إلى شعر هامس هادئ. وفي عصر سريع التغير متقلِّب مفاجئ مدهش، بدت الحاجة إلى شعر لا يكرر إيقاعاً ثابتاً، ولا يخضع لقوانين وقوالب، وكانت قصيدة النثر، بما فيها من مفاجأة وإدهاش وتوتر، مثلها مثل هذا العصر الصاخب المتوتر.

والومضة الثانية هي القصة القصيرة جداً، وهي لا تنافس الرواية ولا القصة القصيرة، ولا تقوم على حسابهما، ولا تحاول إلغاءهما، بل تتكامل معهما، وهي تنتمي إلى السرد، وقوامه الحدث والشخصية والزمان والمكان، وما يكون من تقانات وأساليب، ولكنها تتميَّز عن غيرها بالقصر الشديد والاختزال والتكثيف، لا في عدد الصفحات أو الأسطر أو الكلمات، بل في كل شيء، وهي أبعد ما تكون عن الاسترسال والإسهاب والتطويل، ولا بد فيها من الإدهاش والمفاجأة وتقديم ما هو غير متوقَّع وبأساليب جديدة، وبسرعة وتحوّل وانقلاب واختلاف وبإيقاع سريع، كل شيء فيها هو مثل ما في هذا العصر، وهي مثله ترفض كل ما هو جاهز أو ثابت، وقد تعرضَّت في البدء للرفض، ولكن سرعان ما أقبل عليها الأدباء، لا عن عجز أو استسهال أو ضعف، بل لما فيها من تميّز؛ فملأت الرفوف مجموعات خاصة بالقصة القصيرة جداً، وملأت الصحف قصص قصيرة جداً، بل بدأت تُقام لأجلها ملتقيات، وتصدر عن المجلات أعداد خاصة بها، كالعدد الخاص بالقصة القصيرة جداً من مجلة «المجرة» في المغرب العربي، وكالملتقى الخاص بالقصة القصيرة جداً الذي يقام كل عام منذ سنوات ست في مدينة حلب بسوريا، يحضره مشاركون من الوطن العربي، وقد اقترح القاص الليبي جمعة الفاخري تسمية حلب عاصمة القصة القصيرة جداً لأجل هذا الملتقى، ولأن كاتباً من حلب أصدر أول مجموعة قصص قصيرة جداً عام 1979م عنوانها الرصاصة، وكان قد نشر في مجلة الطليعة عام 1966م قصة قصيرة جداً عنوانها الفدائي، وهو الشاعر والقاص محمود علي السعيد.

وللومضتين أصول وجذور، لمن يصر على البحث عن الأصول والجذور، ففي فن الخبر العربي جذور القصة القصيرة جداً، ولها أشباه ونظائر في كتب كثيرة، ومنها كتب الأصفهاني والجاحظ وأبي علي القالي، وتبقى القصة القصيرة جداً أصيلة بحد ذاتها؛ لأن الأصالة لا تعني العودة إلى الأصول بقدر ما تعني الابتكار والخصوصية والاستقلال، وفي قصيدة النثر جذور ضاربة في النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي وابن عربي والنفّري، وبعض ما كتبوه شعر قائم بحد ذاته، وإن كان من غير وزن، وليس بالوزن وحده يقوم الشعر.

وبهاتين الومضتين يتحدى المبدع حدود النشر وأسواره ومشكلاته، فيرسل ومضاته لتعبر الآفاق في عالم أضحى رحباً واسعاً، لا حدود فيه ولا سدود بفضل الشبكة العالمية والنشر الإلكتروني. وما تطوُّر هاتين الومضتين واستقرارُهما وانتشارُهما إلا نتاج هذا الفضاء.

هما ومضتان، فيهما من الومضة كل صفاتها، وفيهما بخلاف الومضة الاستمرار والتطور، لأن المجتمع الساكن الراكد بحاجة إليهما، وقد غدت الومضتان ومضات، بل مصابيح ومنارات.

* أستاذ الأدب العربي بجامعة حلب في سوريا



الأحمر

لـم يكتسـب أي لـون الـدلالات التـي اكتسبهـا اللـون الأحمر.

إنـه لون جميل بالنسبة إلـى الكثيرين، والبعض يراه أجمل الألوان على الإطلاق. مع ذلك يبقى جماله في أسفـل سلم خطاباته المختلفة التي تتبدل وتتناقض بالانتقال من شيء أحمر إلى آخر باللون نفسه.

نحبـه فـي الـورد، ننصـاع لأمـره فـي إشـارة المـرور، نتألم لرؤيته على الجرح، نحترمه في رمزيته لدماء الشهداء، ويحبطنا في البورصة...

تزيّـن بـه الأباطـرة والملـوك والمحاربـون لـردح طويـل مـن التاريـخ، أمـا النسـاء.. فطـوال التاريـخ. وكمـا استُخـدم هـذا اللـون في أفـراح الـزواج في بعض الأماكـن، شَـكل جـزءاً مـن طقـوس دفـن الموتـى في أمـاكـن أخـرى. واستُخدم في الجذب كما في التنفير، وفي الاستقطاب كما في الطرد.

فريـق القافلـة يأخذنا فـي رحلة إلى عالـم هذا اللون الفريـد.. الأحمـر الـذي يتعـدَّى كونـه مجـرد لـون ليصبح أقرب إلى أن يكون سلطة.

الأحمر..

أقرب إلى أن يكون سلطة



تبدأ علاقة الإنسان الواعية باللون الأحمر منذ أيام الطفولة. فكلنا نذكر الخط الأحمر الذي كان يقسم صفحات دفاترنا المدرسية إلى قسمين: قسم أكبر نكتب عليه فروضنا، ويحده هذا الخط الذي يُمنع علينا تجاوزه، لأن القسم الأصغر مخصص لملاحظات المعلم المصحح.. ونكبر، ليطالعنا يومياً اللون الأحمر، من جملة الأشياء المختلفة التي يطالعنا بها، بالخطاب نفسه من خلال إشارة المرور التي تقول لنا باللون الصامت ما كان يقوله لنا الخط الأحمر على الدفتر: «لا تتجاوزني». وهذا الانصياع الإنساني لخطاب هذا اللون يعبِّر بشكل عيني عن قبول الإنسان بالشروط اللازمة والمفروضة للانتماء إلى مجتمع منظم بقوانين وأعراف وتقاليد تضبط أداءه.

ولكن هذا الخطاب الذي سنعود إليه بالتفصيل لاحقاً، هو على أهميته وضخامته أصغر بكثير من أن يختزل عالم اللون الأحمر.

فخلال إعدادنا لهذا الملف، رحنا نبحث على الإنترنت عن الأشياء الحمراء، وأسماء العلم التي يدخل الأحمر فيها. وقبل أن ننتهي من تلقيم الجهاز أية كلمة بعد كلمة أحمر، كان محرك البحث يعرض علينا سلسلة لا تنتهي من الاقتراحات.فأي شيء تقريباً يستتبع اسمه كلمة «أحمر»، يصبح اسم علم لشيء معين، مثل:

«اللباس الأحمر»: عطر فرنسي للرجال من إنتاج دار غيرلان.

«الجوارب الحمراء»: فريق بيسبول في مدينة بوسطن الأمريكية.

«القمصان الحمراء» ميليشيا مسلحة في إيطاليا خلال عهد موسوليني.

حتى القهوة المعروفة بسواد لونها، تركية كانت أم أمريكية، تصبح اسم علم لشخص بعد إضافة كلمة أحمر إليها: «ريد كافيه»، مغني أمريكي شاب من جيل الهيب هوب..! فهل يمكن للقارئ أن يتصوَّر عدد الأبواب التي يمكن أن يجدها تحت اسم «الوردة الحمراء» مثلاً؟

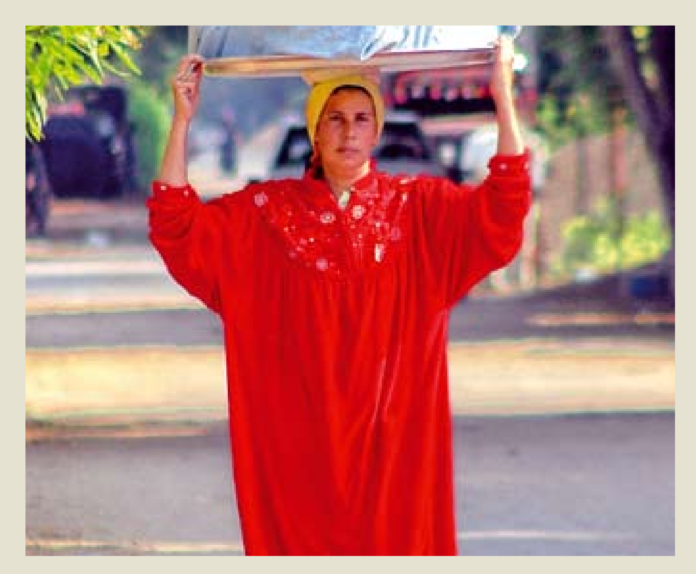
وقعه على العين

قبل الغوص في تعدد استعمالات اللون الأحمر وتنوع خطاباته، لا بد من التوقف أمام بعض مميزات هذا اللون واختلافه عن باقي الألوان، انطلاقاً من مواصفاته العلمية.

اللون الأحمر هو الجزء من ألوان الطيف الذي لا تستطيع بعض الأجسام أن تمتصه عندما يسقط عليه الضوء، فتصده وتعكسه بعيداً عنه، فتراه العين. ويتراوح طول الموجة الضوئية التي تصدها الأشياء «الحمراء» ما بين 630 و700 نانو متر، وهي أطول الموجات الضوئية التي يمكن للعين أن تراها، لأن أي ضوء يتجاوز طول موجته هذا الرقم، يسمى «أشعة ما تحت الحمراء»، وهذا ما لا يمكن للعين أن تراه.

ويرى العلماء أن طول موجات الضوء الأحمر، هو ما يفسِّر قدرته على الوصول إلى البصر ومنه إلى الدماغ، أكثر من باقي الألوان، خاصة











خـلال ضوء النهار الذي يسقـط على أشياء كثيرة. فاستعـداد الدماغ للترحيب بالموجـات الأطول من غيرهـا، هو ما يجعـل اللون الأحمر أقـدر من غيره علـى إثارة الانتباه. وهذه الحقيقـة العلمية اكتشفها الإنسـان منـذ قـرون طويلـة بالفطـرة وبالتجربـة، قبـل ظهـور أدوات القياس والاختبار الحديثة.

ومـن دون «ثقافـة الأحمـر» التـي صاغتهـا المجتمعات خـلال التاريخ، فمـن شبه المؤكد علميـاً أن لهذا اللون بحد ذاته تأثيرات واضحة على الإنسان، بغض النظـر عن الشـيء الـذي يصطبغ بـه. فهو يسرع التنفس ونبض القلب، ويرفع مستـوى ضغـط الـدم. وإذا أضفنـا إلى هذا الاستعـداد المميـز للتفاعل بين جسـم الإنسان واللـون، الأدوار التـي لعبتها الثقافة ونـدرة اللون الأحمـر وصعوبـة الحصـول عليـه، لعرفنـا السبب خلـف طغيان حضـوره، حيثما احتاج الإنسـان إلى أن يلـون خطابه، حتى وصل الأمر بهذا اللون إلى أن يصبح خطاباً بحد ذاته.

موطن حشرة الأحمر الأرميني، وأبرز استعمالاته في السجاد العجمي الفاخر



الأحمر في الطبيعة

الطبيعـة ليست كريمة جداً في عرض الأحمـر أمام عيوننا. لا بل يمكن القـول إن هذا اللون هو أندر الألوان في الطبيعة، ويكاد يقتصر حضوره على بعض أنواع الزهور والفاكهة والحجارة الكريمة.

ففـي الزهور، هناك شقائق النعمان التي تنبـت في البراري بعد موسم الأمطـار، وذات العمـر القصيـر جداً. وهنـاك أيضاً القرنفـل الأحمر والـورد الأحمـر الذي أصبح فـي المجتمعات الغربية رمـزاً للتعبير عن قوة العاطفة، خاصة من خـلال فصيلة منه المسماة «بكارا» ذات اللون الأحمر الخالص.

وفي عالم الفاكهة تعرف الفراولة والكرز والبطيخ وبعض أنواع التفاح... ومن الحجارة الكريمة نعرف المرجان والياقوت والعقيق والغارنيت..

ومـن عالم الحشـرات، قد تكون الخنفساء الحمـراء المرقطة الحشرة الوحيدة التي اكتسبـت مودة الإنسان والأطفال بجمال شكلها وبراءتها.

والواقع أن الإنسان عندما يتحدث عن الأحمر في الطبيعة، فإنه يخفض سقف شروطه لوصف الشيء بأنه أحمر. فبسبب جمال هذا اللون وقلة توافره، صرنا نصف بالأحمر أشياءً هي في الواقع برتقالية أو بنفسجية أو بنية اللون. فالتراب الصلصالي ليس أحمر على الإطلاق، بل يتراوح لونه ما بين البني والبرتقالي، ومع ذلك سماه الإنسان بالأحمر. وأكثر من ذلك، أصبحت «حمرة» الأراضي الصلصالية أسماء علم لمواقع كثيرة، تبدأ بقصر «الحمراء» في الأندلس، وتنتهي في «شارع الحمراء» في بيروت مروراً بعشرات القرى والبلدات العربية التي تحمل اسم هذا اللون في المغرب كما في المشرق. وأكثر من ذلك، ففي البحر الذي يطغى على سطحه اللون الأزرق، كان يكفي أن تقع العين على بعض الشعاب المرجانية فيه، ليكسف لونها الأحمر كل الألوان الأخرى فيسمى البحر بأسره باسم «البحر الأحمر».

ومن أعماق البحار إلى الفلك، فقد سمى الإنسان المريخ بـ «الكوكب الأحمر» لأننا نراه من الأرض كذلك، علماً بأن حمرته الحقيقية لا تزال موضع شك وتكهن. كما رأى بعض الأقدمين أن الأحمر هو لون الشمس (عند المغيب)، وأن الشمس هي مصدر كل ما هو أحمر على الأرض...



إبراهيم صبّاغ من مكة المكرمة

تاريخ الصباغ الأحمر أسطورة، وحرب وكيمياء

نظراً لافتتان الإنسان بهذا اللون أكثر من غيره، ونظراً لقلة وجوده في الطبيعة، فقد سعى جاهداً إلى صناعته واكتشاف الصباغ الذي يمكنه أن يوفر أشياءً حمراء كثيرة أهمها أقمشة الملابس.

استناداً إلى إحدى الأساطير، اكتشف الصباغ الأحمر لأول مرة في مدينة صور الفينيقية، عندما كانت ابنة ملك المدينة تنزّه كلبها على شاطئ المدينة، وأكل الكلب حلزوناً بحرياً من نوع «الموريكس»، فاصطبغ فمه بلون أحمر أرجواني، انبهرت به الأميرة، وطلبت إلى والدها أن يصنع لها ثوباً بهذا اللون. وهكذا بدأ استخراج الأحمر القاني من أصداف الموريكس.

وعلى الرغم من أن هذه الأسطورة ليس لها ما يدعم صحتها، لا بل يمكن تفنيدها بالإشارة إلى أن الكلاب لا تأكل الأصداف البحرية، فمن شبه المؤكد تاريخياً أن الصباغ الأرجواني كان يشكّل مع الزجاج العمود الفقري لتجارة البحارة الفينيقيين مع العالم القديم.

وقبيل القرن الخامس قبل الميلاد اكتشف الرسَّامون في الشرق الأقصى طريقة لصناعة لون قريب من الأحمر من تركيبة كيميائية عرفت باسم «كبريتوز الزئبقيق»، ولكن هذا اللون كان مرتفع الكلفة، وسامّاً، ويتحول إلى الأسود بتعرضه إلى الضوء. ومع ذلك فقد استمر استخدامه في الفنون الآسيوية لنحو ألف عام.

أما مهمة صابغي الأقمشة فكانت أصعب. إذ كان عليهم أن يكتشفوا مادة صباغ تقاوم الضوء والغسل فظلّوا نحو ألفي عام أو أكثر يعتمدون على مصادر طبيعية مثل النباتات والحشرات. واستخدموا لهذه الغاية جذور نبات الفوّة، وحشرة اللك التي تعيش في الهند وجنوب آسيا وغيرها.. غير أن أفضل مصدر للون الأحمر الجميل المقاوم لعوامل الزمن كان في «حشرة الأحمر الأرمني» التي تعيش في أرمينيا وأذربيجان وجورجيا وتركيا وإيران. واستخدم اللون الأحمر المستخرج منها في صباغة الأقمشة وأرقى أنواع السجاد اليدوي. وقد قيل في غلاء ثمن هذا الصباغ إن «طلاء السماء باللون الأزرق عشر مرّات يبقى أرخص من صباغة خرقة نسيج بهذا اللون».

حرب الكوشنيل

في عام 1519م، اكتشف الغزاة الإسبان في أمريكا الوسطى أن الهنود الأزتك يبيعون مادة صبغية حمراء في أسواق مكسيكو، ويطلقون عليها اسم «كوشنيل». فشحن الغزاة هذه المادة مع باقي الأشياء التي نهبوها



الأصباغ المستخرجة من حشرة الكوشنيل

مـن هناك إلى أوروبا حيث أنتج منها اللون الأحمر الأكثر إشراقاً الذي عرف في العالم حتى آنذاك.

بعـد ذلك بسنـوات ثلاث، جرَّد كارلوس ملك إسبانيـا حملة لاحتلال تنشتلان عاصمـة الأزتك ونهب ما فيها من ذهب وأصباغ، وكان له ما أراد. فبـدأ الصباغ الأحمر يتدفق علـى إسبانيا، ومنها إلى بقية أنحاء أوروبا.

استخدم القسم الأكبر من الكوشنيل في صناعة الملابس. إلا أن هذه الحشرة المجففة استخدمت لأغراض أخرى. فخلال عصر اليزابيت الأولى في إنكلترا، اعتبر التنافر ما بين الشفاه المطلية بالكوشنيل مع الوجـه المطلي ببودرة بيضاء شاحبة أرفع درجات الجمال. واستخدم الرسامـون الأوروبيون الكوشنيل في فنهم، كما أضافه الطباخون إلى بعض الأطعمة، واستخدمه الأطباء كدواء لبعض الأمراض.

احتكـرت إسبانيـا تجـارة الكوشنيـل لنحـو ثلاثـة قـرون. ويـروى أن الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابارت أعلن في عام 1810م عن جائزة مقدارهـا 20000 فرنـك لأي شخص يتمكـن من إنتـاج الكوشنيل في فرنسا.

ولكـن حشـرة الكوشنيل لم تصل إلى أوروبا إلاّ فـي العقد التالي. فبعد استقـلال المكسيك عن إسبانيا عـام 1821م، وفرار حشرة الكوشنيل من المكسيك إلى غواتيمالا المجاورة، خشيت إسبانيا من خسارة هذه السلعة الثمينة، فنقلتهـا إليها، ومنها راحت تنتشر في فرنسا وإيطاليا وجـزر المتوسط وحتى شمـال إفريقيا. ولكن هذه البيئـة الجديدة لم توفر إنتاجاً بجودة الأصل المكسيكي.

من محاسن الصدف في الكيمياء

فـي العام 1853م، انضم شاب إنكليـزي في الخامسة عشرة من عمره يدعـى وليم بيركن إلـى الكلية الملكيـة للكيمياء. وبعد ذلـك بسنوات ثلاث، وخـلال سعيـه لاكتشـاف الكينين المضـاد للملاريـا، اكتشف بالصدفة مادة سوف تطوي حقبة دموية من تاريخ الأصباغ. ففي نهاية التجربة حصل بيركن على مسحوق أحمر يميل قليلاً إلى البني، ودفعه فضوله إلى تجربته على قطعة قماش، ثم أرسل نماذج منها إلى مصانع الألبسة في اسكتلندا يسألها رأيها فيها. فأجمعت الأجوبة على أن اللون مرغوب وسيلقى رواجاً إذا كان ثمنه رخيصاً.

بـدأ بيركـن بإنتاج المادة الجديـدة بكميات تجارية بيـن عامي 1858 و1863م، وراح النـاس يتحولـون من الكوشنيل إلـى الأحمر الصناعي لوفرتـه ورخص ثمنـه. وبهذا غابت شمس الكوشنيـل إلى الأبد. وتولى تطور الكيمياء في العقود اللاحقة إنتاج أصباغ حمراء عديدة للملابس، وللطـلاء المعدني، وللرسامين، ولكل مـن يحتاج إلى إضافة لون أحمر إلـى أي شيء، وصـولاً إلى صبغ الطعام «ألورا ريـد آي سي»، المسموح باستخدامه من قبل السلطات الصحية في العالم، ويبقى مثيراً للجدل على صعيد آثاره الجانبيـة المحتملة، خاصةً لأنه مستخرج من قطران الفحم الحجري.

تتعدد الأهداف واللون واحد

تضافـرت ميزة اللون الأحمـر لجهة حضوره القوي أمـام العين، مع ارتفـاع كلفة الحصـول عليـه تاريخياً وندرتـه في الطبيعـة، لتنسج التاريـخ الفريد لهـذا اللون، وترتقـي به إلى مستـوى الخطاب الذي يعلـن، وإن بصمـت عن مضامين لا حصر لها فـي تنوعها وأيضاً في وضوحهـا، بحيث تـوزع اللون الأحمـر الواحد إلى مجموعـة ألوان لا علاقة لها ببعضها البعض.

الأحمر العسكري

تعود أقدم الشهادات إلى ربط الملابس الحمراء بعالم المحاربين إلى المـؤرخ الإغريقي كزينوفون الذي كتب عـن الأردية الحمراء التي كان يلبسهـا المحاربون في إسبرطـة القديمة، ربما لأن الـرداء يخفي بقع الدم، ويمكِّنهم من الظهور كمقاتلين عتاة لا يقهرون.

وتبنـت الإمبراطوريـة الرومانية «ذات المزاج العسكـري جداً» الأردية الحمـراء لفيالقهـا، وزادت عليه عرفـاً من الشعر الأحمـر فوق خوذة




الرأس. وكان ارتداء الوشاح الأحمر يعني أن مرتديه قد أقسم اليمين العسكرية، ولم يعد يعيش وفق القوانين التي تسود حياة العامة أو غيره من الجنود.

وعاش الأحمر العسكري منذ أيام إسبارطة حتى بدايات الحرب العالمية الأولى. فالجيش البريطاني الذي استعمر أمريكا كان مميزاً بستراته الحمراء، وقلب نابليون بونابارت في العام 1807م لون سترات جيشه من الأبيض والأزرق إلى الأحمر. وظل هذا اللون معتمداً في الجيش الفرنسي حتى عام 1915م، حينما لاحظ أحد القادة أن حمرة ملابس جنوده أصبحت هدفاً ممتعاً للقناصة الألمان، فقرر التحول إلى الأسود بدلاً منه.

وخلال الحرب الأهلية الأمريكية، لم يكن الجنوب الأمريكي الذي أخذ إلى الحرب على حين غرة مستعداً لها بزي موحد. فقامت النسوة بإهداء الجنود مناديل حمراء تربط حول العنق لإذكاء الحماسة وتوحيد الزي.

الأحمر الملكي

لأن الإمبراطور الروماني كان القائد الأعلى للجيش، ولأن الصباغ الأحمر كان الأغلى ثمناً (عادل في عصر ديوكليسيان وزنه ذهباً)، اعتمد الأباطرة هذا اللون في ملابسهم الرسمية. ومنهم، انتقل هذا التقليد إلى معظم ملوك أوروبا حتى القرن التاسع عشر. فحتى عندما تكون ملابس الملك بألوان مختلفة كان لا بد له من إضافة لمسة حمراء مميزة، مثل الأحذية الحمراء التي يرتديها لويس الرابع عشر على سبيل المثال في الحفلات الرسمية. أما معاطف حفلات التتويج فكانت كلها حمراء، إلى أن تغير الأمر في عهد الملكة فيكتوريا في بريطانيا، حين أصبح اللون الأحمر رمزاً لحياة الفسق والفجور، فامتنع عنه البلاط ومن ثم الأرستقراطية بأسرها.

الأحمر الوطني

ويحضر الأحمر القومي أكثر من أي لون آخر في أعلام دول العالم، والدافع إلى اعتماده يبقى واحداً أينما كان: إنه رمز دم الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن أوطانهم، أو الاستعداد لذلك. ومعظم الدول العربية صاغت أعلامها الحالية من وحي العلم المتخيل للوحدة العربية ذي



وأحمر الطربوش

أحمر الشماغ..

الألوان الأربعة: الأحمر والأبيض والأسود والأخضر، المستوحاة بدورها من بيتي شعر شهيرين لصفي الدين الحلي:

سلي الرماح العوالي عن معالينا
واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا
خضر مرابعنا حمرٌ مواضينا

وإضافة إلى أعلام بعض الدول، نرى الأحمر يصبغ جزءاً بارزاً من الأزياء الوطنية بدءاً بالتنورة السكتلندية، التي يرتديها الرجال، وصولاً إلى الطربوش المغربي والعثماني. أما المثل الذي نعرفه جميعاً فهو الزي الوطني السعودي الذي لم يقبل إضافة أي لون على بياضه الطاغي، إلاّ النقاط الحمراء على الشماغ.

الأحمر السياسي

تعود المضامين السياسية للون الأحمر إلى ما قبل الثورة السوفياتية بنحو قرن من الزمن. فعندما فر الزعيم الإيطالي غاريبالدي عام 1804م من بلده إلى الأوروجواي، ساعد مواطنيها في ثورتهم الاستقلالية، وأنشأ فيلقاً إيطالياً لدعم الحرب الاستقلالية. وتلقى هذا الفيلق تبرعاً كريماً تمثل في مجموعة قمصان حمراء، كان صاحب مصنع يستعد لتصديرها إلى الجزارين في الأرجنتين. فكان ذلك إيذاناً بنشوء «موضة» اعتماد الثوار اللون الأحمر للدلالة على هويتهم السياسية. وهذا ما حصل خلال مجموعة الثورات التي اندلعت في أوروبا عام 1848م. غير أن الثورة السوفياتية في العام 1917م هي التي أعطت المضمون السياسي للون الأحمر أكبر دفع له على المستوى العالمي. إذ أصبح هذا اللون رمزاً للشيوعية. حتى أن الأمريكيين خلال الحملة الكبرى لاستئصال تسلل الشيوعية إلى بلادهم، والتي قادها ماكارثي، لم يكن يشار إلى المتهمين بكلمة «شيوعيين» بل بكلمة «حمر»، كما كان يطلق على المد الشيوعي «المد الأحمر».

الأحمر الطبقي

ظل الأحمر طوال القرون الوسطى حكراً على النبلاء. وفي إحدى الثورات التي اندلعت في ألمانيا عام 1552م، كانت المطالبة بالحق في ارتداء الملابس الحمراء من ضمن مطالب الفلاحين. وبقيت الأحذية الحمراء ذات الكعوب العالية ممنوعة قانوناً على غير النبلاء في فرنسا حتى قيام الثورة الفرنسية. ولذا اعتبِر انتعالها بعيد الثورة تحدياً لقيم الثورة ذاتها. وسنت قوانين جديدة تحصر حق ارتداء القبعات وأغطية الرأس الحمراء بالطبقة البرجوازية العليا. الأمر الذي تحداه أبناء الطبقات الأدنى، لأن جاذبية الأحمر كانت أقوى من القانون.

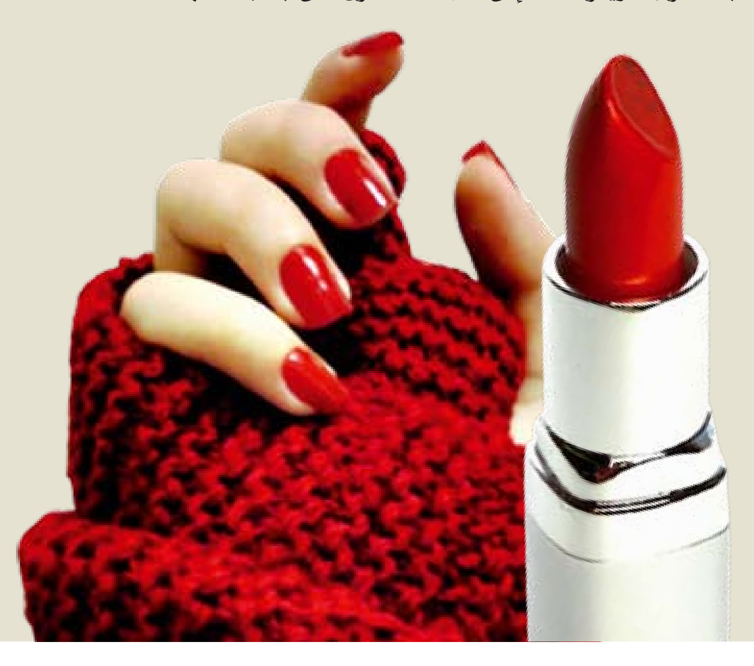
أحمر النهي والمنع

ويمارس الأحمر وظيفة لا علاقة لها بالسياسة والتاريخ والطبقات: وظيفة النهي عن الإقدام على شيء معين. فالضوء الأحمر في إشارة المرور يمنع السائق من التقدم عبر التقاطع ويأمره بالتوقف. أليس غريباً أن يتبدل سلوك شخص بين لحظة وأخرى بناءً على ظهور لون أمامه؟

الوظيفة نفسها يمارسها الخط الأحمر على دفتر التلميذ، وعلى الأرض في بعض المواقع القريبة من مناطق محظورة أو على الأبواب، وحتى على إشارات السير المعدنية لمنع الوقوف، لمنع السلوك في اتجاه معين، لمنع التجاوز...

الأحمر الإعلاني

ولا يقتصر حضور اللون الأحمر على إشارات السير المعدنية الناهية عن أمر معين، بل هو حاضر في معظمها، ولو على شكل إطار يحيط بمضمونها، ويعود ذلك إلى قدرة هذا اللون على جذب الانتباه.



هــذه القــدرة على لفت النظــر هي التي أعطــت هذا اللــون مكانته في الإعــلان وفــي شعارات الشــركات التــي اصطبغت كليــاً أو جزئياً بهذا اللون. وأيضاً على أغلفة المجلات الموجهة إلى العامة، إما لكتابة اسم المجلة، أو كإطار حول صفحة الغلاف لشد النظر إليه دون غيره وسط ازدحام الأغلفة المختلفة في الأكشاك.

أحمر الخطر

وحيثمــا اقتــرب الإنسان من مــكان خطــر، يطالعه اللــون الأحمر. قد يكون الإنــذار على شكل قمع من البلاستيك علــى الطريق، أو قد يكون علمــاً يلوِّح به عامل صيانــة على الطريق السريع أو غيــر ذلك. أما في الثكنــات والمنشــآت العسكرية فإن إطلاق صفــارات الإنذار مصحوبة بإضاءة الأنوار الحمراء يعني إعلان أعلى درجات الاستنفار، استعداداً لمواجهة الأعمال الحربية، أو للبدء بها.

أحمر حسن الضيافة وأحمر الطرد

بــدءاً مــن القــرن التاسع عشــر، راجت فــي أوروبــا الشرقية عادة فرش البســاط الأحمر عند مداخل القصــور وفي محطات القطار لاستقبــال كبار الزوار من رؤساء الــدول والرسميين. ومن المرجح أن هــذا التقليــد مستوحى مــن التقاليــد الأوروبية التي تــرى اللون الأحمــر ملكيــاً. ولكن يــروى أن ولي عهــد النمسا علّــق على حمرة البســاط الذي سار عليه لــدى وصوله إلى ساريييفو عام 1914م، إنه جيد لأن دماء الاغتيالات لا تظهر عليه، وكان ذلك قبل اغتياله فعلاً بوقت قصير.

علــى كل حال، لــم تؤثر حــوادث الاغتيــالات على ديمومــة البساط الأحمر، الذي صار يستخدم عند مداخل القصور غير الملكية، وفي كل المناسبــات الاجتماعية الكبــرى، مثل حفل جوائــز «الأوسكار»، الــذي دفع بدلالة البســاط الأحمر، إلــى أن تصبح مرادفــاً للظهور الاجتماعــي البــارز، حتى ولو لــم يكن هناك أي بســاط حقيقي على الأرض.

ومــن غرائب قــدرة الأحمر علــى جمع التناقضــات، هو أنــه في الوقت الذي يكــون فيه عنواناً لحسن الضيافة والترحيــب في البساط، يصبح أمــراً بالطــرد في حــالات أخرى مثــل «البطاقة الحمــراء» التي نعرفها جميعــاً، وبها يطرد لاعب الكرة الذي يرتكب مخالفة جسيمة على أرض الملعب.





الأحمر العاطفي

ربما لأن القلب يخفق بسرعة لدى الإحساس بعاطفة معينة، أو ربما لأن الوجنتين تتوردان، وربما لأن الأحمر لون دافئ، وربما لأن الورد الأحمر هـو الأقوى حضوراً أمـام البصر، أصبح اللون الأحمـر في المجتمعات الغربيـة رمـزاً للعاطفـة وللتعبير عنهـا. أمـا إذا تدنـت العواطف إلى مستويات غير أخلاقيـة أو غير مقبولة اجتماعياً، فيصبح الأحمر رمزاً للخطيئة والسوء. فمن هولندا إلى الهند توصم الأحياء التي تنتشر فيها أعمـال السوء والرذيلة في المدن بـ «الأحياء الحمراء»، كما توسم ليالي الصخب والمجون بـ «الليالي الحمراء».

الأحمر للأفراح والأحزان

ولمناسبـة ذكر الهند، نشيـر إلى أن العرائس في الهند يرتدين ثوباً من السـاري الأحمر في حفلات الزفـاف. والأمر نفســه ينطبق على بلدان آسيويـة عديـدة مثل النيبال وتايلنـد والصين.. أما فـي البلاد العربية فالحنـاء الحمراء علـى اليدين والوجه هي تقليدياً زينـة العروس. وفي المقابـل هناك مجتمعات تعتبر اللون الأحمر لون حداد على الموتى كما هو الحال في جنـوب إفريقيا، وكما كان الحال عند إنسان النياندرتالي قبل آلاف السنين.

الأحمر للتجميل

وتحتوي المحال التي تبيع مستحضرات تجميل نسائية على أكبر تشكيلة منوعـة من الأحمـر. وخاصة في تلـك الصناديق الكبيـرة التي تعرض أصابـع أحمر الشفاه بعشرات وربما مئـات التنويعات المختلفة من هذا اللون الواحد والتي تراوح ما بيـن الوردي والبنفسجي والقرمزي مروراً بمختلف درجات الحمرة...

الأحمر الصيني

ولا تختلـف علاقة الثقافـة الصينية باللون الأحمر عـن غيرها، إلا بكونها أكثر زخماً وأوضح للعيان. فكل من دخل مطعماً صينياً أينما كان في العالم، لاحـظ فـوراً طغيان اللـون الأحمر على الجـدران والمصابيـح وأغطية الطاولات وحتى الباب والإضاءة الخارجية.



ففي الصين لا مكانة لأي لون تقارب مكانة الأحمر. فهو اللون الإمبراطوري، وهـو الطاغي على المدينة المحرمة التي كانت مقـراً للأباطرة، وهو لون الحظ والمجد والصحة. وهو لون ملابس العروس كما أسلفنا.

وإضافـة إلى ما تقدَّم يحمل الأحمر في الصين جملة معانٍ إيجابية مثل الشجاعة، الإخلاص، الشرف، النجاح، الثـروة، الخصوبة، السعادة، ويرمـز أيضـاً إلى ما يبتعـد كلياً عن هـذه المعاني. ومـن ضمن رموزه فصل الصيف، وجهة الجنوب، سواءً أكان الجنوب بشكل عام، أم جنوب الصين. ناهيك عن أنه يحتل لوحده علم البلاد.

الأحمر.. أحمران وزهري

مايدعـوه النـاس باللـون الأحمـر، والأحمر كمـا نعرفه نحـن، هو ليس الأحمر ذاته الذي ينتمي إلى الألوان الأولية والأساسية الأربعة (الأزرق، الماجنتا، الأصفر، والأسود)، والتي يمكن أن تركب منها جميع الألوان، كما هو معروف خاصة في الطباعة الملونة.



فاللـون الأحمر الأساسي هو الأحمـر (الأرجواني) الذي تنتجه الطبيعة أو مـا يسمى «ماجنتا»، وفي الاستخدام اليومـي يطلق عليه أحياناً اسم «بامبـي». وهو لا يصبـح الأحمر الذي نعرفه نحـن إلا حين يضاف إليه اللـون الأصفر وبنفس الكمية تقريباً. أما إذا زدنا الأصفر إلى «أحمرنا» فيصبح برتقالياً. ومن خصائص الألوان الحمراء عموماً أنها إذا أضفت إليها الأبيض لا تصبح حمراء فاتحة، بل أقرب إلى اللون الزهري. وهي خصوصية لا يحبها فيها الرسامون.

الأحمر في الفن التشكيلي

قـد ازدادت أهميـة اللـون الأحمـر فـي الرسم مـع انطلاقـة المدرسة الانطباعيـة. فهـذه المدرسـة التـي بـدأت تتخلى عـن أصـول الرسم الكلاسيكـي لتلجـأ إلـى أساليـب تعبيرية أكثـر حرية وحيويـة تخاطب المشاعـر، استطاعت أن تجـوّد استخدام اللون الأحمـر لتزيد من وقع اللوحـة العاطفي. وقد قيـل أن الرسام الانطباعي لا ينهـي لوحة إلا إذا أضـاف إليها في مكان ما، خاصة في المنطقـة الوسطى، نقطة حمراء واحدة. ومن أشهر اللوحات التي لعب فيها الأحمر هذا الدور هي لوحات أزهـار «البرقـوق» للفنان الفرنسـي مونية.. والذي بـدوره لم يتوان عن المبالغة في « حمرة خدود» الصبايا اللاتي رسمهن بكثرة!

بعض العالم أحمر

ويمكننـا أن نستمر في جولتنا علـى عوالم الأحمر ودوره المميز للشيء، إلى ما لا نهاية. فلو قلنا «الكتاب الأحمر» لوجدناه عنوان الكتاب الشهير الـذي ضـم مقتطفات من أقـوال الزعيم الصيني ماو تسـي تونغ، وظل يُقـرأ ويدرس في الصين طـوال الستينيات من القـرن الماضي، وحتى انتهـاء الثورة الثقافية في عام 1976م. والاسم نفسه كان لمجلة نسائية أمريكيـة شهيـرة جداً فـي عشرينيات القـرن الماضي. ولـو بحثنا عن «الغيمـة الحمراء» لوجدناهـا اسماً لزعيم هندي خاض أشرس حرب عرفتهـا أمريكا ضد المستوطنين فـي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و«السلالة الحمراء» اسم لفصيلة من زهور التوليب في هولندا.

باختصـار، يبـدو أن العالـم لـم يجد فـي الماضي ولا فـي الحاضر ما يساعـده على التميز أمام بصـر الآخرين ووجدانهم مـا هو أفضل من اللون الأحمر.. اللون الذي حضر أكثر من غيره في شتى نواحي الحياة، ولا يزال يكتسب ميادين جديدة ليضمها إلى مملكته الشاسعة.

الأحمر الروائي

تنتهي رواية «الأحمـر والأسود» للكاتب الفرنسـي ستنـدال بعبارتـه المفضلة «لأولئـك القلـة مـن السعـداء».. والإهـداء المتهكـم هنا يأتـي للقلة الحاكمـة فـي المجتمـع الفرنسـي فـي أوائـل القـرن التاسـع عشر: الحمـر المنتسبيـن إلـى الجيـش ممن يرتدون زي الجندية الأحمر، والسـود المنتسبين إلـى الكنيسة ويرتـدون زي الكاردينـالات الأسـود. والسعـادة المقصـودة هي سعادة مرّة تقوم على النفوذ الجائر والنفاق والمال الحرام.

يقع على عاتق الأحمر في رواية ستندال وغيره من الروائيين حمل ثقيـل من رمزية يلقيهـا الكاتب، ويتوقع من الأحمـر أن يقوم بها بجـدارة. وهذا مـا يحدث في كثير من الأحيـان. مبدئياً، الأحمر طريـق سهـل ليوقظ الكاتب بـه حواس قارئه، ولذلـك بمجرد أن نبحـث في مكتبة ما عـن رواية تبدأ بالأحمر، نجـد المئات. على رفـوف أمـازون الافتراضيـة مثلاً، وبنظـرة سريعـة نستطيع أن نحصي مالا يقل عن 600 رواية يبدأ اسمها بهذه الكلمة، عدا تلك التـي يقع الأحمر في منتصفها أو آخرهـا. أما بقية الألوان فليس لها الحظ نفسه.



وإن وضعنـا جانباً الـدور الأولي الذي يلجأ إليـه الكتّاب بحاجة أو بـدون حاجة إلى الأحمـر لاستنفار انتباه القـارئ واقناعه بجدوى تصفـح الروايـة إن لـم يكـن قراءتها، نجـد أن هنـاك الكثير من الروايـات الناجحـة المؤثرة التي كان وجود الأحمـر فيها مدروساً وفاعلاً، بل ومترفعاً عن ذلك الدور الأولي الذي تحدثنا عنه سابقاً ليلعـب دوراً يصـب في صلب أحـداث الرواية أو يعبـر عن حبكتها الرئيسة. نجد هذا في رواية الفرنسـي ستندال، كما نجده في رواية «الأحرف القرمزية» للأمريكـي ناثانيل هاوثورن، ورواية «مطاردة الغواصـة أكتوبر الأحمـر» للأمريكي توم كلانسـي، ورواية «إسمي أحمر» للكاتب التركي أورهان باموق.. وغيرها كثير. الأحمر هنا لا يأتي للوصف والدعاية الصرفة، بل يأتي رمزاً وحدثاً وبطل.



الأحمر الخالص الثمين..

أي أحمر؟

لـو تطلعنـا إلى اللون الأحمر كما تعـرف به القواميس لوجدنا أنـه يضـم في الواقع عـدة ألوان مثـل الأحمر المائل إلى البرتقالي، أو إلى الوردي أو إلى البنفسجي أو البنـي... ويتسـع عالـم الأحمـر فـي ألـوان الطباعة التي تضم مئـات المستويات المختلفة من هذا اللون. ولكـن للبحث عـن الأحمـر الخالص الـذي لا تشوبه شائبـة لون آخر، فلا يوجـد أمامنا غير عالم الحجارة الكريمة، حيث يتربع الأحمر على القمة بلا منازع من قريب أو بعيد.

فأغلـى حجـر كريم على الإطلاق هو الماس الأحمر، الـذي يبـاع القيراط الواحـد منه بما يتجـاوز المليون دولار، مقابـل نصف مليون للأزرق، وعشـرة آلاف فقط للألماس عديم اللون. ولكن من النادر أن يدور الحديث عـن الماس الأحمـر لأن كل الكميـة المتداولة منه في العالم لا تزيد على أربعين قيراطاً (8 غرامات)!

إن كل الحجـارة الكريمـة الحمـراء تنتمـي أساسـاً إلى عائـلات مـن الحجـارة التـي تتكـون بألـوان مختلفـة وتكتسب حمرتها من اختلاط معدنها الأساسي بشيء من الماغنيزيوم أو الكروم أو أكسيد الحديد.. ومجرد اصطباغ الحجر الكريم بهذا اللون يعطيه اسماً مميزاً ويرفـع سعره إلى مستويـات فلكية.. من هذه الحجارة نذكـر البيـروب أغلـى حجـر فـي عائلـة الغرانيت، والروبيلايـت وهـو التورمالـين الأحمـر، والروبيسال وهو السبينـال الأحمر، والياقوت الأحمر (ruby) وهو مـن عائلة الكورندوم، وهـذا الأخير هو الأشهر، وأغلى بكثير من شقيقه الياقوت الأزرق (saphire).

الأحمر الذي خدع الملوك

ياقوتة الأمير الأسود

يمكـن لحمرة الحجـارة الكريمة أن تتقـارب إلى درجة تخـدع فيها أكثر العيون تمرسـاً باللون الأحمر: عيون ملـوك أوروبـا. ففـي وسـط التـاج الـذي تعتمـره ملكة بريطانيا يوجـد حجر كريم أحمر عُرِفَ تاريخياً باسم «ياقوتـة الأميـر الأسـود» (Black Prince Ruby). ولهـذه «الياقوتـة» التـي تـزن 170 قيراطـاً (34 غراماً) سيـرة ملحميـة تبـدأ مـن الأندلس. ففـي أواسـط القـرن الرابـع عشـر، كانـت هـذه الجوهـرة الحمـراء فـي حـوزة صاحـب قصـر الحمـراء أبـو سعيد أمير غرناطة، الذي قتله غدراً مضيفـه بطـرس الرهيـب صاحـب إشبيليـة، للاستيلاء علـى جواهره. ولكـن بطـرس الرهيـب تعرض لتمـرد مـن أخيـه، فاستنجـد بالأمير الإنجليزي إدوارد أوف وودستوك المعروف باسم «الأميـر الأسـود»، وقدم هـذا الأخيـر المساعدة العسكريـة المطلوبـة مشترطـاً الحصـول علـى «الياقوتـة الحمـراء»، فـكان له مـا أراد بعـد معركة «ناجيـرا» التـي دارت عـام 1367م فـي إسبانيـا. ومنـذ ذلـك الحيـن استقـرت هذه الجوهـرة ضمـن ممتلكات ملوك إنكلترا، وظهـرت في مناسبات تاريخية ومعارك عديـدة. حتى استقـرت وسط التاج الـذي صيغ لتتويج الملكة فيكتوريا، وما زال ملوك بريطانيا يستخدمونه فـي بعـض المناسبـات الرسميـة. الطريف فـي الأمر، أن تطـور وسائـل اختبار نوعيـة الحجـارة الكريمة في العصـر الحديـث كشفـت أن «ياقوتـة الأميـر الأسـود» ليسـت ياقوتة بل حجـر «سبينال»، ولكـن ذلك لا يعني انتقاصـاً من قيمة هذه الجوهـرة لأن «السبينال» بهذا الحجم الكبير يبقى يساوي ملايين الدولارات، ناهيك عـن قيمته التاريخيـة.. وأكثر مـن ذلك، يؤكد الخبراء فـي هذا الشـأن أن كل الأحجار الحمراء الضخمة التي رصعت تيجان أوروبا في الماضي بوصفها من الياقوت، هي في الواقع سبينال.

أي ثمن لأي أحمر؟

اليـوم، لـم يعـد الخلـط بيـن الياقـوت الأحمـر وغيره وارداً، بفضـل أدوات فحـص إلكترونيـة متوافـرة فـي

الأسـواق بأسعار زهيدة.. ولكـن الصعوبة كل الصعوبة هي التمييز بين ياقوتة حمراء وأخرى استناداً إلى قوة احمرارها، لأن لكل درجة من الحمرة ثمنها المختلف جداً عن ثمن غيرها. ولـذا، صنف تجّار الحجارة الكريمـة أنواع الأحمر في الياقـوت إلى عدة مستويات (بعد استبعاد الألوان القريبة من الأحمر مثل الوردي والبرتقالي والبنفسجي والبني استبعاداً تاماً).

ففـي إطـار الأحمـر الصافـي، نجـد الياقـوت يتـوزع بحمرته على عدة تصنيفات، نذكر منها ما هو متداول أكثر من غيره:

- أحمر قرمزي
- أحمر أرجواني
- أحمر دموي
- أحمر قرنفل
- أحمر فارسي (نسبة إلى لون مميز في السجاد الشيرازي)
- أحمر كاردينال (نسبة إلى ملابس الكرادلة الأوروبيين)
- أحمر راديكالي (نسبة إلى أعلام الحركات اليسارية)
- أحمر شريط (نسبة إلى شريط الهدية)
- أحمر رازمتاز (كلمة تركية الأصل، دخلت القاموس الإنكليزي للإشارة إلى المحير المدهش).
- أحمر كرز





أحمر دم الحمام

أمـا أغلى أنواع الياقوت الأحمر فهو الذي يكون بأقوى لـون أحمـر، والمعروف باسم «دم الحمـام». وأصل هذه التسميـة الغريبة يعود إلى طريقة ظلت لبضعة قرون معتمـدة فـي أوروبـا لتصنيـف أفضـل ألـوان الياقوت. وتقتضـي هـذه الطريقـة بوضـع الياقوتـة علـى ورقة بيضاء، وإسالة نقطة دم طازجة من طير حمام بقربها. فـإذا تطابـق لون الحجـر مع نقطة الـدم، يتم الإعلان أن لونـه مثالـي. وتبقـى مسألـة الشوائـب الداخليـة التـي نـادراً ما تخلو منها أحجار الياقـوت. أما إذا خلت منها، فيتجاوز سعـر الياقوتة سعر الماس عديم اللون بأضعاف مضاعفة.



الياقوت .. الأحمر بألف لون ولون

الأحمر شعراً..

دمٌ.. وردٌ.. وغيرهما الكثير

تستمد الألوان مكانتها في الأدب والشعر من مكانتها في الوجدان الشعبي، فمخيلة الشعراء وأقلام الأدباء ترجمة لذلك الوجدان.

وللأحمر في وجدان الناس حضور استثنائي، وكذلك في الأدب العربي بنثره وشعره، وقد لا يضاهيه في مكانته لون آخر، وبنظرة خاطفة للموسوعات الشعرية نجدها مزدحمة بذكره، فكلمة أحمر تكررت مئات المرات، بل إنها باشتقاقاتها الأخرى تكررت أضعاف ذلك، وقد أخذ الأحمر دلالات متعددة، وتوظيفات مختلفة في أشعار العرب، ولو أردنا استقصاءها في هذا الموضع لأعجزنا ذلك، غير أنه لا يسقط ميسور بمعسور، فإليك بعضاً من تلك الدلالات..

من ذلك قول عنترة (22 ق.هـ):

ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلٌ
منّي وبيضُ الهند تقطرُ من دمي
فوددْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها
لمعت كبارقِ ثغركِ المتبسمِ

فعلى الرغم من عدم ذكر الأحمر، تبدو متانة الصورة في تشبيه بياض السيف وحمرة الدماء عليه، ببياض الأسنان تحوطها الشفتان الحمراوان.

وقد استخدم الأحمر للدلالة على المنعة والقوة ولذا سميت قبيلة مضر «مضر الحمراء»، يقول بشر ابن أبي خازم (22 ق.هـ):

دعوا مَنْبِت السيفين إنهما لنا
إذا مضر الحمراء شبّت حروبها

ويقول ابن حيوس (473هـ):

إن تُرِد علم حالهم عن يقين
فالقَهُم في مكارم أو نزال

تَلْقَ بيض الأعراض سُمْرَ مَثَار
النقع خُضرَ الأكناف حُمرَ النصال

وأشهر منهما بيتي صفي الدين الحلي (755هـ) المذكورين آنفاً، واللذين استُوحِيَت منهما ألوان كثير من أعلام دول العرب.

وللإشارة للموت «الكأس الأحمر»، كقول الأخطل الصغير (1388هـ):

ضحك المجدُ لنا لمّا رآنا
بدم الأبطال مصبوغاً لوانا
عرُس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤساً حمراً وأنغاماً حزانى

وللدلالة على القتل، كقول أبي تمام (231هـ):

تَرَدّى ثيابَ الموت حمراً فما أتى
لها الليلُ إلا وهي من سندسٍ خُضرُ

وقد أصح للون في لغة العرب دلالة بلاغية، وفي ذلك يقول العباسي في معاهد التنصيص: ومعنى البيت أنه ارتدى الثياب الملطخة بالدم، فلم ينقض يوم قتله، إلا وقد صارت الثياب خضراً من سندس الجنة.

ثم قال: والشاهد في البيت الطباق المسمى التدبيج، وهو أن يذكر الشاعر في معنى من المدح أو غيره ألواناً لقصد الكناية أو التورية، ويسمى تدبيج الكناية أيضاً، فإنه ذكر هنا لون الحمرة والخضرة، والمراد من الأول الكناية عن القتل، ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة.

ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم (39 ق.هـ):

بأنا نورد الرايات بيضاً
ونصدرهن حمراً قد روينا

وقول أبي الشيص (196هـ):

فأوردها بيضاً ظماءً صدورها
وأصدرها بالري ألوانها حمر

وهذا ما وصفه العباسي بأبدع بيت للعرب في الطباق، لأنه طابق بين الإيراد والإصدار، والبياض والحمرة، والظمأ والري.

كما استخدم كناية عن الخضاب، وفيها يقول عنترة:

وما كنت في دوح تمس غصونه
ولا خضبت رجلاك أحمر قاني

وقال البحتري (284هـ):

لـو رأت حـادث الـخـضـاب لأنّـت
وأرنّـت مـن احـمـرار الـيـرنّـا

واليرنا الحناء..

وفي خضاب الموت بالدم الأحمر، يقول صالح الكواز (1290هـ):

خضبوا ومـا شـابـوا وكـان خضابهم
بـدم مـن الأوداج لا الـحـنـاء

وقد لوّن أحمد شوقي (1351هـ) الحرية بالأحمر، في قوله عند قيام قوات الانتداب الفرنسي عام 1926م بقمع ثورة سلطان باشا الأطرش في سوريا:

دمُ الـثـوّار تـعـرفـه فـرنـسـا
وتـعـلـم أنـه نـورٌ وحـق
ولـلـحـريـة الـحـمـراء بـابٌ
بـكـل يـدٍ مـضـرجـةٍ يُـدقُّ

هذا عن الأحمر الدموي. أما الأحمر العاطفي فمن أجمل ما قيل فيه، قول النقدي (1369هـ):

قـالـوا نـرى لـون حـنـاء براحتها
فقلت ما لـون حـنـاء ولا عنم
كانت تلاعب صدغيها فأظفرها
أدمت فؤادي وهذا اللون لون دمي

وعلى الرغم من أنه كعنترة لم يذكر الأحمر لفظاً إلا أنه صريح في ذكر العنم تلك الشجرة ذات الزهرة الحمراء، ولون الدم القاني المسفوك على مذبح الهوى.

أما عن حمرة الخجل، فيقول ابن الرومي (283هـ):

أمـا تـرى الـحـمـرة فـي خـده
تـنـطـق عـن خـجـلـة مـفـضـوح

ويقول حسين الدجيلي (1305هـ):

فقيل من أنت فارتاعت فرائصه
وقد كسا الخدَ ثوبَ الحمرةِ الخجل

وعن احمرار العين حزناً، فيقول الخبز أرزي (317هـ) هذين البيتين الجميلين:

شكوت إلى إلفي سهادي وعَبرتي
فقلت احمرار العين يخبر عن وجدي
فقال مُحالٌ ما ادعيت وإنما
قَطَفتَ بعينيك التورُد من خدي

ورديف لهذا الجمال قول أمين نخلة (1396هـ) في حمرة الشفاه لا في أحمرها:

أنا لا أصدق أن هذا الأحمر المشقوق فم
بل وردة مبتلة، حمراء، من لحم ودم
أكمامها شفتان، خذ روحي، وعللني بشم
إن الشفاه أُحِبها، كم مرة قالت: نعم

وقد أخذ الأحمر دلالات حديثة في الشعر بعدما تعددت استخدامات اللون الأحمر ودلالاته، كالجيش الأحمر والمد الأحمر، والشاشة الحمراء، والسجادة الحمراء، ومن ذلك قول جاسم الصحيح، إشارة إلى التفخيم:

هل أنْـزَلَـتْـكَ الأبـجـديَّـةُ باسمها
ضيفاً على الأبديَّةِ الفَيْحاءِ؟!
هل قابَلَتْكَ فخامةُ الفِكَرِ التي
تمشي على سَجَّادَةٍ حمراءِ؟!

ويطول بنا المقام، غير أننا نختم بنص انصبت كل أبياته على اللون الأحمر، فذَكَرَتْه في الزهر والملابس والدم والشمس والخدود وغير ذلك، وهو نص من أربعة أبيات، أصله على ما يبدو للوزير المهلبي (352هـ)، لكنه استهوى الوأواء الدمشقي (385هـ) فنسج على منواله إلى حد المطابقة، أو على الأقل هو منسوب إليه، كما نسج أبو العباس أحمد الدارمي المعروف بالنامي (399هـ) على منواله، وزاد عليه ليصبح ستة أبيات، هذا الشغف بهذه الأبيات سلك بها إلى الوجدان الشعبي، وأدرجها في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة، وفيها وصف لحبيب يرتدي قميصاً أحمر، يقول النامي، صاحب الوقائع والمعارضات الشهيرة مع المتنبي:

أتاني في قميص اللاّذ يسعى
عـدوٌّ لـي يـلـقّـب بـالـحـبـيـب
وقد عبث الشراب بمقلتيه
فـصـيّـر خـدّه كَـسَـنـا الـلـهـيـبِ
فقلت له بما استحسنت هذا
لـقـد أقـبـلـت فـي زي عـجـيـب
أحمرة وجنتيك كستك هذا
أم أنـت صـبـغـتـه بـدم الـقـلـوب
فقال الشمس أهدت لي قميصاً
بـلـونٍ قـد حـكـى شـفـق الـغـروب
فثوبي والمدام ولون خدي
قـريـب مـن قـريـب مـن قـريـب

ولو قال: لهيبٌ في لهيبٍ في لهيب، لكان أروع.

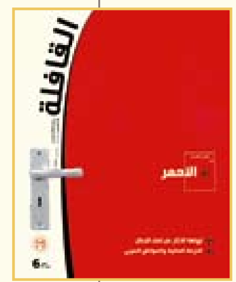


الناس الحمر..

كان العرب قديماً يصفون الأوروبيين بالحمر، وليس بالبيض، لأنهم كانوا يرون أن صفة العرب هي السمرة، أما أولئك الذين على الجانب الآخر من البحر المتوسط فيميلون إلى اللون الوردي الأحمر. وعندما وصل كريستوف كولومبوس إلى أمريكا، وكان يسعى إلى الوصول إلى الهند، وجد أن سكان المناطق المستكشفة هم ذوو بشرة تميل إلى اللون الوردي وليس إلى اللون الأسمر كما كان يتوقع. فأطلق عليهم اسم «الهنود الحمر»، وهو الاسم الذي ألصِق بسكان القارة الأصليين ومن تبقى منهم حتى عصرنا هذا.

ومن الناس من يولد بشعر يميل لونه إلى الحمرة. وفي لون الشعر الأحمر درجات تراوح بين البرتقالي والشقرة النحاسية. والسبب في ذلك هو أن ذوي هذا الشعر الأحمر يكثر عندهم الصبغ المسمى «فيوميلانين»، فيما يقل عندهم الصبغ المسمى «أوميلانين». وتبلغ نسبة ذوي الشعر الأحمر بين 1 و2 في المئة من البشر، وتتركز نسبة أكبر (بين 2 و6 في المئة) عند شعوب أوروبا الشمالية والغربية.ويصاحب هذا اللون في الغالب لون فاتح في البشرة، ونمش، وحساسية عينين من أشعة الشمس فوق البنفسجية.

وقد قوبل ذوو الشعر الأحمر في أوروبا بالتقدير تارة وبالعداء تارة أخرى. فالفنانون أعجبوا بهذا اللون عندما رسموه في لوحاتهم، ومن هؤلاء فنانو عصر النهضة بشكل خاص، ولكن في الوقت نفسه، نجد أنه في إنكلترا ذات النسبة الكبيرة من ذوي الشعر الأحمر تعتبر كلمة جنجر التي تشير إلى ذي الشعر الأحمر، كلمة غير لطيفة، حتى أن الجنجرية كادت أن تساوي نوعاً من العنصرية.



القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
نوفمبر - ديسمبر 2008
المجلد 57 العدد 6

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com